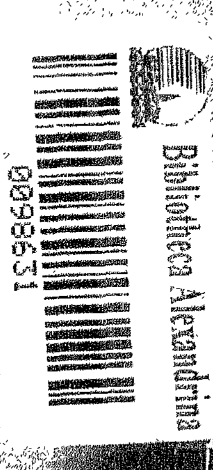
رجب البنا



دار المعارف



رجب البنا

الغرب والإسلام





دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

إهـــداء

إلى أخى أحمد

أول أستاذ .. وأول صديق



مقدّمة

أتيحت لى فرصة نادرة فى مصاحبة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر فى رحلة إلى الولايات المتحدة عام ١٩٩٥ ، وكان وقتها يشغل منصب مفتى الديار المصرية ، ثم فى ثلاث رحلات أخرى إلى الهند ، وباكستان عام ١٩٩٦ ، وألمانيا فى عام ١٩٩٧ . كما قمت بزيارة مكثفة إلى بريطانيا عام ١٩٩٧ أيضا . وفى هذه الرحلات لمست عن قرب كيف يتعرض الإسلام لحملة تشويه كبيرة فى كل أنحاء العالم ، حتى فى داخل العالم الإسلامى ذاته .

فى الغرب كانت صورة الإسلام إنه الدين الذى يدعو إلى القتل والاغتيال تحت شعار « الجهاد » ، وإنه الدين الذى يرفض التعايش مع « الآخر » فهو إما قاتل أو مقتول ، وتكتمل الصورة بما أضيف إليها فى الغرب بأن الإسلام مرتبط بالهمجية فى التفكير والسلوك ، ومعاداة التقدم العلمى فى أى مجال ، وإنه دين الجمود والارتباط بالماضى ، والاستهانة بالحاضر ، وتجاهل المستقبل .

وفى الشرق كانت صورة الإسلام مرتبطة بالأساطير والخرافات والمفاهيم المغلوطة ، والفتاوى المسرفة ..

والخلاصة إننى خرجت من هذه الجولات بما دار فيها من حوارات واسعة ، إلى أن الإسلام الآن فى موقف الدفاع ، وإنه محتاج إلى « محام » أو أكثر ، لكى يدافع عنه ، ويقدم الصورة الصحيحة له .. على أن يقدمها للمسلمين أولا قبل أن يقدمها لغيرهم .

ولقد أدى فضيلة الدكتور محمد السيد طنطاوى واجبه كاملا بما يرضى

الله ، ولن أنسى الساعات الطويلة التى كان يقضيها دون راحة لكى يشرح حقائق الإسلام ويكشف أباطيل خصومه .. وفى كل بلد زارها ترك انطباعا هائلا بأن هذا الوجه السمح الحضارى للإسلام كان غائبا ، وإنه يجب أن يستمر فى هذا الدور إلى أن تزول هذه السحابة الهائلة التى تكاد تظلل العالم كله وتخفى الوجه المشرق للإسلام ..

وفى هذا الكتاب جانب من الحوارات التى شاركت فيها فضيلة الإمام الأكبر .. ولم أستطع أن أسجل كل الحوارات بالتفصيل لأن ذلك كان سيجعل الكتاب أكبر من الحجم المعقول .. وقد فضلت الإيجاز والإشارة وقد أجد فرصة لنشر بقية هذه الحوارات .

وإن كنت قد خرجت من هذه الجولات بقضية أخرى لم أكن منتبها لها بالدرجة الكافية ، وهى وجود روح عدائية تجاه الإسلام متغلغلة منذ عصور قديمة ومستمرة حتى الآن .. وكنت أظن أنها ليست أكثر من محاولات فردية ، أو اجتهادات تكشف جهل أصحابها ، أو ثمرة من ثمار الدعاية السياسية السوداء تجاه الإسلام وبلاد المسلمين .. ولكنى اكتشفت أن الأمر أوسع وأعمق مما تصورت .. ومازلت مشغولا بالبحث عن الجذور ، وربما أستطيع أن أقدم نتائج بحثى فى كتاب آخر .

وأعتقد أن المؤتمر الدولى الذى عقد فى القاهرة فى يوليو ١٩٩٧ تحت عنوان « الإسلام والغرب » كان أهم خطوة لإجراء مصالحة تاريخية بين العالمين الغربى والإسلامى ، فقد شارك فى هذا المؤتمر علماء من الجانبين ، ووفود عن المنظمات الدينية الإسلامية والمسيحية واليهودية .. وكانت كلمة الرئيس حسنى مبارك واضحة فى الإشارة إلى الأخطاء التى وقع فيها الغربيون فى فهمهم للإسلام ، وتوضيحًا لحقيقة هذا الدين الذى ينطوى فى جوهره على التسامح والمحبة لكل البشر ، وكذلك

كانت مشاركة الإمام الأكبر شيخ الأزهر وقداسة البابا شنودة واتفاقهما معا على مفهوم واحد ، هو أن الإسلام لا يحمل عداء للعقائد الأخرى ، ولكنه – على العكس – جاء دعوة لكل البشر ليعاونوا على البر والتقوى وليس على الإثم والعدوان .

وكان هذا الاتفاق بين شيخ الأزهر الذى يمثل قمة المؤسسة الإسلامية ، والبابا شنودة قمة الكنيسة المسيحية بالغ الدلالة على أن الذين يفهمون الإسلام على حقيقته لابد أن يقفوا منه موقف الاحترام مهما اختلفوا معه .

ولابد أن نعترف أن زيارات شيخ الأزهر ، ولقاءاته كانت بداية العمل الحقيقى لتنبيه العالم الغربى إلى حقيقة الإسلام ، ودعوته إلى عدم الانسياق لحملات التشويه المسمومة التى يحركها أهداف ومصالح وأطماع سياسية ، قد أثمر هذا الجهد ، فأصبح الموضوع مطروحا للحوار العام ، يشارك فيه مفكرون وكتاب جدد ، يجتهدون فى البحث عن الحقيقة ، ثم جاء مؤتمر القاهرة ، وبعده ستتوالى لقاءات للحوار الإسلامى المسيحى وربما تظهر دراسات جديدة فى الغرب ، تكشف المبالغة فى التحذيرات السابقة من خطورة الإسلام وتقف موقف الإنصاف من هذا الدين الذى يرفض العدوان بكل صوره .

وكانت الروح الغالبة فى هذا المؤتمر هى الرغبة فى تجاوز الماضى بما فيه من ذكريات مؤلمة للغرب من آثار الفتح الإسلامى وذكريات مؤلمة للعالم الإسلامى من آثار الحملة الصليبية ، والاستعمار القديم والجديد .. ولا أستطيع آن أقول : إن مؤتمرًا واحدًا يمكن أن يزيل آثار الماضى كله ، ولكنه بالتأكيد خطوة جادة تفتح الباب للحوار والتفاهم وإقامة جسور جديدة من الثقة .

وأدعو الله أن يهب العالم الإسلامى من أمثال الدكتور طنطاوى من يقدر على مخاطبة العالم بلغة عصرية يفهمها وتؤكد قرب الإسلام من حقائق العصر وتظهر أنه بحق دين لكل زمان ومكان ، وجزى الله إمامنا الأكبر خيرًا على جهاده وجعل ثمار رحلاته فى ميزان حسناته .

القاهرة فى يوليو ١٩٩٧م .

رجب البنا

القسم الأول

حوارات شيخ الأزهر

في :

- أمريكا .
- باكستان .
- الهند .
- ألمانيا .

فى أمريكا

١ هكذا كانت البداية

عندما هبطت الطائرة فى مطار كنيدى فى نيويورك كان فى استقبالها حشد كبير فى مظاهرة لم تر مثلها الولايات المتحدة ..

كان الجميع قد علموا أن مفتى مصر سيصل إلى الولايات المتحدة فى زيارة يلتقى خلالها بالمسلمين والمسيحيين ويبقى بينهم ١٢ يوما متنقلا بين ولايتى بنسلفانيا وأوهايو، ثم مدينتى نيويورك والعاصمة واشنطن .. وكانت السفير سهير زكى قنصل مصر العام فى نيويورك تحمل معها عشرات الطلبات التى تقدمت بها هيئات وجمعيات تطلب تعديل جدول زيارات المفتى لكى يجدوا وقتا لدعوته إلى لقاء معهم .. وكان الحشد الذى يحيط بالمفتى فى كل اجتماع ولقاء خليطا من المسلمين والمسيحيين .. ومن المصريين والعرب والأفارقة .. ومن الأمريكيين السود والبيض .. ومن الرجال والنساء ..

وكان الانطباع الأول عن أهمية هذه الزيارة هو ما قاله أحد أئمة المسلمين الأمريكيين للمفتى :

— لقد تأخرت علينا كثيرا .. كان يجب أن تتم هذه الزيارة منذ سنوات طويلة .. لأننا نحتاج إليك .. ولدينا الكثير مما نريد أن نعرضه عليك ونناقشه معك .. والآن وقد جئت أخيرا نرجو أن تتكرر هذه الزيارة .. وأن تكون بداية جسر يربط بين مصر وهى قلعة الإسلام ومهد الحضارة وبلد الأزهر .. وبين الولايات المتحدة التى يعيش فيها أكثر من ٨ ملايين مسلم متفرقين ،

ويحتاجون إلى من يجمعهم على كلمة سواء .. وأنت تستطيع ذلك بحكمتك .. وعلمك .. وما لمسناه فيك من مقدرة على النفاذ إلى القلوب ..

وتكرر نفس الكلام تقريبا فى كل لقاء للمفتى مع كل جماعة من جماعات المسلمين فى أمريكا .. أما المصريون – مسلمون ومسيحيون – فقد كانت الدموع فى عيونهم انفعالا برؤية المفتى وهو قادم فى صحبة رئيس الطائفة القبطية الإنجيلية فى مصر . الدكتور صموئيل حبيب .. وهما يؤكدان عمق الروابط بين المسلمين والمسيحيين .. وكلاهما يقول نفس الكلام .. حتى إن أحد قادة الكنائس الأمريكية علق فى أحد اللقاءات على هذه الروح الأخوية قائلا :

– إننى أتمنى أن يتعلم الأمريكيون من المصريين كيف يتعاملون معا بروح المحبة والتعاون رغم اختلاف دياناتهم .. لأن ما يحدث فى مصر شيء فريد .. لا يتكرر كثيرا فى العالم .. والآن تأكدت أن ما نقرؤه عن حوادث العدوان التى تقع فى مصر ليست إلا حوادث إجرامية فردية لا يصح أن نعطيها حجما أكبر من حجمها الحقيقى ..

كان الإحساس العام منذ بداية الرحلة إلى نهايتها أنها نجحت فى تحقيق هدفها ، وهو تصحيح صورة مصر والإسلام لدى الرأى العام الأمريكى .. وتبقى متابعة هذه الخطوة الأولى .. لأنها ليست إلا بداية لطريق طويل من العمل إذا أردنا أن نجد لأنفسنا مكانا فى أمريكا ، ولا ندع الساحة بالكامل خالية لغيرنا ينفرد بها ويحقق فيها نجاحا ما كان ممكنا أن يحققه بهذا الحجم لولا غيابنا ..

ورغم مشقة الرحلة التى لم تدع لنا فرصة لالتقاط الأنفاس .. لم يتركنا أحد للراحة .. لأنهم – على حد قولهم – انتظروا طويلا .. وليس ضروريا أن ترتاحوا عندنا ..

وكانت رحلة لا مثيل لها ..

* * *

جاءت فكرة هذه الرحلة حين وجهت الكنيسة الإنجيلية المسيحية فى أمريكا الدعوة إلى فضيلة المفتى ، الدكتور محمد سيد طنطاوى ، وإلى رئيس الطائفة الإنجيلية فى مصر ، الدكتور صموئيل حبيب . لزيارة أمريكا ، للقاء القادة الدينيين الإسلاميين والمسيحيين ، وتقديم صورة للتعاون المشترك بين المسلمين والمسيحيين فى مصر .. وتولى الإعداد لهذه الرحلة ممثل الكنيسة الإنجيلية فى أمريكا لشئون الشرق الأوسط ، الدكتور فيكتور مكارى ، وهو مصرى ، مازال شديد الارتباط بمصر ، قام بالاتصالات ، وإعداد اللقاءات ، كما قام بالترجمة طول الوقت من اللغة العربية إلى اللغة الإنجليزية ، وكان دقيقا فى ترجمته لكلمات المفتى بكل ما فيها من مصطلحات فقهية ، وآيات ، وأحاديث .. كما كان الدكتور صموئيل حبيب حريصا على أن يؤكد فى كل لقاء على أن الإعلام الأمريكى يقدم صورة غير دقيقة لما يحدث فى مصر .. فكل حوادث الإرهاب التى تحدث ليست إلا أحداثا فردية .. لا تمثل مصر .. ولا تستند إلى قاعدة من الرأى العام المصرى .. بل إن المصريين يرفضون مسلك هؤلاء المتطرفين والإرهابيين .. وكان السفير المصرى الممتاز أحمد ماهر سفيرنا فى واشنطن يساند الرحلة بكل ما يستطيع .. وبذلت السفير سهير زكى جهودا تفوق الطاقة .. وكان هناك عشرات الأمريكيين يعملون بحماس لجمعية مصرية أمريكية لتنظيم المساعدات لمشروعات الخدمات الاجتماعية فى مصر ..

وكانت البداية فى مدينة صغيرة فى ولاية بنسلفانيا هى مدينة وستمنستر .. فى هذه المدينة كلية مشهورة هى فى الحقيقة جامعة ؛ لأنها تضم مجموعة تخصصات مختلفة .. وقد قررت إنشاء درجة للدكتوراه عن

« صنع السلام » وقررت أن تمنح هذه الدكتوراه الفخرية لأول مرة لكل من المفتى والدكتور صموئيل حبيب ..

وكان الاحتفال مهيبا .. حيث تجمع كل الأساتذة فى أروابهم الجامعية وساروا فى طابور طويل بين مئات الحاضرين من أساتذة الجامعات ورجال الدين والشخصيات الأمريكية البارزة .. وعلى رأس الطابور سار المفتى وهو يرتدى الروب الجامعى ومعه الدكتور صموئيل حبيب .. ووقف جميع الحاضرين .. وارتفع علم مصر .. وتجمع المصريون الذين جاءوا من المدن والولايات المحيطة ، داخل وخارج القاعة ، وبعضهم قطع أكثر من ٢٠٠ ميل من أجل أن يشهد هذه اللحظة .. واشتعلت القاعة بالتصفيق والهتاف لمصر بينما الدكتور أوسكار ريمك يقلد وشاح الدكتوراه للاثنين ، ثم وهو يلقى كلمته ويشيد بروح الأخوة والسماحة فى مصر التى جعلت المسلمين والمسيحيين يحققون معا إنجازات كثيرة فى مجالات التعليم ، والرعاية الصحية ، والخدمات الاجتماعية ..

وكانت كلمات المفتى شديدة التأثير فى الحاضرين وهو يقول فى كلمته فى هذا الاحتفال : إن الله قد أوجد الناس جميعا من أب واحد ، ومن أم واحدة ، وأمرهم أن يعيشوا إخوة ، يحب كل واحد منهم الخير لغيره كما يحبه لنفسه . ونحن فى مصر نحرص — كمسلمين ومسيحيين — على نشر روح الإخاء والمودة فيما بيننا ، لأن هذه الروح السمحة العاقلة عندما تنتشر فى أمة ، يعمها الخير والرقى والأمان ..

وشدت كلمات المفتى انتباه الجميع بدرجة غريبة وهو يقول : إن المسلمين والمسيحيين فى مصر مساكنهم متجاورة ، ومزارعهم ومصانعهم ومتاجرهم متلاصقة ، أو متقاربة ، والخير الذى يأتى إلى مصر لا يأتى للمسلمين وحدهم ، أو للمسيحيين وحدهم ، وإنما يأتى للجميع ..

وازداد الانتباه عندما رنت كلماته وسط السكون الكامل وهو يقول : إن كل من يحمل الجنسية المصرية له من الحقوق ، وعليه من الواجبات ، مثل ما لغيره سواء كان مسلما أم مسيحيا أم يهوديا أم غير ذلك ، لأننا نؤمن أن أبناء البلد الواحد يتساوون فى الحقوق والواجبات ، أما العقائد ، فلكل إنسان عقيدته التى اختارها .. والعقائد لا تباع ولا تشترى ، ولا إكراه فى الدين ، لأن الإكراه لا يأتى بمؤمنين صادقين مخلصين ، وإنما بمنافقين كاذبين ..

وظل الصمت كاملا والمفتى يتردد صوته وسط القاعة المهيبة لكلية وستمنستر وهو يقول : إن علماء الدين الإسلامى والمسيحى فى مصر يتعاونون فيما بينهم تعاونا أخويا صادقا من أجل نشر روح المحبة والمودة والسلام .. لا فى مصر وحدها ، بل فى كل مكان فى العالم .. وهم يفعلون ذلك لأنهم جميعا يعتقدون بأن الأديان السماوية أنزلها الله لسعادة الناس لا لشقائهم .. لأمنهم لا لخوفهم .. لتقدمهم لا لتأخرهم .. أنزل الله الأديان السماوية للتعمير لا للتخريب .. للإصلاح لا للفساد .. للتقريب لا للتفريق .. للفضائل لا للرذائل .. للحب لا للحقد .. وفى كثير من المناسبات الدينية والوطنية يلتقى المسلمون والمسيحيون ليتبادلوا التهانى ، وليتناولوا الطعام معا .. وليجددوا الإخاء مع بعضهم .. وأنا شخصيا تحدثت من فوق منبر الكنيسة الإنجيلية وبحضور آلاف المسيحيين والمسلمين ..

وازداد الصمت أكثر وأكثر عندما قال المفتى بصراحته وتلقائيته :

لقد سمعتم عن بعض الأحداث القليلة التى قام بها بعض الذين لا يفهمون الأديان السماوية فهما سليما ، والذين امتدت أيديهم بالتخريب إلى بعض المنشآت ، وبالعدوان على بعض المسلمين ، والمسيحيين ، والسياح ، وإنى باسم الدين الإسلامى أحيطكم علما بأن الدين الإسلامى برىء من أفعال هؤلاء المعتدين .. ولو أن هؤلاء الجاهلين فهموا دين الإسلام فهما سليما ،

لعرفوا أن غير المسلم دمه مصون كدم المسلم تماما ، وأن أمواله مصونة تماما كأموال المسلم . وأن كرامته محترمة تماما ككرامة المسلم .. ومادام غير المسلم يحترم عقيدة المسلم ، فإن على المسلم أيضا أن يحترم عقيدة غيره ، ولايسيء إليه بأى لون من ألوان الإساءة .. لأن دين الإسلام دين سلام وأمان لكل من يمد يده بالسلام والأمان .. وإننى باسم دينى الإسلامى أدعو كل إنسان سواء كان مسلما أم مسيحيا أم يهوديا إلى أن يعرف أن الأديان السماوية جميعها تدعو إلى نشر المحبة والمودة وتبادل المنافع بين الناس لكى يعيشوا عيشة كريمة ، تظللها راية الحب والعدل والكرامة ..

وانفجرت القاعة بتصفيق استمر طويلا ..

وظل التصفيق وعميد الكلية يقول : هذا كلام نسمعه لأول مرة .. وكنا نحتاج إلى أن نسمعه من مصدر ثقة يعبر عن الإسلام .. وإن هذا الفهم الجديد للإسلام يجب أن ينتشر ..

وأكد هذه المعانى الدكتور صموئيل حبيب رئيس الطائفة الإنجيلية وهو يقول : إن الهيئة القبطية الإنجيلية فى مصر تقدم خدماتها فى الرعاية الصحية والاجتماعية والتعليمية وتنظيم الأسرة وتحسين ظروف المعيشة وإيجاد فرص عمل للشباب .. تقدم هذه الخدمات للمحتاجين إليها فى أماكن عديدة من القرى والأحياء الفقيرة دون تفرقة بين مسلم ومسيحى .. لا يهمنا لمن تصل خدماتنا .. المهم أن تصل إلى من يحتاج إليها .. لا فرق بين مسلم ومسيحى ..

وعلق أستاذ مصرى قائلا : هذه هى مصر أيها السادة .. بلد لا مثيل له فى التسامح .. لأنها أم الحضارة ..

وزيادة فى التكريم دعا رئيس كلية وستمنستر الدكتور أوسكار ريملك المفتى والدكتور حبيب إلى العشاء فى بيته مع عشرات من الأساتذة والشخصيات البارزة .. وكان البيت الأنيق فى مدينة نيو ولمنجتون مكتظا فى

المرتين بعدد كبير من الأمريكيين يحبون مصر حبا يفوق الوصف .. أكثرهم عاش فى مصر سنوات طويلة .. وبعضهم مازال يعيش بمشاعره فى مصر .. ويتحدثون باللغة العربية .. وقالوا : إن زيارة المفتى شجعتهم على أن يتجمعوا ويتحركوا ليشرحوا للأمريكيين الحقائق عن المجتمع المصرى كما لمسوها بأنفسهم لسنوات طويلة ..

وكانت الإقامة فى نيو ولمنجتون .. وفى وستمنستر .. مليئة بالحوارات والمناقشات .. وفى كنيسة وستمنستر تجمع قادة الكنائس الإنجيلية المشيخية فى المنطقة ليسألوا المفتى ويتحاوروا معه عن سماحة الإسلام ، وعلاقته بالأديان الأخرى ، ومصدر العداوة والعنف لدى الجاهلين بحقيقة الإسلام ..

وكانت مناقشة علمية وموضوعية هدفها رغبة حقيقية فى الفهم .. والتفاهم ..

* * *

وفى مسجد كبير فى مدينة ينجستون بولاية أوهايو كان قادة المسلمين فى المنطقة فى انتظار المفتى ليسألوه أسئلة فقهية كثيرة عن الحلال والحرام .. بعضهم من المسلمين الأمريكيين البيض .. وبعضهم من السود الذين لا يعرفون الكثير عن الإسلام .. وبعضهم من المصريين والعرب الذين بَعُد بهم العهد فى أمريكا فازدادوا تمسكا بالإسلام ، ولكنهم يفتقدون إلى المعرفة بحقائق الإسلام .. واكتشفنا من الحوار أنه من الخطأ أن يترك هؤلاء لأفكار غريبة تصل إليهم من مصادر تجهل الإسلام ..

وأدركنا أن مسئولية مصر أن توفد عددا أكبر من الأئمة ورجال الدين والدعاة إلى كل أنحاء الولايات المتحدة .. لأن هذه قاعدة عريضة للإسلام .. قاعدة جديدة .. تتطلع إلى مصر .. وتمد يدها لتطلب العون .. ووطن الأزهر هو الذى يستطيع أن يقود ويعلم ويجمع كل هؤلاء على كلمة الحق ..

وتكررت أسئلة مُحَيِّرة فى مسجد مدينة نيو كاسل : هل اختلاط الرجال والنساء فى العمل حرام ؟ .. وماذا يفعلون وهم فى أمريكا حيث الاختلاط أمر من ضرورات الحياة ؟ .. والعمل أيضا من ضرورات الحياة ؟ وهل التعامل مع البنوك حرام ؟ وماذا يفعلون وهم فى أمريكا .. حيث لا يستطيع الإنسان أن يشترى بيتا أو سيارة أو متجرا إلا عن طريق التعامل مع بنك .. بل لا يستطيع أن يتعامل فى أبسط صور الشراء والبيع إلا عن طريق بطاقات الائتمان التى تصدرها البنوك .. ومقاطعة البنوك معناها عدم التعامل أو عدم العمل والانقطاع عن الدنيا كلها ؟ .. وأسئلة أخرى كثيرة .. ماذا يحدث فى مصر ؟ وأين الكتب الدينية التى تصدرها مصر ؟ ولماذا لا تصل إلينا ؟ ولماذا لا تنتج فى مصر أفلام فيديو لتعليم الصلاة والصوم والحج والزكاة وتفسير القرآن ؟ .. على أن يكون ذلك باللغة الإنجليزية وتباع بثمن معقول ويمكن أن تجد سوقا تناسب من يعيشون فى أمريكا وقد فقدوا الصلة باللغة العربية ؟ وهذه مشكلة كبيرة .. لأن أبناء الجيل الثانى من المهاجرين تبعُد الصلة بينهم وبين مجتمعهم الأصلى ، ويندمجون فى المجتمع الأمريكى ، ويصبحون أمريكيين دما ولحما .. وإن كان الباقى فى ذاكرتهم أنهم أبناء مصريين هاجروا ، ولا يعرفون عن مصر إلا بقايا ذكريات مما كان يحكيه لهم آباؤهم فى طفولتهم ..

هذه المشكلة لابد أن ننشغل بها .. لأن اللغة العربية هى الخيط الذى يمكن أن يربط بين عشرات الالاف من أبناء المصريين وبين وطنهم .. ولو انقطع هذا الخيط فسوف تنقطع الصلة بالوطن الأم .. وتفقد مصر رصيدا مهما لها فى داخل المجتمع الأمريكى ..

وهذه المشكلة سبق أن أثيرت .. وكانت هناك مشروعات بطبع كتب لتعليم اللغة العربية تتناسب مع أبناء المهاجرين الذين يتحدثون بالإنجليزية ..

ومشروعات أخرى لإنتاج شرائط كاسيت وفيديو لتعليم اللغة العربية .. ولكنها كلها لم تنفذ ..

وجاءت زيارة المفتى لكى تجعلنا نلمس بأنفسنا مدى أهمية هذا الموضوع ، وأعتقد أن واجب وزارات : التعليم والخارجية والأوقاف أن تبدأ فى تنفيذ مشروع لإيجاد جسور مع المهاجرين وأبنائهم فى أمريكا .. خسارة أن نفقدهم .. وخسارة أكبر أن نتركهم لغيرنا ليبنى عقولهم وفقا لمصالحة .. ولنا أن نتصور حجم الفائدة التى تعود على مصر إذا ظل المهاجرون وأبناؤهم على صلة بها .. كيف سيكون حجم الفائدة اقتصاديا .. وسياسيا .. بدلا من أن نشكو من نشاط اللوبى الصهيونى فى أمريكا الذى يمارس الضغط على سلطات اتخاذ القرار ويشارك فى توجيه السياسات لصالح إسرائيل .. لماذا لا نبدأ نحن أيضا بالعمل وفقا لقواعد اللعبة الأمريكية التى تعطى لكل جماعة الحق فى ممارسة الضغط ، وتكوين اللوبى الذى يدافع عن مصالحها ...

لابد أن نعترف بأننا قصرنا طويلا فى حق المصريين والمسلمين الذين يعيشون فى أمريكا .. وقد تصورنا أن عليهم هم أن يأتوا إلينا إذا أرادوا .. أما نحن فلن نذهب إليهم .. ولن نتغلغل فى تجمعاتهم .. ونتصل بهم فى المدن الصغرى والكبرى ليشعروا أننا نفكر فيهم ، وأننا لا نلجأ إليهم فقط حين نريد أن نطلب منهم .. ولكننا نعطيهم أيضا .. ونفتح قنوات الاتصال والحوار بيننا وبينهم .. وكما نذهب إليهم فسوف يأتون إلينا .. وبذلك تصبح مصر هى الوطن الثانى بحق لكل المصريين المهاجرين .. ولكل المسلمين فى أمريكا .. وهذه قضية مهمة .. بل شديدة الأهمية .. ولابد أن نفكر فيها بجدية ، ونبدأ فى العمل فيها ولو بسياسة الخطوة خطوة ..

وزيارة المفتى يمكن اعتبارها الخطوة الأولى على هذا الطريق ..

* * *

فى الكلية اللاهوتية فى مدينة بتسبرج كان رئيسها وأساتذتها وطلبة الدراسات العليا فى انتظار المفتى والدكتور حبيب .. وكان ترحيب رئيس الكلية الدكتور سام كاليان بالمفتى يفوق الوصف ، وقال : إن هذه هى الفرصة الأولى التى نلتقى فيها بأكبر قيادة دينية إسلامية فى مصر ، ولذلك نعتبرها فرصة لنتعرف على حقائق الإسلام .. وما يثار عن التطرف الإسلامى ..

وقال الدكتور سام كاليان أيضا : إن هذه مناسبة تاريخية حيث تستضيف الكلية اثنين من قادة الدين الإسلامى والدين المسيحى معا ، وقد جاءا فى طائرة واحدة .. وسيارة واحدة .. ولهما دور ملحوظ فى نشر التفاهم بين أصحاب الديانتين وفى مواجهة التوتر والعنف السياسى فى بلديهما .. ونحن نرحب بهما لإجراء حوار سلمى حول ما يجرى فى البوسنة وفى أنحاء أخرى من العالم ، ونحن نتطلع إلى حل مشاكل كثيرة تستخدم فيها العقائد الدينية لإشعال الحروب بين البشر .. نحن لا نستطيع أن نعيش شعوبا متفرقة ومنقسمة .. وإن تحقيق السلام بين الأديان ضرورى لكى يتحقق السلام بين الأمم .. وفى أمريكا أكثر من خمسة ملايين مسلم ، وهم ضعف عدد المسيحيين الإنجيليين فى أمريكا .. لقد أصبح الإسلام هو الدين الثانى فى فرنسا والثالث فى أمريكا من حيث عدد المؤمنين به ، وسوف يصبح الدين الثانى فى أمريكا فى عام ٢٠١٠ .. وبذلك لم نعد نستطيع تصور الإسلام على أنه الديانة التى تخص أبناء الشرق الأوسط أو أفريقيا أو آسيا ، ولكن الإسلام – مثل اليهودية ، والمسيحية – هو الآن ديانة أمريكية ..

وتحدث المفتى عن الإسلام فقال إنه دين السماحة ، لأنه يعطى لغير المسلم نفس الحقوق التى يعطيها للمسلم ، ويفرض عليه نفس الواجبات .. والقاعدة أن غير المسلمين فى مجتمعنا كما أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم : « لهم مالنا ، وعليهم ماعلينا » وقال : إن المسلم لا يكون مسلما إلا إذا آمن بالله ،

وكتبه ، ورسله جميعا دون تفرقة بين أحد من رسله .. ولذلك يقول الله تعالى في سورة البقرة : ﴿قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحق ، ويعقوب ، والأسباط ، وما أوتى موسى ، وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ، ونحن له مسلمون﴾ . والإسلام دين يرفض العنف .. ﴿لا إكراه فى الدين﴾ و﴿وجادلهم بالتى هى أحسن﴾ و﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾ .. وهو دين سلام : ﴿وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله﴾ .. وهو دين يحرم القتل تحريما مطلقا ويعتبر قتل إنسان واحد قتلا للبشرية كلها ﴿من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا﴾ ..

وقال القس الدكتور صموئيل حبيب إن الهيئة الإنجيلية استطاعت بناء علاقات سليمة مع المسلمين من ناحية ، ومع الطوائف المسيحية الأخرى من ناحية أخرى .. حيث جمعت ١٨٠ من رجال الدين الإسلامى والمسيحى الكاثوليك والأرثوذكس والإنجيليين لدراسة دور الكنيسة فى التفاعل مع المجتمع .. وبعدها جمعت ٦٥ من رجال الدين الإسلامى مع قادة الدين المسيحى لدراسة دور المسجد والكنيسة فى التعاون لخدمة المجتمع .. ونعد الآن لإجراء حوار بين الديانات لنصل إلى تفاهم مشترك يجعلنا أكثر قدرة على أن نعمل معا فى كل المجالات ..

وفى مدينة بتسبرج تكررت اللقاءات فى الكنائس والمراكز الإسلامية ودارت حوارات غاية فى الأهمية سأعود للحديث عنها .. وقد خرجنا منها بانطباع بأن هذه الزيارة حققت أكثر مما كنا نتوقع ، وإن كانت قد فتحت طريقا واسعا لعلاقات مفيدة داخل المجتمع الأمريكى إذا استطعنا أن نواصل السير عليه دون تردد أو تأخير ، فسوف تكون النتائج مفيدة لنا بأكثر مما نتصور ، لأن الأيدى التى تريد أن تلتقى بأيدينا هى الآن فى أمريكا كثيرة جدا .. أكثر مما نتصور ..

٢ وجها لوجه

عندما بدأنا الرحلة إلى أمريكا كنا نعرف أنها ليست رحلة سهلة ..

كان برنامج الرحلة يتضمن لقاءات يومية تبدأ فى التاسعة صباحا وتنتهى فى العاشرة مساء .. ويتضمن رحلات بالطائرات والسيارات لساعات طويلة .. ولا يراعى الإرهاق الذى يعانى منه المسافر من مصر إلى أمريكا فى أيامه الأولى نتيجة لفروق التوقيت .. حيث الساعة فى أمريكا متقدمة سبع ساعات عن مصر .. فالعاشرة مساء هناك هى الثالثة بعد الظهر فى مصر .. ولذلك يحتاج الإنسان إلى يومين أو ثلاثة إلى أن يتلاءم إيقاع جسمه مع التوقيت الجديد ..

كذلك كنا نعرف أننا سنواجه الحملة على الإسلام والمسلمين وجها لوجه .. وقد أصبحت وسائل الإعلام الأمريكية تربط بين الإسلام والإرهاب والتخلف والجهل والعداء للحريات .. وأصبحت صورة الإسلام فى عقول الأمريكيين مشوهة وتثير فيهم مشاعر الخوف والعداء .. وكنا نعرف أن أصواتا كثيرة سوف ترتفع فى مواجهتنا بالهجوم تحت ستار أن المجتمع الأمريكى مجتمع مفتوح .. يستطيع فيه كل إنسان أن يقول ما يشاء دون حدود أو قيود ..

وحين بدأنا الرحلة : فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى مفتى الجمهورية .. والقس الدكتور صموئيل حبيب رئيس الطائفة الإنجيلية فى مصر .. وأنا .. كنا قد اتفقنا على أن كلمة الحق التى نحملها سوف تجد طريقها إلى قلوب وعقول من سنتحدث إليهم .. لأن الحق له قوة فى ذاته .. ومهما نجح أعداؤه فى تشويهه او إخفائه لابد أن يظهر فى النهاية .. وينتصر .

وقلنا لأنفسنا إن هذه رحلة فى سبيل الله .. ويكفينا هذا لنتحمل المتاعب الجسمية والنفسية مهما تكن ..

ومع ذلك فقد لقينا فى أمريكا أكثر مما كنا نتصور ..

الكل متفقون على أن هناك حملات قوية لتشويه صورة الإسلام ..

والبعض يهمس فى أذنك أن اللوبى الصهيونى يضغط بكل قوة لكى يمنع وصول صوت الإسلام .. وصوت مصر إلى الرأى العام الأمريكى .. واللوبى الصهيونى فى أمريكا له قوة يعرفها الجميع وبخاصة فى ميدانين أساسيين : المال .. والإعلام ..

ثم هناك أيضا مجموعات من العرب والمصريين .. هاجروا إلى أمريكا فى ظروف صعبة .. تركوا بلادهم وهم شبه مطرودين منها .. أصحاب فكر منحرف .. عاطلون .. فاشلون جاءوا ليبدأوا طريقهم بغسل الأطباق والسيارات وهم يحملون شهادات عليا .. معارضون سياسيون .. متعصبون يملؤهم الحقد على بلادهم ويريدون أرضا غريبة تسمح لهم بممارسة التنفيس عن حقدهم .. أخلاط غريبة من الناس أوشكوا أن يفقدوا قدرتهم على التفكير السليم ، وتحولوا إلى طاقة حقد على بلادهم .. وهم كثيرون .. ومن كل البلاد العربية دون استثناء ..

على الجانب الآخر التقينا بمجموعات من الأمريكيين والعرب والمصريين يمثلون الجانب الآخر .. ناس محترمون .. عاقلون .. يحترمون العقل والمنطق ويبحثون عن المعرفة ، ويريدون بإخلاص أن يعرفوا الحقائق من مصادرها .. ولكنهم لم يلتقوا بهذه المصادر .. وهؤلاء هم الذين قضينا معهم أكثر وقتنا ، لأن الحوار معهم كان متعة عقلية .. وأقنعنا بأن سوء الفهم الذى نلحظه فى الرأى العام الأمريكى سببه أننا لم نبذل مجهودا كافيا لنخاطب هذا الرأى العام .. ونتصل به اتصالا مباشرا .. ونقدم إليه أدلة ونماذج حية لما نتحدث

عنه .. ولذلك كان رائعا أن يتحدث المفتى ورئيس الطائفة القبطية الإنجيلية معا فى كل مكان .. فى الكنائس .. والمساجد .. وكليات اللاهوت المسيحية .. والمراكز الإسلامية .. وأمام ممثلى الصحافة العالمية فى المؤتمرات الصحفية .. وكانت شخصية الاثنين مقنعة وموفقة فى عرض سماحة الإسلام ، وبراءته من الإرهاب ، والعلاقات القوية التى تربط المسيحيين والمسلمين فى مصر باعتبارهم جميعا أبناء وطن واحد ..

وكانت الرحلة مليئة بالأحداث والحوارات ..

* * *

فى المركز الإسلامى فى مدينة بتسبرج **بولاية بنسلفانيا** تجمع آلاف المسلمين لصلاة الجمعة .. جاءوا من بلاد بعيدة بعد أن عرفوا أن مفتى مصر هو الإمام فى هذه الصلاة .. وأقاموا مأدبة غداء كبيرة فى المركز .. ونظموا ندوة استمرت أكثر من ثلاث ساعات ..

قالوا إننا نحتاج إلى علماء الأزهر ولا نجدهم .. فكيف يمكننا الاحتفاظ بالرابطة مع الإسلام المعتدل دون أن يكون بيننا عدد كاف من الأئمة والوعاظ ..

وقالوا إن أطفالنا وتنشئتهم تنشئة إسلامية فى أمريكا مشكلة يجب أن تساعدونا فى حلها .. نحن لا نجد ما يساعدنا على تعليم اللغة العربية للأجيال التى تولد فى أمريكا ، ومن الممكن أن تذوب فى المجتمع الأمريكى وتفقد الجسور والصلة بوطنها الأصلى إذا لم تجد هذه الجسور منذ البداية .. لماذا لا ترسلون إلينا كتبا لتعليم الدين الإسلامى واللغة العربية ، وأفلام فيديو ، ونحن مستعدون لشرائها بالثمن ؟ ولماذا لا تتوافر لدينا مطبوعات عن مصر .. وما يحدث فيها من تقدم فى الميادين السياسية والاقتصادية ؟ وليست لدينا

معلومات نقدمها .. بل إن ما تقدمه الأجهزة المسئولة فى مصر أقل بكثير مما يجب .. وعلى سبيل المثال ، عندما نظمت جامعة بتسبرج معرضا دوليا كبيرا جاهد الطلبة المصريون الذين يدرسون فى الدراسات العليا بهذه الجامعة ، وعددهم كبير ، وأقاموا جناحا مصريا بجهودهم المحدودة .. وطلبوا من المكتب الثقافى المصرى أن يزودهم بمطبوعات عن مصر لتوزيعها على جمهور المعرض ، فأرسل المكتب إليهم ٨ كتب فقط لا غير ، على سبيل الإعارة ، وألزمهم بإعادتها .. وكان الجناح المصرى هو أفقر الأجنحة ..

وقالوا إننا نعيش فى حصار حملات الإعلام التى تظلم الإسلام وتشوه صورته .. والتليفزيون يقدم صورا غريبة عن مصر والمسلمين .. كان آخرها فيلما من إنتاج شبكة تليفزيون بى .بى .اس ، وهى الشبكة العامة التى تدعمها الحكومة وتبث إرسالها فى كل الولايات فى القناة ١٣ . الفيلم بعنوان : « الجهاد فى أمريكا .. الحرب المقدسة » ومدته ساعة كاملة .. وأعيد عرضه أكثر من مرة .. ويتضمن لقاءات مع بعض زعماء المسلمين فى أمريكا ، ولكن أحاديثهم أذيعت مبتورة .. وتم اختيار عبارات يظهر منها أنهم متطرفون ، ودعاة عنف ، وأن رسالتهم هى دعوة المسلمين لإعلان الحرب على غير المسلمين دون تفرقة .. وبغير سبب .. لمجرد أنهم ليسوا مسلمين .. وقال الفيلم : هذا هو مفهوم الجهاد .. قتل .. وتخريب .. وتدمير .. إما أن تطيع هؤلاء « المجاهدين » .. وإما أن تموت برصاصهم وقنابلهم ..

وكانت نتيجة هذا الفيلم أن عاش المسلمون فى أمريكا أياما صعبة .. بعد أن أساء إليهم وصورهم جميعا على أنهم إرهابيون .. لن يدخلوا الجنة إلا بقتل الآخرين المخالفين لهم فى الرأى أو العقيدة .. وأصبح المسلمون فى أمريكا فى موقف الاتهام .. ومازالوا يحاولون الدفاع عن النفس ..

وهذا نموذج واحد فقط .. وهناك مثله مئات ، بل آلاف ، تملأ نفوس المسلمين فى أمريكا بالمرارة ..

وقال محمد أخضر رئيس المجلس الإسلامى فى بتسبرج ، وهو مجلس يضم ممثلى ٦ مراكز إسلامية ، إن الأمة الإسلامية كانت دائما تجتمع على أصل واحد هو الحق .. فكانت أمة واحدة .. ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾ .. رغم اختلاف اللغات والثقافات .. والآن لماذا ضاعت الوحدة بين المسلمين ؟ ولماذا اختلطت المفاهيم ؟ وما هى علاقة المسلم بالمسلم ؟ وما هى علاقة المسلم بغير المسلم ؟ قل لنا يا فضيلة المفتى ..

وأجابهم المفتى : إن علاقة المسلم بالمسلم يجب أن تقوم على الأخوة وليس على العداء أو الكراهية ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ .. وتقوم على التعاون ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ وتقوم على نصرة المسلم لأخيه المسلم على الحق وليس على الباطل .. وتقوم العلاقة بين المسلم والمسلم على حسن الظن : ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا﴾ .. أما علاقة المسلم بغير المسلم فقد حددها القرآن تحديدا دقيقا ، إذا مد غير المسلم يده بالسلام والأمان والتعاون ، وجب على المسلم أن يرد عليه هذه المعاملة بمثلها أو بأحسن منها .. وكل من يعاملنا – نحن المسلمين – بالسلام والتعاون ولا يسىء إلى ديننا وإلى عقيدتنا ويتبادل معنا المنافع نمد له أيدينا بالسلام والتعاون . أما الذى يعتدى على حقوقنا أو كرامتنا أو أعراضنا فإن الإسلام يدعونا إلى أن ندافع عن أنفسنا دون أن نكون نحن المعتدين ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين﴾ .. ولذلك فإن مفهوم الجهاد فى الإسلام هو الدفاع وليس العدوان ..

وسألوا : كيف نصوم رمضان فى أمريكا والبلاد الإسلامية مختلفة فى تحديد بداية ونهاية الشهر الكريم ؟ وقال لهم المفتى : صوموا وأفطروا على رؤية الهلال فى أمريكا أو فى أى بلد إسلامى ..

وسألوا : عن الدور الذى يمكن أن يقوم به المسلمون فى أمريكا وهم

كثيرون .. فقد وصل عدد المسلمين إلى أكثر من ٦ ملايين .. وهم يزدادون عددا يوما بعد يوم .. وقال لهم المفتى : دوركم أن تكونوا سندا لإخوانكم المسلمين ، وأن تكونوا نماذج حية للإسلام فى سماحته ، واعتداله ، وإيمانه بالعقل والعلم والتقدم ..

وفى نيويورك كانت الأحاديث أكثر سخونة ..

* * *

فى قاعة مواجهة لمبنى الأمم المتحدة فى نيويورك .

سأل صحفى أمريكى : إن عمر عبدالرحمن ماثل الآن أمام المحكمة .. ولكن الحقيقة أن هذه محاكمة للإسلام على أنه دين عنف وإرهاب ! ..

وقال المفتى : من قال إن هذه محاكمة للإسلام .. وهل هناك شخص مهما تكن صفته يكون ممثلا للدين كله .. **أولا** : المتهم برىء إلى أن تثبت إدانته ، هذا مبدأ نحترمه فى مصر ، ولابد أنكم تحترمونه أيضا فى أمريكا — **وثانيا** : لو أن إنسانا ارتكب جريمة فإن العدل يقتضى أن تسند الجريمة إلى الشخص بذاته كإنسان فرد مسئول ، ولا تسند إلى وطنه أو إلى ديانته ، وألا يكون ذلك تعميما ، فالتعميم فيه ظلم شديد ، ولا أظن أن معنى العدالة يمكن أن يغيب عن العقول السليمة .. **وثالثا** : إن الإسلام دين سماحة ، واعتدال ، وسلام ، وهو برىء من كل ظلم أو عدوان أو إرهاب ، وبرىء من كل من يرتكب جريمة وينسبها إليه .. الأديان كلها أرسلها الله لسعادة البشر وليس لشقائهم .. للتعمير وليس للتخريب .. للإصلاح وليس للإفساد .. وللعدل وليس للظلم .. وللخير وليس للشر ..

وسأل صحفى آخر : ما رأيك فى الشيخ عمر عبدالرحمن ؟ ..

وأجاب المفتى بكل هدوء : أنا لا أعرف تفاصيل القضية والاتهام .. وهى

قضية ينظرها القضاء الأمريكى ، وقد جرت العادة عندنا فى مصر أننا لا نتعرض بالحديث عن قضية معروضة أمام القضاء لكيلا يكون فى ذلك تدخل فى شئون القضاء ، أو محاولة للتأثير عليه ، والقضاء محل احترامنا .. نحن نحترم القضاء المصرى .. وكذلك نحترم القضاء الأمريكى ، ونثق فى عدالته ..

وسأل صحفى : هل ترى أن إلغاء الانتخابات الجزائرية كان خطأ أو صوابا ؟ ..

وأجاب المفتى : أنا رجل دين ، ولست رجل سياسة ، الانتخابات الجزائرية يسأل عنها السياسيون ، أما أنا فعندما أتكلم باسم الدين فإننى أطالب بالحرية الإنسانية ، والكرامة الإنسانية ، والعدالة الاجتماعية ، وكل نظام يؤمن بالعدل ، والحرية ، ويحارب الرذائل ، فإننى معه من منطلق موقفى كرجل دين ..

وسأل صحفى : ما هو تعريف « الجهاد فى الإسلام » ؟ ..

وأجاب المفتى : الجهاد فى الإسلام مقصود به الدفاع عن النفس ، وعن المال ، وعن العرض ، وعن الوطن ، وعن الكرامة الإنسانية بصفة عامة ، وكل من يقول إن الجهاد هو القتل ، أو السرقة ، أو الظلم ، فهو منحرف عن المفهوم الإسلامى الصحيح ، الجهاد دفاع عن النفس الإنسانية ، ودفاع عن المظلوم ، ودفاع عن الحق إذا اغتصب ، وأعطيكم أمثلة : فى البوسنة ، المسلمون يدافعون عن أنفسهم ، وهم يتعرضون لأبشع صور التعذيب والطرد من بيوتهم ووطنهم .. ودفاعهم عن أنفسهم هو « جهاد » .. والإسلام ضد الظلم ، وضد الاستغلال ، سواء صدر عن الحاكم أو عن المحكوم .. وسواء صدر من دولة صغيرة أو من دولة كبيرة .. ونحن كرجال دين يحتم علينا ديننا أن نقف إلى جانب المظلوم حتى ينتصر الحق ، وأن نقف فى وجه الظلم حتى يندحر .. هذا هو فهمنا للأمور ..

وسأل **صحفى** : هل عمليات القتل التى تحدث فى مصر تعتبر جهادا ؟ وهل ما يفعله الفلسطينيون فى القدس جهاد ؟ ..

وأجاب المفتى : نحن فى مصر ندعو إلى الشريعة بالكلمة والموعظة الحسنة كما أمرنا ربنا ، وشهادة أمام الله أقول لك إن مصر لم تشهد حرية كما تشهد الآن ، ونحن مع هذه الحرية ، ونطالب بالمزيد من الحرية ، ولكننا ضد من يقتل .. ومن يسرق .. ومن يفسد في الأرض باسم الشريعة .. وشريعة الإسلام بريئة من العدوان . وكل سائح يأتى إلينا هو ضيف فى بلادنا .. تأمرنا شريعة الإسلام أن نوفر له الحماية ونرعاه إلى أن يعود إلى بلاده سالما .. نحن نطالب بالتغيير بالحوار وليس بالقتل .. وفى مصر مجلس الشعب فيه معارضة قوية .. ومجلس الشورى يمثل الحكمة والخبرة .. والصحافة حرة تعارض وتنتقد .. وحرية الرأى مكفولة .. أما حرية القتل فهى خروج على الإسلام .. وعلى كل الأديان .. أما الفلسطينيون فلهم شأن آخر .. كل من يدافع عن حقه أمام الظلم ، وكل من يدافع عن أرضه ، وماله ، وعرضه ، ويواجه العدوان الواقع عليه .. فله الحق فى أن يستعمل كل الوسائل المشروعة .. وليس هناك دين من الأديان يدعو أصحابه إلى السكوت عن الظلم إذا كانت أرضه وحقوقه مغتصبة .. وكل الأديان تدعو إلى نصرة المظلوم ضد الظالم ..

وسأل **صحفى** : وما موقفكم من فتوى الخمينى بقتل سلمان رشدى فى جريمة رأى ؟ ..

وأجاب المفتى : **أولا** : أنا كمفتى مصر .. أنا ضد الدعوة إلى قتل إنسان .. **وثانيا** : أنا قرأت ترجمة لرواية سلمان رشدى ولم أجد فيها رأيا ، ولكنى وجدت فيها مجموعة أكاذيب ينسبها إلى رسولنا وزوجاته وصحابته .. وهذه الوقائع التى ينسبها إليهم من أين جاء بها ؟ أنا أستاذ فى جامعة الأزهر عشرين عاما قبل أن أتولى الإفتاء .. وتعودت حين أناقش رسالة

أن أسأل الطالب : من أين أتيت بهذه المعلومات ؟ فإذا لم يستطع توثيق مصادر معلوماته اعتبرته كاذبا وغشاشا ..

ولذلك فأنا أطالب بتشكيل لجنة ثلاثية : من أحد علماء الدين اليهودى .. وأحد علماء الدين المسيحى .. وأحد علماء الدين الإسلامى .. وتتولى الدولة التى يقيم فيها سلمان رشدى تنظيم حوار معه ، وتسأله اللجنة : من أين أتيت بالمعلومات والوقائع التى تنسبها إلى الرسول ﷺ ؟ أنت تنسب إلى محمد ﷺ أنه كاذب .. وقاتل .. وخائن .. وقلت إن بعض الصحابة ارتكبوا جرائم .. ووصفت بعض زوجات الرسول بالخيانة .. قل : من أين أتيت بهذا الكلام ؟ من أى مصدر ؟ من أى مرجع ؟ من أى كتاب فى أى لغة ؟ ولابد أن تتولى هذه اللجنة إعلان الحقيقة : وهى أن سلمان رشدى كذاب .. وغشاش .. ودجال .. وهو رجل لا يبحث إلا عن المال .. ولذلك باع نفسه من أجل المال .. وأساء إلى الأديان كلها ، وجميع القوانين فى كل الدول تعاقب من يتهم غيره كذبا .. جريمة القذف موجودة فى كل القوانين .. بعد هذه المناقشة يكفينا ما يحكمون به ..

وسأل صحفى : ما هى حقيقة التوتر فى العلاقة بين المسلمين والمسيحيين فى مصر؟ ..

وأجاب المفتى : إن وجودى إلى جانب صديقى الدكتور صموئيل حبيب هو الإجابة عن هذا السؤال ، وإذا وجدت بعض الأحداث ، وأنا لا أنكرها فهى حوادث فردية ، موجودة فى كل دولة ، والكنائس والمساجد فى مصر لهما نفس التقدير باعتبارهما بيوتا يذكر فيها اسم الله ..

وقال الدكتور صموئيل حبيب : إن المسلمين والمسيحيين فى مصر يعيشون معا .. فى البيت الواحد تعيش الأسر المسلمة ملاصقة للأسر المسيحية .. ويشتركون فى التجارة والعمل .. بلا تفرقة من أى نوع .. وفى

رمضان يحتفل المسلمون والمسيحيون معا بهذه المناسبة الدينية الإسلامية التى أصبحت مناسبة قومية .. والهيئة الإنجيلية عقدت دورات حضرها أئمة المساجد المسلمون مع القسس المسئولين عن الكنائس ، وبحثوا معا وضع قواعد لخدمة المجتمع وتحقيق تنمية اقتصادية واجتماعية .. ومحاربة العادات الضارة بالصحة والعادات الاجتماعية الخاطئة .. وهكذا نحن نعيش معا ، ونعمل معا ..

* * *

وفى نيويورك أيضا عقدت ندوة مهمة .. دعا إليها المجلس القومى للكنائس ، وحضرها مجموعة مختارة من قادة مختلف الكنائس الأمريكية . وقال السكرتير العام لمجلس الكنائس القس جوان براون كامبل : إننا نعتبر هذا اللقاء لقاء تاريخيا .. لأن هذه هى المرة الأولى التى نستقبل فيها مسلمين ونستمع إليهم ، ونحن نريد أن نجرى حوارا بين المسيحية والإسلام لكى يتعرف بعضنا على بعض ، ونبحث عن نقط الالتقاء التى يمكن التعاون فيها لتحقيق مصلحة البشرية ..

وقال المفتى : إن قادة المسلمين والمسيحيين يجب أن يتعاونوا على تحقيق السلام .. والعدل .. والتعاون .. نحن نعرف أن النفس الإنسانية فيها الأنانية ، والظلم . والأديان هى التى تحمى البشرية من هذه الغرائز والرذائل .. ولذلك فإن احتياج الإنسان إلى الدين أكثر من احتياجه إلى الطعام . وإذا فهم الناس الدين فهما صحيحا ، وإذا طبق المؤمنون بالأديان تعاليم أديانهم تطبيقا دقيقا على أنفسهم .. فسيكون ذلك هو عصر العدل والسلام بين البشر ..

وقال : إن الأديان جميعا ، والإسلام على رأسها ، تعلم الإنسان ما يجب عليه نحو خالقه : أن يعبده بإخلاص . وواجبه نحو وطنه : أن يعمل على تعميره

وليس تخريبه .. وواجبه نحو غيره ممن على ديانته أو يخالفونه فى العقيدة : أن يحب لغيره ما يحب لنفسه ، وأن يكره لغيره ما يكره لنفسه . وواجب المؤمن نحو من يخالفه فى العقيدة أن يحسن الظن به ، وأن يعامله معاملة كريمة ، وأن يتعاون معه على ما فيه الفائدة والخير للناس وللوطن .. والأساس فى الإسلام أن العلاقات مع سائر البشر إنما تقوم على احترام حقوقهم الإنسانية ، وعلى تبادل المنافع معهم .. أما العقائد .. فلكل إنسان عقيدته .. والذى يتولى حساب الناس على عقائدهم هو الله وحده .. واختلاف الأديان ليس معناه اختلاف أو صراع أصحاب الديانات .. ولكن معناه أن يتعارفوا ، ويتعاونوا .. ﴿وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا﴾ . ونحن جميعا نؤمن بوجوب اعتناق الفضائل ، واجتناب الرذائل .. ونؤمن جميعا بالحق والعدل والأخوة الإنسانية مهما اختلفت دياناتنا .. وشريعة الإسلام شريعة العدل والتسامح والسلام .. وهى بريئة من كل من يرتكب جريمة وينسبها إلى الإسلام .. ولذلك فنحن نستنكر ما نراه من بعض وسائل الإعلام حين تنسب مرتكب جريمة إلى ديانته .. لأنه لا علاقة بين الجريمة والدين .. يجب أن تنسب الجريمة إلى شخص مرتكبها وحده .. ولا تنسب إلى دين من الأديان ، لأن الأديان لا تأمر بالتخريب ، أو القتل ، أو العدوان ، ولكن تأمر بأن يستمع كل إنسان إلى الآخر ، ويتبادل معه المنافع ، إن الكراهية التى يعلنها البعض ليست من الأديان .. وأنا أقول لكم بصراحة ، إن الخطأ فى الأحكام على دين من الأديان سببه أن كثيرا من الناس لا يأخذون المعلومات عن هذا الدين من مصادرها الصحيحة .. فلكى أعرف حقيقة المسيحية لابد أن أسأل رجال الدين المسيحيين ، وأقرأ كتبهم الأصلية المعتمدة .. ومن الخطأ أن أكون أفكارى عن المسيحية من أفعال بعض المسيحيين .. أو من بعض أفكار متطرفين من المسيحيين .. كذلك فإن معرفة الإسلام يجب أن تكون من مصادر

إسلامية صحيحة .. وما أكثر الذين يتسترون بالأديان وأفعالهم تتعارض مع حقيقتها ..

ونحن فى مصر – مسلمين ومسيحيين – نعيش معا على أرض واحدة ، ولنا مصالح واحدة ، ونعرف أن من الخير لنا أن نتعاون وألا نتفرق ، أما الأحداث التى تسمعون عنها فى مصر فهى أحداث فردية ، لا قيمة لها ، ولا تأثير ، وهى تحدث فى كل بلد ، أما الأغلبية من المسلمين والمسيحيين فى مصر على اختلاف مذاهبهم فهم أسرة واحدة وأبناء وطن واحد ..

وسأل أحد قادة الكنائس : هل يمكن إصلاح هؤلاء الضالين الذين يرتكبون الجرائم باسم الإسلام ، أو أنهم انفصلوا عن المجتمع وأصبحوا شاردين ؟ ..

وأجاب المفتى : إن كل إنسان مسئول وحده أمام الله وأمام القانون عن كل كلمة ينطق بها ، وكل فعل يقوم به ، والناس يختلفون فى مداركهم وفى تصرفاتهم ، وهذا أمر يحدث منذ بدء الخليقة ، والكتب السماوية تحدثنا عن الفترة التى شهدت بدء الخليقة وكانت فيها البشرية مكونة من أسرة صغيرة : أب ، وأم ، وولدين اثنين فقط ، فقتل أحدهما الآخر ، فليس غريبا إذن أن نجد من يتحدثون عن الإسلام بما يخالف حقيقة الإسلام ، ويفعلون أفعالا تحاربها الأديان جميعا .. لأن الإرهاب والتخريب والقتل والظلم حرام فى كل الأديان .. والتعصب مكروه فى كل الأديان .. وهذا لا يمنع من أن واجب كل دولة أن تحاسب من يرتكب جريمة باسم الدين أو بغيره .. ولكن يجب أن نراعى ألا تنسب جريمة يرتكبها شخص إلى شخص آخر .. وألا تنسب جريمة يرتكبها إنسان إلى دين معين ..

وواجبنا أن نبصر أطفالنا وشبابنا بهذه الحقائق ، وأن نكرر رجاءنا إلى

وسائل الإعلام بأن تنسب الجرائم إلى من يرتكبها كشخص وليس إلى دين من الأديان ..

وسأل أحد قادة الكنائس : نسمع عن خطبة الجمعة فى بعض المساجد فى مصر وما فيها من تحريض على الجريمة .. من يختار خطباء الجمعة ؟ وهل هناك رقابة عليهم أو أن منابر المساجد متروكة لمن يريد ؟ ..

وأجاب المفتى : الأزهر يقوم بدوره ، ووزارة الأوقاف تشرف على أكثر المساجد ، وهناك توجيه وإرشاد لكل من يتصدى للخطابة فى المساجد بأن يكون مهذبا فى ألفاظه ، ووظيفة رجال الدين - مسلمين ومسيحيين - أن يكونوا قادة لغيرهم ، وإذا استمر خطيب مسلم أو غير مسلم فى الإساءة إلى عقيدة غيره يجب أن يحاسب على خطئه ..

وأجاب الدكتور صموئيل حبيب عن هذا السؤال أيضا : فقال : إن هناك سوء فهم للإسلام والمسلمين ، إن حوادث القتل ينسبها الإعلام إلى الإسلام ، وعندما أفتى الخمينى بقتل سلمان رشدى تحدث الإعلام الغربى على أن هذا هو موقف الإسلام كله ، ولكن هناك قادة إسلاميين أفتوا بعدم قتل إنسان عقابا على ما يقوله ، ولكن الإعلام لم ينشر آراء هؤلاء القادة ، وركز على فتوى الخمينى وحده .. وعندما يقول جميع شيوخ المسلمين إن الإسلام برىء من القتل والإرهاب لا تنشر وسائل الإعلام هذا ، ولكنها تنشر أقوال المتطرفين الذين يقولون إن القتل هو أمر من الله فى الإسلام .. الإعلام عادة لا ينشر إلا ما هو غريب وشاذ وغير متوقع .. لكن الأمور العادية لا تنشر .. الأمور العادية عندنا أن الإسلام ليس دينا للقتل أو التخريب ، ويجب أن يكون لهذا المفهوم فرصة للنشر والإعلام .. هناك مفاهيم عظيمة فى الإسلام لا تجد طريقها إلى النشر .. ولابد أن ندفع علاقات التفاهم بين الإسلام والمسيحية ..

وقال القسيس خورى اللبنانى الأصل : الجميع يعرفون أن الإعلام الأمريكى ليس منصفا للإسلام والمسلمين ..

وكان هذا حسن الختام ..

* * *

وفى واشنطن العاصمة كانت المناقشات أكثر سخونة ..

فى حوار مع المفتى أجرته شبكة يو . بى . اى . الإذاعية ، وهى شبكة عامة ، سأل المذيع :

– هناك خوف عام من أن الإرهاب فى مصر ربما يؤدى إلى أن تصبح مصر جزائر أخرى ..

وقال المفتى : لقد قلت كثيرا خلال لقاءاتى هنا إن مصر تختلف عن الجزائر فى تكوينها الجغرافى والتاريخى والسياسى والاجتماعى والاقتصادى .. الجزائر لها ظروف .. مصر مختلفة .. الدولة فيها قديمة وقوية ومستقرة .. والتجانس بين المصريين قديم .. والإرهاب أقلية .. والشعب المصرى لا يتعاطف معه ولكن يرفضه .. الإرهابيون مجموعة صغيرة ليس لها قوة .. وليس لها مستقبل .. والأغلبية فى مصر ضد أعمال القتل والتخريب لأنها ضد طبيعة الإسلام ..

وسأل المذيع : ماذا يمكن أن يتعلم العالم الإسلامى من مصر ؟ ..

وأجاب المفتى : أرجو أن يتعلم العالم الإسلامى من مصر روح الأخوة الإنسانية التى تربط بين المسلمين والمسيحيين .. وأن يتعلم أن روح الأديان ترفض العدوان بكل صوره .. وأخيرا أن يتعلم أن اختلاف مواقف الناس لا يمنعهم من أن يتعاونوا من أجل مصلحة بلدهم .. وأن التعصب هو نوع من عمى البصيرة يصيب البعض ويهدد المجتمع ومستقبله ..

وأجاب الدكتور صموئيل حبيب : إن بعض ما ينقله الإعلام الأمريكى عن مصر غير صحيح .. نحن مع بداية قرن جديد نستعد لبناء بلدنا بناء جديدا ، ونعمل معا بالمحبة ، ولا نريد أن يكون اختلاف الأديان وسيلة للانقسام وهدم المجتمع .. ونحن نعرف من خلال حياتنا فى مصر مع المسلمين أن الإسلام ليس دين الإرهاب أو الكراهية للآخرين .. بل إنه على العكس من ذلك .. دين يدعو إلى السلام بين البشر .. ويدعو للتسامح مع المختلفين معه فى العقيدة ..

وسأل المذيع المفتى : ما هو موقفكم من قضية البوسنة ؟ ..

وأجاب المفتى : إن مفهوم المواطن المصرى أن هناك ظلما واضحا يقع على المسلمين ، وأن الصرب يعاملون المسلمين معاملة سيئة .. يعتدون عليهم بالقتل .. وبانتهاك أعراضهم .. وبطردهم من بيوتهم .. هذا سلوك لا يوافق عليه دين من الأديان .. ولا يمكن أن نقول إن هؤلاء يفعلون ذلك من منطلق ديانتهم المسيحية .. لأن هذه الأعمال لا توافق عليها أية ديانة ، ولا يقرها أى قانون ، ولا ترضاها الطبيعة الإنسانية السوية ..

وسأل المذيع : أنتم تقولون إن الإسلام دين السلام ..

وقال المفتى : نعم .. الإسلام دين السلام .. ونحن دائما نطالب بالسلام .. ولكن أى سلام ؟ هل السلام الذى يقوم على الظلم واغتصاب الحقوق يعتبر سلاما ، أو أن السلام هو الذى يحقق العدل ، ويحمى الكرامة الإنسانية ؟ نحن نطلب السلام العادل لأبناء البوسنة ، ولأبناء فلسطين ، وكل البشر ..

وقال الدكتور صموئيل حبيب : إن بعض المسلمين من البوسنة جاءوا إلى مصر والتقينا بهم فى مؤتمر بالاسكندرية ، ولمسنا أنهم يرون أن ما حدث للمسلمين فى الأندلس يتكرر فى البوسنة وفى شوشان ، حيث يتم استئصال الإسلام والمسلمين وتدمير وجودهم .. ونحن نفهم أن هناك مشكلة سياسية

قومية فى يوغسلافيا القديمة وروسيا القديمة ، ولكن يجب ألا يكون المسلمون هم الضحية ..

وسأل المذيع الدكتور صموئيل حبيب : هل أنت متفائل أن السلام سيتحقق فى الشرق الأوسط وأن الإرهاب سيزول ؟ ..

وأجاب : نعم .. أنا متفائل .. السلام سوف يأتى ويسود المنطقة .. ومفهوم السلام هو العدل لكى يدوم .. ورحلتنا هذه هى من أجل السلام ..

وكانت فى واشنطن مواقف أكثر إثارة ..

فى لقاء مع القناة العامة وهى شبكة تليفزيونية تغطى كل الولايات المتحدة .. سأل المذيع :

– ساد اعتقاد بعد انهيار الشيوعية أن الإسلام أصبح هو العدو للغرب .. ما رأى المفتى ؟ ..

وأجاب المفتى : أعتقد أن هذا زعم فاسد وباطل .. لأن الشيوعية كانت ضد كل دين سماوى ، أما الإسلام فهو دين يحترم الأديان السابقة عليه ، ويمد يده لسائر الأديان بالإخاء والسلام ، ومن المستحيل أن يكون هناك صراع بين العقائد السماوية ، والأقرب إلى المنطق أن يتقارب أصحاب الديانات المختلفة ويتعاونوا بعد انهيار الفلسفة الملحدة ..

والقول بأن الإسلام يمكن أن يكون عدوا لأمريكا ، أو للغرب ، شيء غريب ، لأن الأديان جاءت للتعاون بين البشر ، والمسلمون يأمرهم ربهم بأن يجنحوا للسلم لكل من يسالمهم .. وبالمحبة لسائر البشر .. فمن أين يأتى العداء ؟ ليس من الإسلام .. ولكن من الظلم الذى يرتكبه البشر ضد غيرهم ..

* * *

وفى مجلس الأساقفة الكاثوليك فى واشنطن التقينا بمجموعة من أساتذة اللاهوت اليهودى والمسيحى ، وشاركنا فى هذا اللقاء السيد حبيب أشرف عضو مجلس المديرين فى مجلس المسلمين الأمريكيين بواشنطن ، ومحمد إسلام شيما رئيس هذا المجلس ، والإمام كاشف عضو مجلس الأئمة فى منطقة متروبوليتان بواشنطن .

فى باكستان

الحوار إسلامى - إسلامى

كانت زيارة الإمام الأكبر لباكستان هى أول زيارة له للخارج منذ تولى منصبه .. لذلك كان الجميع يتابعون كل كلمة ينطق بها ، ويتناولونها بالتحليل .. وكانت هذه الزيارة موضع اهتمام عالمى ملحوظ انعكس فيما نقلته وكالات الأنباء والصحف الكبرى ..

وباكستان هى ثالثة دولة إسلامية من حيث حجم السكان بعد أندونيسيا وبنجلاديش ، ولذلك فإن وزنها كبير .. والخلافات المذهبية والطائفية والسياسية كثيرة تجعل كل تحرك وكل حديث موضع تفسير ..

وفى باكستان عاطفة دينية كبيرة .. وفيها من يفهم الإسلام على حقيقته وهم كثرة ، كما أن فيها من ينقصه الوعى الدينى والفهم الصحيح لتعاليم الإسلام ، وهم قلة ، ولكنهم متطرفون فى أفكارهم ، وتفسيراتهم جامدة ، وهم يثيرون معارك حول قضايا فرعية مما فرغ منه الفقهاء منذ قرون ، مثل : هل للفتاة البالغة الحق فى أن تزوج نفسها دون موافقة ولى أمرها أو أن هذا الزواج باطل شرعا ..؟ ومثل : هل التعليم من حق المرأة أو هو خروج على تعاليم شريعة الإسلام ..؟ وهل يجوز للمرأة الخروج للعمل أو أن هذا كفر وخروج عن الشريعة ؟ مع أن رئيسة وزراء باكستان سيدة ، وهناك سيدات كثيرات فى المجتمع الباكستانى لهن دور ملحوظ ولكن المتطرفين يريدون أن يشعلوا نار الفتنة بأى طريق .. بل وصل بهم الأمر إلى إثارة جدل . هو : هل

من حق المسيحيين أن تكون لهم معاملة على أساس المساواة فى دار الإسلام .. ؟

قضايا غريبة لم يكن يخطر على البال أن تكون هى الشغل الشاغل لهذه الجماعات التى ترفع راية الإسلام وتدعى أنها حامية حمى الشريعة والمدافعة عن حصون الدين ..

وباكستان هى حلقة الاتصال مع إيران وأفغانستان .. ولذلك تتصارع فيها السياسات والعقائد الدينية بين السنة والشيعة ، إلى حد تبادل القتل ، وسقوط ضحايا من الجانبين حتى أثناء الصلاة داخل المساجد .. !

لذلك فإن وجود الإمام الأكبر الذى يرأس الأزهر كان مهما .. لأن الأزهر – فى نظر الجميع – هو المؤسسة التى تحظى باحترام وقبول الجميع ، وهو صاحب الكلمة الصائبة فى أمور الإسلام .. وهو الديدبان الحارس للشريعة الإسلامية لحمايتها من كل انحراف ..

وموقف باكستان وشعبها من قضية فلسطين عامة ، والقدس خاصة ، موقف قوى جدا ، والرأى العام الباكستانى يتابع كل كلمة يقولها شيخ الأزهر عن فلسطين والقدس وتدوى كل كلمة يقولها فى كل أنحاء البلاد ..

وفى باكستان تشعر بلهب النار المشتعلة فى أفغانستان بين الفصائل الإسلامية المتقاتلة وكل منها يرفع راية الإسلام ويعلن أن هدفه تطبيق الشريعة .. والنتيجة سقوط مليون قتيل مسلم بأيدى المسلمين .. والقاتل والمقتول يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. القاتل يقتل وهو يظن أنه يجاهد فى سبيل الله وله الجنة .. والمقتول يضحى بدمه وهو يظن أنه شهيد له أعلى مقام عند الله لأنه ضحى بنفسه من أجل العقيدة ..

وفى الحقيقة فإن الجميع واقعون فى مصيدة وخديعة كبرى .. فلا هذا جهاد .. ولا هذا استشهاد .. ولا هذا دفاع عن الشريعة .. وكلهم ضحايا

أصحاب المصالح الذين يستغلون سذاجة وعدم وعى العوام .. ويقبضون هم الثمن .. ذهباً ودولارات بالملايين .. !

لأن هناك من يريد أن تبقى أفغانستان منقسمة وممزقة وساحة مفتوحة أمام كل القوى والمصالح والأطماع ..

ووجد شيخ الأزهر نفسه مدفوعا إلى أن يصدر بيانا يناشد فيه الأطراف المتصارعة فى أفغانستان إلى العودة إلى الرشد وحقن الدماء والتعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان .. ويذكرهم بأن المؤمنين إخوة .. وأن الرسول برئ من كل مسلم يرفع السلاح فى وجه أخيه .. ويذكرهم بأمر الله ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ﴾ .. ونقلت البيان وكالات الأنباء .. وتوافدت الوفود من أفغانستان إلى شيخ الأزهر ليستمعوا إليه ويبينوا له ما يدور فى بلادهم .. وكان ضروريا أن يقول لهم شيخ الإسلام إن الإسلام يقوم على الحوار والبعد عن الاقتتال وإراقة الدماء ، واحترام حقوق الإنسان وكرامته ، وخاصة النساء ، وكان ضروريا أن يحدثهم عن اهتمام الإسلام بالتعليم ليتقدم المسلمون .. والتعليم حق للرجل والمرأة على السواء دون تفرقة ..

* * *

فى اليوم الأول وصل فضيلة الشيخ إلى مطار كراتشى وكان فى استقباله حاكم إقليم السند وسفير مصر الدكتور محمد نعمان جلال ، اجتمع بعد ذلك مع مبعوثى الأزهر وتحدث إليهم طويلا عن واجبهم ورسالتهم وفى هذا اليوم زار الإمام الأكبر ضريح القائد الأعظم محمد على جناح مؤسس دولة باكستان ، وبعدها زار رابطة المؤتمر الإسلامى حيث لقى حشدا من العلماء والمفكرين وأساتذة الجامعات فى استقباله ، وعلى رأسهم السناتور رجا ظفر الحق رئيس الرابطة .

قال رئيس الرابطة فى كلمته : إن الأزهر هو أكبر مؤسسة إسلامية فى العالم ، وهو المنارة والمرجع لنا جميعا ، والحقيقة أن مصر هبة نهرين وليس نهرا واحدا .. مصر هبة النيل الذى يروى أرضها ويملؤها بالخير .. والنهر الآخر نهر روحى يفيض كل يوم – هو الأزهر الشريف – الذى لا يروى مصر وحدها ، ولكنه يروى العالم الإسلامى من أوله إلى آخره ويملؤه بالنور والعلم والإيمان .. وكما كانت مصر دائما مركز الإشعاع لتحرير الشعوب ومساندة الحريات وقيادة اليقظة العقلية .. فإن الأزهر ظل على امتداد تاريخه الحارس الأمين للإسلام الصحيح .. ولا يزال كذلك إلى اليوم .. والإسلام هو أكثر الأديان انتشارا فى هذه المرحلة بعد أن تكشف للعالم أنه الدين الذى يقدم إجابات مقنعة للأسئلة الصعبة التى يطرحها هذا العصر .. وأنه الدين الذى يلبى احتياجات التطور البشرى ولا يتعارض مع العقل أو العلم أو الحياة .. ولذلك يواجه الإسلام حركة عداء ممن يرون أنه يمثل خصما خطيرا عليهم ، وهذا هو السبب فيما وصفوه من وجود الاضطرابات والتوتر فى العالم الإسلامى بالذات أكثر من غيره .

وقال رئيس الرابطة أيضا : إن الأمم المتحدة أكملت ٥٠ عاما من عمرها ، ويتحدثون عن ضرورة إعادة تنظيمها ، بينما يبلغ عدد الدول الإسلامية ٥٦ دولة ، تضم ربع سكان العالم ، وليس لهم تمثيل فى مجلس الأمن ، ولابد أن تتكتل الدول الإسلامية لكى يكون لها مقعد دائم فى مجلس الأمن .. ونحتاج فى ذلك إلى مساندة الأزهر ..

نحتاج أيضا إلى الأزهر لنشر اللغة العربية ، وباكستان التى تتكلم باللغة الأردية ، والإنجليزية ، تهدف التوسع فى تعليم اللغة العربية وتحتاج فى ذلك إلى مساعدات كبيرة .. نحتاج إلى الأزهر أيضا لنشر التربية الإسلامية الصحيحة .. والرد على المتطرفين .. وفى تدريب الدعاة فى باكستان ..

كان رئيس رابطة العالم الإسلامى يتحدث بحماس شديد عن الأزهر ، وهو شخصية معروفة وله تاريخ طويل فى العمل العام ، وكان لفترة طويلة سفيرا لبلاده فى القاهرة .. وكان لكل كلمة يقولها عن الأزهر صدى فى الحشد الكبير الذى ملأ الساحة ..

وقام الجميع لأداء صلاة المغرب .. ووقفوا خلف شيخ الأزهر إماما .. وقالوا : هذا يوم مبارك سنظل نذكره .

وقال لهم فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر : إن التعاون بين المسلمين هو أساس قوتهم ، وإذا لم يتعاون المسلمون فإنهم يكونون قد خالفوا أمر الله الذى قال لهم فيه بكل وضوح : ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ . وقال لهم : إن الفضائل يغذى بعضها بعضا .. فالصدق والأمانة والإخلاص والإيثار كلها معا مثل الأوانى المستطرقة .. الفضيلة الواحدة منها تقود إلى الأخرى وهكذا .. والإيمان الصادق يدفع المؤمن إلى محبة المؤمنين .. فكيف إذن يحدث خلاف وقتال بين المؤمنين .. إذا كانوا مؤمنين .. وصادقين فى إيمانهم .. ؟ ولذلك فإن بناء الأمة الإسلامية يبدأ بإعداد الشخصية والأخلاق ، وبعد ذلك فكل الفضائل يسهل الوصول إليها .. التفاهم .. والتعاون .. والإخلاص فى العمل ..

وقال الإمام الأكبر للحشد الكبير : إن مصر الإسلامية التى اعتنقت الإسلام منذ ١٤ قرنا ودافعت عنه وعن نقائه ، واستقر الإسلام الصحيح فى ضمائر ووجدان أبنائها .. مصر قاعدة الإسلام وحصنه .. تمد يدها بالتعاون لكل المسلمين فى كل أنحاء العالم .. والأزهر الشريف ظل منذ أكثر من ألف عام وحتى اليوم فى خدمة الاعتدال والاستقامة فى مفهوم الإسلام .. والإسلام ينتشر لأنه دين السماحة وليس دين التعصب .. دين المحبة وليس دين الكراهية .. والمحبة فيه تسع كل البشر .. المسلمين وغير المسلمين .. والإسلام

يجعل لغير المسلم حقوقا تتساوى مع حقوق المسلم ، والرسول صريح فى أمره : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .. والإسلام يصل إلى قلوب الناس لأنه لا يعرف وسيلة للتعامل بين الناس إلا بالدعوة والموعظة الحسنة والجدل الهادئ القائم على المنطق وعلى أساس أنه لا إكراه فى الدين ..

وقال الإمام الأكبر أيضا : إن الإسلام يقوم على العلم ، ومادة « علم » تكررت فى القرآن أكثر من ٣٠٠ مرة .. ومبدأ المسلم فى الحياة ما قاله الله سبحانه وتعالى : ﴿وقل رب زدنى علما﴾ ولم يقل رب زدنى مالا .. أو زدنى قوة أو سلاحا .. لأن العلم هو التقدم الإنسانى والحضارة القائمة على أساس سليم .. ولا يفرق الإسلام فى الحق فى العلم بين رجل وامرأة ، ولذلك يقول تعالى : ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ والقرآن يسوى بين الرجال والنساء مساواة تامة فى عشر صفات دون تفرقة فى سورة الأحزاب .. فلماذا تظهر دعوات باسم الإسلام تنادى بحرمان المرأة من حق أعطاه الله لها .. ؟

وقال لهم الإمام الأكبر : إن الأزهر ينظم دورات لإعداد الدعاة من كل العالم الإسلامى ، يشترك فى كل دورة ٦٠ دارسا لمدة ٤ شهور ، وهو يرحب بأبناء باكستان ..

وعاد يكرر حديثه عن وحدة المسلمين مستشهدا بقول الله : ﴿إنما المؤمنون إخوة﴾ .. و ﴿إن هذه أمتكم أمة واحدة﴾ ..

فلماذا العداوة والاقتتال بين المسلمين مادامت كلمة الله لهم أن يتعاونوا ويتوحدوا ويتخلصوا من العداوة والأنانية .. ؟

واستمر الحوار طويلا .. مع صيحات : الله أكبر .. !

وفى المساء أقام حاكم إقليم السند حفل عشاء كبيرا ألقى حاكم السند كلمة قال فيها : إن أبصار أبناء باكستان تتجه دائما إلى الأزهر لتأخذ منه ،

وإلى فضيلة شيخ الأزهر لتستمع إلى كلمته باعتباره رمزا يحتل أعلى مكانة فى العالم الإسلامى ، وهو خط الدفاع الأول عن الإسلام ضد الإرهاب والتطرف ومحاولات تشويه الشريعة الإسلامية ..

ورد عليه فضيلة الإمام الأكبر بحديث طويل عن حقائق الإسلام الثابتة ، وهى أنه دين الأخوة بين المسلمين والأخوة بين البشر .. ودين العقل .. وحرية الإنسان .. والكرامة الإنسانية .. والعلم .. والتقدم .. وهو لا يرفض التطور بل يدفع أبناءه إلى مسايرة التطور والإسهام فى التقدم العلمى والحضارى الحديث لتكون لهم الصدارة فى عالم يتسابق على امتلاك عناصر القوة .. ولابد أن تكون فى أيدى المسلمين كل أسباب القوة المادية والروحية والأخلاقية ..

ودار الحوار حول مكانة المرأة فى الإسلام ..

وقال حاكم السند للإمام الأكبر وهو يودعه : ليتكم تبقون معنا ليستمع منكم كل واحد من أبناء باكستان ، ويتعلم الدين الصحيح .. إن العرض الذى قدمتموه للإسلام يجعل أى عقل فى أى مكان فى العالم يدرك أن هذا الدين هو طوق النجاة للبشرية لينقذها من الجهل والتخلف والحروب والفقر والظلم ..

وكان هناك عشرات ينتظرون الإمام الأكبر فى الفندق ليصافحوه .. ويسألوه .. ويلتقطوا معه صورا قالوا : إنها ستكون أغلى ما لديهم ..

* * *

فى اليوم الثانى : بدأ الإمام الأكبر يومه فى الصباح المبكر بلقاء تجمع فيه كل العلماء والمشايخ فى كراتشى ، وبدأه الشيخ احترام الحق التهانوى مستشار رئيس وزراء السند للشئون الدينية بكلمة طويلة قال فيها : « يا مرحبا بمن وصل .. على الرؤوس وفى المقل .. قلوبنا هى المحل .. وهى فسيح

المقعد .. » يا صاحب الفضيلة ، إن مجالات التعاون بين مصر وباكستان فى شتى المجالات عريقة ، وللأزهر الشريف دوره البارز ، فهو الذى خرّج رجالا ، وربى أجيالا ، كانت المعرفة رأس مالهم ، والحب أساس معاملتهم ، وذكر الله أنيسهم ، فالأزهر الشريف امتداد لمدرسة محمد ﷺ .. ولقد انطلق علماء الأزهر كالنور الذى يسرى ويبدد الظلام ، فى جميع دول العالم الإسلامى ، ينشرون العلم والمعرفة ، وما من بلد إسلامى إلا ويعرف للأزهر فضله .. وإننا نناشدكم باسم الإسلام والمسلمين أن تعيدوا للأزهر مجده ورسالته فى نشر العلم وتوحيد الأمة الإسلامية .

يا صاحب الفضيلة : إن أعداء الإسلام يوحدون صفوفهم ضد الإسلام ، والإسلام أولى بوحدة الصف .. اسمحوا لى يا سماحة الشيخ بأن أقول بكل صراحة هنا بأن العالم الإسلامى واجه الشقاق بسبب المؤامرات من الأعداء .. فقد زرعوا فى صفوفنا الخلاف ، ونحن نقدر جهود مصر والأزهر ، كما أننا نتمنى بأن توحد الأمة الإسلامية صفوفها ..

وكان الشيخ احترام الحق .. وهو شيخ جليل تجاوز السبعين .. يبكى بكاء حارا وهو يتحدث عن خلافات المسلمين ومؤامرات أعداء الإسلام على وحدة العالم الإسلامى ..

ووقف الإمام الأكبر ليتحدث إلى جمع العلماء والمشايخ ..

قال : إن المجالس تشرف بمقاصدها وغاياتها .. ومجالس العلماء هى أشرف المجالس .. وقد ميز الله آدم بالعلم .. وأمر الله المؤمنين بالعلم وكانت أول آية ﴿اقرأ﴾ .. والله تعالى جعل الخوف منه مقصورا على العلماء ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ .. والعلم ليس للعلماء وحدهم ولكن يجب عليهم أن ينشروه بين الجميع لا فرق بين غنى وفقير .. بين حاكم ومحكوم .. بين رجل وامرأة ،والرسول يأمرنا : « طلب العلم فريضة على كل

مسلم ومسلمة » .. وكان الرسول يعلم الرجال ويعلم النساء دون تفرقة ، والقرآن ساوى بين الرجال والنساء فى التكاليف الشرعية .. لا تفرقة بين الرجل والمرأة فى الصلاة أو الزكاة أو الصوم أو الحج ..

ولخص الإمام الأكبر خصائص شريعة الإسلام فى مبادئ رئيسية :

• ديانة الإسلام تقوم فى أساسها على التيسير وليس على التعقيد .. ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ .. ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ .. ﴿وما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾ وفى الحديث : « يسروا ولا تعسروا .. وبشروا .. ولا تنفروا » .

• وفى ديانة الإسلام المسلمون جميعا أمة واحدة .. تربطهم رابطة العقيدة ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾ .. ﴿وإن هذه أمتكم أمة واحدة ..﴾ وفى الحديث : « مثل المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

• وديانة الإسلام فتحت العقول على هذا الكون الواسع وأمرتنا أن نتفكر وأن نعيش عصرنا ونساير التطور ، وإذا اختلفنا فى أمر من الأمور الفرعية فى الدين فليس هناك إلا الحوار حول اختلافنا فى الفهم والاجتهاد فى إطار الاحترام لكل رأى .. وتفهم رأى الآخر ، ومناقشته بموضوعية ودون إسفاف أو اتهام ..

• وفى ديانة الإسلام لا خلاف بين المسلمين فى الأصول .. فكل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .. وكل مسلم يتفق مع الآخرين فى أركان الإسلام .. والخلاف بين المسلمين ينشأ فى الأمور الفرعية وليس فى الأصول ..

• وفى ديانة الإسلام كل من ينطق بالشهادتين ولا ينكر أمرا معلوما فى الدين بالضرورة فهو مسلم وليس من حق أحد من البشر أن يشكك أو يطعن

فى إسلامه .. له ما لنا من حقوق وعليه ما علينا من واجبات .. لا فرق بين من يأخذ بمذهب مالك أو أبى حنيفة أو الشافعى أو ابن حنبل .. ولا فرق بين سنى وشيعى .. فالخلافات بين هؤلاء هى خلافات فى أمور فرعية ، وكلهم يتفقون على الإيمان بالله وبالرسول وبالتكاليف الشرعية ..

● وفى ديانة الإسلام مادام الخلاف بين المسلمين فى قضايا فرعية فلا يصح أن يكون هذا الخلاف سببا لإثارة العداء بين المسلمين أو إشعال نار القتال فيما بينهم ..

● وفى ديانة الإسلام احترام للحوار كوسيلة وحيدة لحل الخلاف بين المسلمين .. ومادة قال ويقول وقل تكررت فى القرآن أكثر من ألف مرة ، وهذا يعنى أن القرآن يفتح أمام المسلمين باب الحوار ولا يغلق باب الفهم والتفاهم .. وفى القرآن ألوان عديدة من الحوار .. حوار بين المشركين والرسول .. وبين الصحابة والرسول .. وحوار بين المنكرين لليوم الآخر والرسول .. والحوار بين أهل الجنة وأهل النار .. وبين الأخيار والأشرار .. والحوار بين أهل الكتاب ..

لماذا كل هذا الاهتمام بتسجيل كل هذه الحوارات فى القرآن الكريم .. ؟

لكى نفتح عقولنا ، ولكى ندرك أن الخلاف فى الرأى لا يمكن أن يُحسم بالعنف أو التخويف أو القتل ، وما دام الإسلام يقف على أرض صلبة ويقوم على الحقيقة فإن كل خلاف لا ينال منه ، وكل عداوات الأعداء لن تهدمه ..

● وفى ديانة الإسلام لا يعيش المسلم لنفسه ولكن لابد أن يحمل هموم المسلمين ويقدم لهم ما يستطيع من عون مادى ومعنوى وفى الحديث : « من لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم » ..

وبعد ذلك استمر نقاش طويل .. والتف الشيوخ والعلماء حول الإمام

الأكبر كل واحد منهم يحاول أن يصافحه .. ويلتقط صورة معه ، ويسأله الدعاء ..

وكان اللقاء عاطفيا ومؤثرا ..

وأدركت قيمة الأزهر .. أدركت أنها أكبر بكثير مما نقدرها ..

* * *

وفى لقائه مع حاكم كراتشي ..

قال الحاكم : إن هذه الزيارة زيارة تاريخية سنظل نذكرها .. وكنا ننتظرها منذ وقت طويل جدا .. خاصة ونحن نعرف جيدا مكانة وعلم الدكتور محمد سيد طنطاوى وهو الآن من أكبر أئمة العصر وشيخ المجتهدين ..

وقال إننا – فى باكستان وفى كل العالم الإسلامى – نحتاج إلى التركيز على ما قاله الإمام الأكبر عن مبدأ السماحة فى الإسلام .. لأن لدينا مسلمين لا يتسامحون مع من يختلف معهم فى الرأى .. والتطرف الدينى يبلغ إلى حد انتهاك حرمة المساجد .. والطائفية هى أكبر مشكلة نواجهها .. لذلك نحتاج إلى تفهم الرسالة التى تنادون بها عن التسامح ونرجو أن تصل إلى الجميع .

وعلى مائدة غداء تجمع حولها عشرات من العلماء والمشايخ والشخصيات البارزة قال المضيف كمال الدين أظفر حاكم إقليم السند : إن الأزهر هو أكبر مرجعية إسلامية فى العالم ، وشيخ الأزهر هو قمة هذه المؤسسة التى ينظر إليها المسلمون بالاحترام ، ولذلك فإن العالم الإسلامى يتجه إلى الأزهر ، وإلى شيخه ، ليقوم بدور رئيسى فى حل المشاكل التى تهدد المسلمين فى هذا العصر ، وأولها العنف والإرهاب .. وقال الحاكم : إننا نشكرك يا فضيلة الإمام الأكبر على قرارك بزيادة المنح للطلبة الباكستانيين للدراسة فى الأزهر .. ولقد

زرت الاسكندرية وتركت فى نفسى أثرا طيبا ، ولا أنسى كرم الشعب المصرى ..

وقال شيخ الأزهر :

● إن المسلمين محتاجون فى هذه المرحلة بالذات إلى الوحدة ، وهم فى حاجة إلى الأمن والاستقرار ، وبدونهما لا يمكن للمسلمين أن يحققوا آمالهم فى التقدم والبناء .

● وإن الخلافات والانقسامات بين المسلمين لا تفيد المسلمين بأى حال ، وأى عاقل يدرك أن هذه الخلافات تفيد أعداء الإسلام وأعداء المسلمين . لأن الخلافات تؤدى إلى أن يفقد المسلمون قوتهم ، وبالتالى يتوقف البناء والتقدم ، ويظل العالم الإسلامى متخلفا ، وأمر الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ ..

● وإن الإسلام هو دين العدل حتى مع أعدائه ، ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

● وإذا كان العدل لزاما على المسلمين مع أعدائهم فكيف لا يكون الزاما عليهم مع بعضهم البعض ، وكيف لا تكون للمسلم حرمة يجب أن يلتزم بها كل مسلم كما فى الحديث : « كل المسلم على المسلم حرام : ماله .. وعرضه .. ودمه » .

● والإسلام توعد الذين يعتدون على أرواح الناس بأشد العقوبات : « من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا .. ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا » و .. « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جنهم خالدا فيها » وفى الحديث : « المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضا » فكيف يتفق ذلك مع العداء والعنف بين المسلمين ..

● وليس هناك طريق أمام المسلمين للخروج من التخلف .. وحل المشاكل

التى يعانون منها ، إلا توحيد صفوفهم ، وإزالة الكراهية والعداوة من صدورهم والكف عن النزاعات ، وأمر الله سبحانه للمؤمنين : ﴿ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾ .

● ولا قيمة لمصادر القوة مهما بلغت فى العالم الإسلامى من المال أو السلاح أو العدد إذا لم تتحقق الوحدة ، فاليد الواحدة مهما تكن قوية لا تصفق .. وحزمة الأعواد الضعيفة إذا تكتلت لا يسهل كسرها .. والأعواد القوية إذا تفرقت يسهل كسرها .. فالعقلاء من المسلمين يجب أن تكون رسالتهم هى الوحدة .. ودعوتهم إلى نبذ الخلافات والعنف .. والسعى إلى توحيد صفوف المسلمين ..

... ...

وبعد النداء والحوار كانت الطائرة فى الانتظار للإقلاع إلى العاصمة : إسلام أباد .

* * *

وفى إسلام أباد كان الاستقبال يفوق الوصف .. وزير الشئون الدينية .. وجمع من علماء وشيوخ باكستان الكبار .. وأعضاء السفارة المصرية بكامل عددهم ، ورئيس وراعى الجامعة الإسلامية .. أما السفير المصرى الدكتور محمد نعمان جلال فلم يترك الإمام الأكبر دقيقة واحدة منذ وصل إلى كراتشى إلى أن غادر باكستان .. ليلا ونهارا .. فى كل لقاء .. فى كل مكان .. والحقيقة أن هذا السفير كان يقدم دليلا على أن وظيفة السفير ليست وظيفة ولكنها رسالة وطنية يؤديها بحب ويتحمل فيها قضاء أيام وليالٍ دون أن يجد وقتا للنوم .. وكذلك كانت السيدة الفاضلة حرم السفير .. وكان بيت السفير هو بيتنا .. وكانت السفارة وطننا .. وكان العاملون فى السفارة فى خدمتنا

بمعنى الكلمة .. وللحق على كثرة ما سافرت وتعاملت مع سفراء ممتازين لم ألق سفيرا مثل نعمان جلال فى إخلاصه وتفانيه .. وكان هو « الدينامو » الذى جعل الزيارة تحقق نجاحا لم يسبق له مثيل ..

وفى **اليوم الثالث** بدأ شيخ الأزهر يومه باجتماع مع رئيس مجلس الشيوخ السيد وسيم سجاد ..

كان الاجتماع رسميا .. ومهيبا .. وروعيت فيه قواعد البروتوكول المقررة لاستقبال رؤساء الدول ..

وقال رئيس مجلس الشيوخ لشيخ الأزهر : إن المؤسسة التى تمثلونها يا سماحة الإمام هى مركز الاحترام والتقدير فى جميع أنحاء العالم الإسلامى ، وبخاصة فى باكستان ، كل باكستانى ينظر إلى الأزهر وإلى شخصكم بالاحترام ، وكثير من القضايا الشرعية نرجع فيها إلى الأزهر ونتطلع إلى مواقفكم التى تتسم بالشجاعة والتفتح والوضوح .. وهناك قضايا عديدة تتطلب التعاون بين الأزهر والمؤسسات الدينية فى باكستان ، هناك قضايا مثل تحديد مفهوم الربا المحرم شرعا ، وتشريعات الأحوال الشخصية تشغل رجال الشريعة عندنا وتحتاج إلى التعاون معكم .. ولقد سبق لى أن زرت مصر عام ١٩٨٧ عندما كنت وزيرا للعدل ، وزرتها مرة ثانية فى العام الماضى بدعوة من الدكتور مصطفى كمال حلمى رئيس مجلس الشورى وقد كونت صداقة مع وزير العدل المستشار فاروق سيف النصر ومع رئيس مجلس الشورى الدكتور مصطفى كمال حلمى ، ونحن نتطلع إلى زيارة الدكتور مصطفى كمال حلمى لباكستان قريبا ، وكنا نتوقع هذه الزيارة فى الشهر الحالى ، ونأمل أن يحضر إلينا قريبا ..

وإن زيارة فضيلتكم تمثل قوة العلاقات الودية التى تربط بين مصر

وباكستان ، وأرجو أن نبحث خلال هذه الزيارة وسائل زيادة التعاون بين البلدين .

وقال شيخ الأزهر لرئيس مجلس الشيوخ : إن هناك ارتباطا وثيقا بين الثقافتين المصرية والباكستانية .. ونحن نسعى إلى تأكيد وتعميق هذه الروابط .. ونحن فى الأزهر ندرس لأبنائنا أصول الشريعة الإسلامية .. أما المذاهب الفقهية فهناك اختلافات فيما بينها فى أمور فرعية ونحن ندرسها جميعا دون تفرقة .. نحن نعلم أبناءنا البعد عن التعصب .. والطلبة عندنا يدرسون فقه مالك والشافعى وأبى حنيفة وابن حنبل ويدرسون مذاهب الشيعة .. وكلها مذاهب إسلامية .. نعلم أبناءنا أن الأصول واحدة ولا خلاف عليها .. وأن الفروع يمكن الخلاف فيها دون خروج عن الشريعة .. فكل المذاهب تتمسك بالأصول فى القرآن والسنة ، فالاختلاف بعد ذلك يجب أن يكون فى إطار الفهم والتفاهم والسماحة .. لا نحل إلا ما أحله الله .. ولا نحرم إلا ما حرمه الله .. لا نضيق ما وسعه الله ، ولا نتوسع فى حد من حدود الله .

وسأل رئيس مجلس الشيوخ : لقد سمعت أنكم أصدرتم فتوى حول معاملات البنوك وقلتم إنها حلال ..

وأجاب الإمام الأكبر : ما قلته مسجل فى كتاب صدر منذ سنوات .. وقلت فيه إن الربا حرام بنص القرآن والحديث ، ولا يمكن أن يجرؤ مسلم على القول بأن الربا حلال .. الربا حرام هذا لا خلاف عليه بالقرآن والسنة .. ولكن ما هو الربا .. تحديد مفهوم الربا ضرورى للحكم على أنه حرام .. وقد قلت فى فتوى : إن كل معاملة من معاملات البنوك لها حكمها وفقا لطبيعتها وتجب دراسة كل معاملة على حدة والحكم عليها ..

وقال رئيس مجلس الشيوخ : ألا ترى فضيلتكم أن الغرب يسيء إلى الإسلام ويشوهه ؟ .

وأجاب الإمام الأكبر : نحن لا نقول إن كل ما فى الغرب رذائل أو كل ما فيه فضائل .. وكذلك المسلمون .. فيهم المعتدلون وفيهم المتعصبون .. فلماذا يحكم الغرب على الإسلام بأنه دين عنف وإرهاب بناء على سلوك قلة ، ولا يحكم على الإسلام بسلوك الأغلبية المعتدلة ..

التعميم هو الآفة التى نشكو منها .. فهناك بعض المسلمين يرتكبون جرائم تتنافى مع الإسلام ومع أى دين من الأديان السماوية من قتل وظلم ، وهذا ما جعل الغرب يتصور أن هذه القلة المنحرفة هى التى تمثل الإسلام والمسلمين .. وبينما الأغلبية من المسلمين تقدم نماذج من التسامح والاعتدال واحترام الآخرين .. ولكى تتحسن صورة الإسلام فى الغرب يجب أن نبدأ بأنفسنا ، وننشر فى بلادنا الفهم الصحيح للإسلام .. ليعرف المسلمون أولا حقيقة الإسلام .. ليعرفوا أن الإسلام يتعارض مع العنف والإرهاب .. لا يمكن أن يكون الإسلام هو الذى يأمر مجرما بأن يضع قنبلة فى سفارة أو فى طائرة .. هذا ضد الإسلام .. ونحن فى الأزهر نستقبل كل شهر أكثر من ٢٠٠ شخص يأتون إلينا من دول الغرب ليعلنوا إسلامهم .. ويدخلوا الإسلام عن اقتناع ودون إكراه وبعد دراسة للقرآن والحديث والفقه .. ويقولون إنهم وجدوا الإسلام دين اعتدال وضد التطرف إلى أى اتجاه .. فلا هو ينكر متع الحياة الحلال . ولا هو يدعو إلى كراهية غير المسلمين .. بل العكس هو الصحيح .. إنه يدعو إلى احترام أصحاب الديانات الأخرى والتعايش معها سلميا ودون عنف .. لو حكم الغرب على الإسلام بسلوك القلة المنحرفة من أبنائه فهو المخطئ .. والواجب أن يكون منصفا ويحكم على الإسلام بسلوك الأغلبية ، وهم المعتدلون .. ونحن نعترف بأن الانحراف موجود فى البشر .. فى الشرق وفى الغرب .. بين المسلمين وغير المسلمين .. ويجب أن ننسب

الجريمة إلى المجرم ولا ننسبها إلى الديانة التى ينتسب إليها إلا إذا كانت أحكام هذه الديانة تنص على القتل والكراهية والتعصب .. وهذا مستحيل بالنسبة للإسلام ..

وقال رئيس مجلس الشيوخ : إن هذه الآراء يجب أن تكون منشورة باللغات التى يقرؤها الغرب .. لابد من ترجمة الكتب والأبحاث الإسلامية المستنيرة التى يقدمها الأزهر لكى يقرؤها الغرب بلغته ..

واستمر الحوار حول كيفية تقديم الإسلام على حقيقته للعالم الغربى لمواجهة الحملة على الإسلام التى تستغل جرائم يرتكبها بعض المسلمين المنحرفين هنا وهناك ..

* * *

وخرج شيخ الأزهر إلى لقاء مع قسم اللغة العربية بجامعة القائد الأعظم .

وقال رئيس القسم : إن الفضل فى تدريس اللغة العربية فى هذا القسم يرجع إلى الأزهر ففيه ١٤ أستاذا من مبعوثى الأزهر ، وفى هذا القسم فصول للتعليم باللغة العربية فى المرحلة الابتدائية لكى يتعلم الأطفال هذه اللغة من الصغر ، وفيه أيضا دبلوم الدراسات العليا والترجمة الفورية وماجستير ودكتوراه فى اللغة العربية .. والأساتذة مصريون يؤدون واجبهم بشكل يدعو إلى التقدير .. وفى كل سنة يلتحق بهذا القسم ٥٠٠ من ضباط القوات المسلحة والشرطة وموظفى الحكومة ليدرسوا اللغة العربية لمدة ٦ شهور .. وفى القسم الآن ٤٠٠ طالب وطالبة .. والأزهر يدفع رواتب المبعوثين منه وتدفع لهم حكومة باكستان بدل سكن قليلا جدا ، وفى باكستان ٥٤ مبعوثا من الأزهر يتحمل الأزهر رواتبهم وانتقالاتهم . وقد ساهموا فى تعليم اللغة

العربية والدين على نطاق واسع ، ولهم وجود وانتشار تظهر آثاره فى المجتمع الباكستانى ، وخرج شيخ الأزهر إلى لقاء مع رئيسة الوزراء بينظير بوتو ..

* * *

فى مبنى جميل من دور واحد يقع فى قلب حديقة واسعة جدا يقع مبنى رئيس الوزراء ، وكان الاستقبال الرسمى رفيع المستوى على الباب ، وكانت رئيسة الوزراء فى الانتظار ..

كانت هادئة رغم أنها تعيش هذه الأيام وسط عواصف سياسية تكاد تقتلع حكومتها والسحب تتجمع حولها بقوة .. وهى ثابتة .. تتحرك هنا وهناك وتواجه الخصوم وتكسب الأصدقاء .

وأمام شيخ الأزهر كانت رئيسة الوزراء فى غاية الهدوء ..

بدأ شيخ الأزهر بتقديم العزاء لمصرع شقيقها ..

وبدأت رئيسة الوزراء فى حديث طويل يبدو أنها كانت قد أعدت عناصره بعناية ..

قالت : إن الأزهر الشريف يتمتع بمكانة كبيرة فى العالم الإسلامى .. كما يتمتع شيخ الأزهر بمكانة كبيرة بين المسلمين .. وكان والدى يريد أن يرسلنى إلى الأزهر لأتعلم الدين الإسلامى من المنبع الصحيح ولكنى لم أكن أعرف اللغة العربية فلم أستطع أن أحقق له هذه الأمنية .

وقالت لشيخ الأزهر بعد ذلك : إن آراءكم فى الموضوعات الاقتصادية والاجتماعية تعبر عن نضج الأمة الإسلامية ، وبهذه الآراء أنت داعية لكل العالم الإسلامى فى هذا العصر .. ونحن نعتقد أن هناك محاولة لتشويه صورة الإسلام ، وتقسيم العالم الإسلامى ، وكذلك تقسيم المسلمين داخل كل دولة .. ومن هنا ظهرت مجموعات بعضها ينتمى إلى العالم الإسلامى ،

وبعضها من خارجه ، وأصبح علينا أن نعمل معا ، وأن نكون يدا واحدة ضد الذين يشوهون صورة الإسلام .. ونحن نعتقد أن الأزهر .. وأن فضيلة شيخ الأزهر بالذات .. هو المسئول عن الدفاع عن الإسلام ..

وقالت : فى العام القادم سنحتفل بمرور ٥٠ عاما على إنشاء دولة باكستان .. إن مصر يا فضيلة الإمام الأكبر دولة قديمة وباكستان دولة حديثة .. وفى الخمسينات لعبت باكستان دورا رئيسيا فى تحرير الجزائر وماليزيا وأندونيسيا وغيرها من البلاد الإسلامية .. وعندما كان والدى رئيسا للوزراء استضاف المؤتمر الإسلامى فى لاهور .. وعندما سافرت إلى الولايات المتحدة وفرنسا أشرت فيهما إلى أن العالم الإسلامى غاضب من الموقف الغربى من قضايا العرب والمسلمين ..

ولقد ساعدنا الشعب الأفغانى عندما كان تحت الاحتلال ، وموضوع شعب كشمير معروف تماما للعالم ..

وفى العام القادم ونحن نحتفل بالعيد الذهبى لدولة باكستان فإننا نتطلع إلى مشاركة العالم الإسلامى فى مؤتمر كبير يرسم إطار العمل المستقبلى لنا جميعا .. ونحن نتطلع إلى مساعدة شيخ الأزهر فى تأييد جهود مجلس الفكر الإسلامى والجامعة الإسلامية فى باكستان ..

وقالت : إننى اقترح تشكيل لجنة عمل مصغرة من الأزهر لتراجع مناهج وكتب الجامعة الإسلامية وتجعلها على غرار مناهج الأزهر ..

وقالت : إننى أشكر فضيلة الإمام الأكبر لتقديم المنح العديدة لباكستان للدراسة فى الأزهر . وقد طلبت من وزير الشئون الدينية أن يطلب استقدام أساتذة من الأزهر لتدريب الأساتذة الباكستانيين ..

وقالت : إننى أنتهز هذه الفرصة لأعبر عن تقديرى الكبير للرئيس حسنى مبارك .. فقد لعبت مصر دورا بارزا بقيادته .. ونحن نشعر بالفخر للدور

الذى تقوم به مصر دون تردد .. وقد كان لدعوة الرئيس مبارك لعقد قمة عربية صدى كبير فى العالم الإسلامى وهى دعوة تدل على الشجاعة وروح المبادرة والحرص على الوحدة العربية .. ونحن نتطلع إلى زيارة الرئيس مبارك لباكستان .. وأن حكومتى ترحب بجهود مصر ومبادرتها وتأكيدها على أن الإسلام هو تحرير الفرد والعالم من التخلف والتبعية .. ويجب أن نعمل معا لمواجهة الإرهاب والتخريب .

وقالت : إننى أتذكر جيدا زيارتى لمصر للمشاركة فى مؤتمر السكان .. وإننى أشيد بدور الأزهر .. إننى أشعر أن واجبى ليس العمل لتطوير باكستان فقط ، بل العمل من أجل الإسلام . وأعتقد أن الأمة الإسلامية نجحت عندما كانت تركز على العلوم والتكنولوجيا ، وإننى أتطلع إلى أن تدعو باكستان إلى مؤتمر لبحث هذه الأفكار ، وأرجو أن يقبل فضيلة الإمام الأكبر أن يكون رئيسا أو ضيف شرف لهذا المؤتمر .. وأرجو أن يقترح فضيلته أسماء من يشتركون فيه من العالم الإسلامى وأفريقيا والعالم العربى ..

وقالت : إننى أريد الحديث قليلا عن كشمير وأفغانستان .. فى الإعلام أن باكستان تؤيد مجموعة طالبان فى أفغانستان .. وهؤلاء كانوا طلبة يدرسون فى مدارس أقيمت فى أفغانستان أيام الصراع مع الاحتلال السوفيتى .. وقد أقام هذه المدارس الأمريكان والحكومة الأفغانية السابقة ودولة عربية أخرى .. وبما أنهم أفغان طلبوا الرحيل إلى بلادهم ولا نستطيع أن نمنعهم ..

طالبان لم يواجهوا معركة حقيقية فى أفغانستان .. ومن جانبى أرسلت فريقا خاصا رفيع المستوى إلى أفغانستان ليعمل على التوصل إلى وقف إطلاق النار ، وأعتقد أنه من الضرورى أن يتفق طالبان مع دوستم وأن يضموا عناصر من التأميل ، وقد أوكلت إلى هذا الوفد إقناع طالبان بتوسيع قاعدة السلطة

وألا ينفردوا بالحكم وحدهم . وإذا وافق طالبان على ذلك فستكون منطقة شمال أفغانستان آمنة . وقد طلبت إلى وزير الخارجية أن يغادر إلى نيويورك ليتابع الموقف .. ويؤكد على ضرورة وقف إطلاق النار وإيجاد قوة لحفظ السلام .. كما أننا أبلغنا طالبان استياءنا الشديد لقيامهم بإغلاق مدارس البنات ومنع المرأة من العمل ، وقالوا إن النساء عادة هن ضحايا الحروب ، ولذلك أرادوا أن تبقى النساء فى البيوت حماية لهن إلى أن تنتهى المعارك ، وقالوا لنا إنهم فتحوا مدرسة لتدريب الممرضات ، وأعادوا فتح مدرسة للبنات حتى الصف السابع ..

وختمت حديثها بقولها : إننى أرحب بك يا فضيلة الإمام الأكبر وأرجو أن تنقل إلى الرئيس مبارك تحية خاصة من أخته وتقديرنا لمواجهته لقضية الإرهاب .. ولقد واجهت الإرهاب وجعلنى ذلك أواجه العديد من الأعداء .. ولكننى أعتقد أن القيادة السياسية هى النضال من أجل الحق .. وبصرف النظر عن وجود عداوات ومواجهات ضدى فإننى مصرة إصرارا تاما على تنظيف باكستان من أى عناصر إرهابية .

* * *

كان اللقاء حارا ، وأرادت رئيسة الوزراء أن تطرح فيه قضايا كثيرة وأن تلقى بالمسئولية على الأزهر الشريف وشيخه .. وكان حاضرا وزير الشئون الدينية ، ووكيل وزارة الخارجية لأن وزير الخارجية فى نيويورك ، وعدد من معاونى رئيسة الوزراء ، وكان السفير محمد نعمان جلال هو الذى يتولى الترجمة بنفسه ..

وقال الإمام الأكبر للسيدة بنازير بوتو إن باكستان قريبة منا ونحن نعرف ونقدر ما تقدمه حكومة باكستان ونشكرها عليه ، وهدفنا أن يفيق الضالون

فى العالم الإسلامى ليدركوا أن الإسلام رباط بين المسلمين .. أنه عقيدة توحد ولا تفرق .. تبنى ولا تهدم .. تعمر ولا تخرب .. ولا يقبل من المسلمين أن يتقاتلوا فيما بينهم أو أن يقتل بعضهم بعضا لأى سبب من الأسباب .. إن رسالة الأزهر أن ينشر الإسلام الصحيح ويكشف الأفكار المنحرفة التى يدسها البعض فى الإسلام .. إن الإسلام دين يدعو إلى الإصلاح وليس إلى الافساد .. يدعو إلى التيسير وليس إلى التعقيد .. يدعو للبناء وليس للهدم .. للإصلاح وليس للإفساد .. يدعو أهله إلىالعلم وليس إلى الجهل .. والأمم فى عصرنا لا تُقدر قيمتها بعدد أفرادها ، وإنما بما لديها من علم وحضارة ، والعلم فى شريعة الإسلام ليس مقصورا على الرجال ولكنه فريضة واجبة على كل الرجال وعلى كل النساء .. والقرآن الكريم جمع فى آية واحدة فى سورة الأحزاب عشر صفات يتساوى فيها الرجال والنساء ﴿ إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين الله كثيرا والذاكرات أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ . (سورة الأحزاب : الآية ٣٥) . وفى ذلك إشارة إلى أن مكانة المرأة فى الإسلام وأمام الله لا تقل عن مكانة الرجل .

وقاطعت بينظير بوتو الدكتور طنطاوى وقالت له : أعد هذه الآية من فضلك .. سوف ألتقى الآن بعدد من القيادات السياسية والاجتماعية وأريد أن أقولها لهم .. وأعادها الإمام الأكبر .

وعاد شيخ الأزهر يواصل حديثه : نحن نتفق معك فى أن تصرفات بعض المسلمين الذين لا يفهمون الإسلام فهما صحيحا هى التى جعلت صورة الإسلام مشوهة فى الغرب .. ولكنى أرى أن الغرب مخطئ .. عليهم أن يعرفوا الإسلام من أصحاب العقول السليمة وليس من السفهاء .. ومن مصادره الصحيحة وليس من أفكار المنحرفين .. ومن جانبنا يجب أن نقدم

القدوة الإسلامية للغرب .. ولو فهم الغرب الإسلام على حقيقته لوجد أنه دين يدعو إلى احترام الإنسان واحترام العقل وإقامة المجتمع على أسس صحيح من العدل والحرية .. وكل مسلم يجب أن يقف مع الحق حتى ينتصر ويقف ضد الظلم حتى ينكسر .. وكل مسلم لابد أن يضع أمامه قول الله تعالى : ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعد له عذابا عظيما﴾ .. وقول الرسول : « المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .. والقاعدة فى الإسلام أن سباب المسلم فسوق وقتاله كفر .. لذلك حرصت على أن أوجه نداء من باكستان إلى المسلمين فى أفغانستان أناشدهم فيه أن يلقوا السلاح ، وأن يعيشوا جميعا إخوة تجمعهم كلمة الله ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾ وأن يلتزموا بأمر الرسول الذى نهى أن يشير أى مسلم على أخيه المسلم بالسلاح مجرد إشارة .. والأزهر يناشد أبناء أفغانستان أن يحقنوا دماءهم .. فكلهم مسلمون .. ويجب ألا يلجأوا إلى أى وسيلة بينهم الا الحوار والكلمة الطيبة ..

والأزهر يتعاون مع باكستان فى مجالات كثيرة .. ففى باكستان ٥٥ مبعوثا من الأزهر يقومون بالتدريس فى المدارس والجامعات .. كما أنشأ الأزهر معهدا ابتدائيا يدرس باللغة العربية بالمنهج المتبع فى معاهدة ، ويقدم الأزهر لأبناء باكستان عددا من المنح للدراسة والإقامة ، فى مختلف المراحل حتى مرحلة الماجستير والدكتوراه ، وسوف نعمل على زيادة هذه المنح بإذن الله بناء على طلبكم ..

ونحن نعيش بقلوبنا مع المسلمين فى كشمير وندعو الله أن تنتهى هذه المشكلة سلميا حقنا لدماء المسلمين ..

وفى هذا اليوم أقام سفير مصر فى باكستان الدكتور محمد نعمان جلال حفل غداء على شرف فضيلة الإمام الأكبر دعا إليه أكثر من مائة وخمسين

من الوزراء الحاليين والسابقين ، وكبار المسئولين السياسيين ، والشخصيات الدينية من مختلف المذاهب ، ورجال الفكر والصحافة والإعلام ، وفى هذا الحفل الكبير تحدث الإمام الأكبر عن أدب الحوار فى الإسلام والوفاق بين الطوائف والمذاهب الإسلامية ، وتتابع المتحدثون : وزير الأوقاف .. وممثلو الطوائف .. ورؤساء الجامعات .. وأهدوا إلى الإمام الأكبر عمامة باكستانية طلبوا منه ارتداءها رمزا لقبوله أن يكون إماما أكبر لهم ..

* * *

ثم انتقل الإمام الأكبر إلى مبنى الجمعية الوطنية (مجلس النواب) ، وكان فى استقباله رئيسها السيد رضا جيلانى .

وفى الجمعية الوطنية كان هناك حشد كبير من الأعضاء والقيادات السياسية ، وقال رئيس الجمعية : يا فضيلة الإمام الأكبر .. نحن نحترمك ونحترم الأزهر ، ونتطلع إليكما فى كل لحظة .. ونحن حريصون على متابعة كل ما يصدر منكم من آراء ، ونقدر جهادكم من أجل خدمة الإسلام .. ومنذ كنا صغارا ونحن نسمع عن الأزهر أحاديث يملؤها التقدير والإجلال .. وكنا نرى سعادة من يجد فرصة من أبناء باكستان للسفر إلى مصر ليتعلم فى الأزهر الإسلام الصحيح .. ونحن دائما نتعلم من الأزهر ، ونستفيد منه ، ونتعلم من مواقفه المعتدلة المستنيرة ، ونشكركم من أعماق قلوبنا على المنح التى وفرتموها لأبنائنا ليتعلموا فى الأزهر ، ونحن نتطلع إليكم لتتولوا القيادة لتوحيد العالم الإسلامى .. ودائما نتطلع إلى الأزهر ليقوم بهذا الدور وسيتحقق ذلك بفضل ما لديكم من قدرة على العمل وما تلاقونه من قبول واحترام من جميع المسلمين .

وقال أيضا : إن المؤسسات الإسلامية فى باكستان مثل مجلس الفكر الإسلامى ، والجامعة الإسلامية ، والمحكمة الشرعية ، وغيرها مدينة للأزهر

بالكثير .. وما يشغلنا الآن أن هناك فئات وطوائف تشوه الإسلام مع الأسف ، وتهدم بعض ما يبنيه الأزهر ، وعلينا أن نواجه هذه الفئات ونحفظ الإسلام من التشويه والاعتداء .. ونحن ندعو إلى إنشاء اتحاد برلمانى للدول الإسلامية على غرار الاتحاد البرلمانى الدولى ليكون عاملا من عوامل التجميع والتقريب بين المسلمين .

وأفاض الإمام الأكبر فى شرح حقائق الإسلام الذى يقوم على الحرية ، والعدل ، والإخاء الإنسانى ، ورفض العنف ، وشرح ما يقوم به الأزهر لخدمة العالم الإسلامى ..

وفى المساء أقام وزير الشئون الدينية الباكستانى حفل عشاء كبيرا واستمر الحوار - بعد الكلمات - إلى ساعة متأخرة .

وبعد ذلك التقى مع جمع من أبناء الأزهر والجالية المصرية ..

كان اليوم طويلا .. مزدحما .. ولكن لم نشعر بالتعب .. كانت المشاعر حولنا تجدد النشاط وتملؤنا حماسا ..

ولم يكن شيخ الأزهر يرفض طلبا لأحد .. يجيب عن كل سؤال .. ويقبل كل دعوة .. ويشارك فى كل حوار .. والآذان حوله صاغية دائما ..

* * *

فى اليوم الرابع استقبل الإمام الأكبر وزير الداخلية الباكستانى ، كما استقبل المسئول عن شئون المساجد فى إسلام أباد ، ثم زار المعهد النموذجى الأزهرى الذى انشأه الأزهر للتدريس باللغة العربية وبمدرسين من الأزهر .. طاف بالفصول .. اختبر التلاميذ فى حفظ القرآن وفهم معانيه ، شاهد حصص الحساب والجغرافيا باللغة العربية .. ثم اجتمع بهيئة التدريس وبحث معهم تطوير المعهد وتوسيع مجال خدماته ..

● بعد ذلك زار الإمام الأكبر الجامعة الإسلامية .. كان فى استقباله وزير

التعليم وراعى الجامعة السيد ملك معراج خالد وهو من الشخصيات البارزة وسبق له أن تولى مناصب وزارية عدة مرات ، كما كان رئيسا للجمعية الوطنية مرتين .. ومدير الجامعة الدكتور حسين حامد حسان ونائبه الدكتور أحمد العسال ، وعشرات الأساتذة ومئات من الطلبة والشخصيات العامة ..

قال راعى الجامعة : هذا شرف كبير أن يزورنا الإمام الأكبر وهو أبرز الشخصيات الإسلامية وله سمعة عالمية فى مجال خدمة الإسلام والتعليم الإسلامى فى العالم الإسلامى كله ، وإننى أعتبر هذه اللحظة التى أرحب فيها بهذا الضيف الجليل أسعد اللحظات فى تاريخ الجامعة ، التى تضم ١٢ كلية ومركزا علميا ، و ٣٠٠٠ طالب وطالبة ، وإننا نستلهم من هذه الزيارة روحا إسلامية حقيقية ، وأريد أن أشير إلى دور سفير مصر فى باكستان الدكتور نعمان جلال الذى يسهم فى تعميق محبة الباكستانيين لمصر .. وإننا نتطلع إلى مساعدة الأزهر لدعم وتوجيه هذه الجامعة ..

وفى حديث الإمام الأكبر انتقل من التحية إلى دور الجامعة ومسئوليتها ، فقال : لو سألنى سائل ما أبرز خصائص شريعة الإسلام فإجابتى أن أول هذه الخصائص : الوضوح .. ليس فى شريعة الإسلام أسرار أو خفايا أو طلاسم أو حقائق لا يعلمها إلا الصفوة .. لذلك حاربت شريعة الإسلام النفاق ، وإظهار المسلم عكس ما يخفى ، وفرضت أن تكون عبادة المسلمين خالصة لله .

من الذى يستطيع أن يقنع الناس بأن وحدة الله حق ، وأن شريعة الإسلام هى السماحة والتعاون والتآخى والبعد عن كل مبالغة أو تطرف ؟ العلماء هم القادرون على ذلك ، ولذلك يجب أن نبدأ بإعداد الدعاة إعدادا دقيقا بحيث لا يلتبس عليهم الفكر ، ويستطيعون التفرقة فى شريعة الإسلام بين الحقيقى والزائف ، وبين الأصيل والمدسوس ..

وفى العبادات أيضا نجد خاصية الوضوح .. الصلاة .. الزكاة ..

الصيام .. الحج .. كل شيء فيها واضح بحيث يدركه الطفل والأمى .. ولا يحتاج إلى تعقيد يكلف الناس من أمرهم عسرا .. فالله يسر على الناس ، وليس من حق أحد أن يضيف عليهم تعقيدات لم يفرضها الله .. فالخاصية الثانية بعد الوضوح فى شريعة الإسلام هى السماحة واليسر ورفع الحرج والاعتدال : وفى القرآن ﴿لا يكلف الله نفسا إلا وسعها﴾ .. ﴿لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها﴾ .. ﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾ .. ﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾ .. ﴿وما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾ .. وفى الحديث : « إن الدين يسر ، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، فيسروا ، وبشروا ، ولا تنفروا » ..

وفى المعاملات نجد الوضوح الكامل : لا يستغنى الناس عن التعامل فيما بينهم ، وحرام على المسلم أن يأكل أموال الناس بالباطل : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾ .. وفى الكتاب والسنة والفقه تفصيل واضح لما هو حلال وما هو حرام فى معاملات الناس ..

وفى علاقة المسلم بغير المسلم شريعة الإسلام واضحة : ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم﴾ .. ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» وغير المسلمين الذين يعيشون معنا وفقا لأمر الرسول : « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » ..

ساعتان والإمام الأكبر يتحدث ويفيض فى رفض الإسلام للإرهاب بكل صوره ودرجاته .. فالمسلم الذى يستخدم العنف مع غيره من المسلمين لا يفهم حقيقة الإسلام .. ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله﴾ .

* * *

وفى القصر الجمهورى كان لقاء شيخ الأزهر مع الرئيس فاروق أحمد

ليجارى .. قال فيه رئيس باكستان : نحن نعتبرك أستاذا كبيرا ، ورمزا للإسلام ، والأزهر الشريف له دور كبير جدا منذ مئات السنين فى خدمة الإسلام والمسلمين ، ونحن نحملك تحية للرئيس حسنى مبارك ، ونحن نتطلع لزيارته لنا ، وهناك موضوعات كثيرة تهم المسلمين .. فى الاقتصاد والمعاملات .. ودور المرأة فى المجتمع الإسلامى .. وموقف الإسلام من التحديث والتكنولوجيا والعلوم الحديثة .. وأنت كأستاذ جامعى ، ومفكر عالمى ، والمفتى الأكبر نلجأ إليك لتبين لنا الطريق ..

وتحدث الإمام الأكبر عن المعاملات وفقا لمبدأ أن كل معاملة لا تقوم على الغش أو الخداع أو الربا أو الظلم أو الاستغلال أو التحايل فهى حلال .. وفيما يتعلق بالسلوك فإن المسلم مطالب بأن يقيم علاقاته على التعاون على البر والتقوى وليس على الإثم والعدوان .. والخلاف بين المسلمين قائم على الفروع وليس على الأصول .. وفى الفروع الخلاف جائز ، ولا يمكن تكفير من يختلف معنا فى أمر من الأمور الفرعية مادام متفقا معنا فى الأصول .. ونحن لا نفرق بين سنى وشيعى ، وفى الأزهر ندرس لأبنائنا كل المذاهب ، ونعلم أبناءنا أن اختلاف المذاهب أمر من طبائع الحياة وفيه رحمة ، ونعلمهم أن الحوار هو وسيلة العقلاء ، والعنف هو وسيلة السفهاء ..

وقال رئيس باكستان : يا فضيلة الإمام الأكبر .. نحن نتطلع إليك من موقعك الكبير لتقودنا إلى حل الخلافات والمشكلات القائمة ..

وأجاب الإمام الأكبر : أننا لا نتأخر عن القيام بمسئوليتنا .. والأزهر وظيفته الأساسية بيان حقائق الإسلام وواجبات المسلمين تجاه أنفسهم وتجاه اخوانهم وأوطانهم .. وأعظم ما فى الإسلام أنه دين واضح وسهل يصل إلى عقل الصغير والكبير إذا كان عقلا سليما متحررا من التحيز وسوء القصد .

وقال الرئيس : نحن نقرأ القرآن دون أن نقف بالتفصيل على المعانى

والتوجيهات .. المسلمون لا يدركون بعمق أن القرآن كتاب سلوك .. فيه الأمر والنهى .. وليس مجرد آيات للتلاوة التماسا للبركة ..

وقال الإمام الأكبر : إن القرآن فى حقيقته يشمل قواعد العمل ، والتفصيل فى السنة والفقه .. وفى هذه المصادر نجد دعوة إلى العلم وإلى استخدام العقل والمنطق وإلى عدم استخدام العنف وإلى مد يد التعاون والأخوة لكل الناس الذين يمدون إلينا أيديهم بإخلاص سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين .. فالإسلام هو الدين الذى يأمرنا أن نساير التطور .. ونأخذ بأحدث ما فى العصر .. ونضيف .. وعلماء المسلمين شاركوا فى الحضارة الإنسانية وكان منهم علماء الكيمياء والرياضيات والفلك والطب والجراحة .. فكيف يقال إن الإسلام دين الصحراء والبداوة والتخلف .. هذا ظلم للإسلام وسوء فهم ..

وقال الرئيس : إننى مثل كل مسلم أشعر بالقلق لعدم وضوح مفهوم الربا وللقول بأن الاجتهاد قد أغلق بابه منذ قرون ، ونحتاج إلى رأيكم ..

وقال الإمام الأكبر : إن باب الاجتهاد لم يغلق أبدا .. الرسول اجتهد والصحابة اجتهدوا .. والأئمة اجتهدوا .. ونحن لنا عقول ومن حقنا أن نجتهد مادام فينا من تتوافر فيه شروط الاجتهاد .. أما الربا فهو حرام .. والربا المحرم هو زيادة المال استغلالا لحاجة المحتاج الذى يلجأ إلى الاقتراض من أجل ضرورات الحياة .. لأن الإسلام يأمر أتباعه الا يلجأوا إلى الاقتراض إلا إذا كانت حياتهم فى خطر .. أما المعاملات فى التجارة مع البنوك فهذا موضوع فيه تفصيلات .. وسأقدم لكم كتابى عن المعاملات الإسلامية .. وقلت فيه : إن معاملات البنوك ليست كلها حلالا .. وليست كلها حراما .. وكل معاملة منها يكون الحكم عليها بحسب طبيعتها ..

وقام رئيس الجمهورية يطلب من الإمام الأكبر أن يكون إمامنا فى

الصلاة .. ووقف خلفه في القصر الجمهورى مع حشد من المسئولين .. وبعد الصلاة أقام الرئيس مأدبة غداء تكريما لشيخ الأزهر .

في المساء كانت زيارة مجلس الفكر الإسلامى ، وهو يماثل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى مصر ، وكان المبنى الكبير غارقا فى الأضواء ، وساحة مليئة بالبشر ..

وتحدث الإمام الأكبر حديثا مستفيضا عن الفكر الإسلامى الرشيد والفكر الإسلامى المنحرف .. وتحدث عن مفهوم « القوة » التى يحث عليها الإسلام أتباعه فقال : إنها ليست القوة الغاشمة .. أو الظالمة .. ولكنها القوة العاقلة .. القوة العادلة .. أما القوة التى تعتدى على حياة الآخرين أو تسلبهم أموالهم فهذه ليست القوة المسلمة ..

وقال : إن الأمة الإسلامية لن تأخذ مكانها فى العالم إلا إذا دخلت المنافسة العالمية فى التقدم العلمى والصناعى والحضارى .. وسمة المسلم التواضع ، فالأستاذ فى مجال هو تلميذ فى مجال آخر ، ولكن المشكلة أن بعض الناس يظنون أن تفوقهم فى التخصص فى علم أو مجال معين يعطيهم الحق فى أن يصبحوا علماء فى كل شىء .. والعلم فى الإسلام مرتبط بالأخلاق .. وإذا تجرد العلم من الأخلاق فإنه يتحول إلى طاقة مخربة ؛ ولذلك يقول رسولنا : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

بعد ذلك حضر الإمام الأكبر عشاء شاركه فيه حوالى ٢٠٠ من أكبر شخصيات المجتمع الباكستانى على رأسهم رئيس مجلس الفكر الإسلامى السيد إقبال أحمد خان ، وهو بدرجة وزير ، وكان يشغل منصبا وزاريا من قبل ، وشارك فى عدة اجتماعات للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى مصر ..

* * *

في اليوم الخامس – سجل الإمام الأكبر حديثا طويلا لتلفزيون باكستان في حوار مع الدكتور أنيس أحمد الأستاذ بالجامعة الإسلامية . وملخص الحوار :

– أن الأزهر وشيخ الأزهر لهما رسالة عالمية ، فكيف ترون الحوار بين الإسلام والحضارات الأخرى ونحن على مشارف قرن جديد ؟

●● الحياة تتطور من يوم إلى يوم ومن جيل إلى جيل ، ويشمل التطور جوانب الحياة المادية والاجتماعية والعقلية والثقافية ، ولكن هناك ثوابت لا تتغير هي العقائد .. والقيم الأخلاقية .. مبادئ الإسلام لا تتغير .. والأخلاق التي ينادى بها الإسلام لا تتغير .. الصدق والعدل لا يلحقهما التغير .. أما المعاملات فهي تتغير .. كان التعامل بين الناس محدودا في العصور الماضية والآن ظهرت صور جديدة للمعاملات .. كان الانتقال صعبا والآن أصبح سهلا فأصبح الحوار بين البشر ألزم ، ونحن كمسلمين نرحب بالحوار مع كل الأديان وكل الحضارات .. مع المسلمين وغير المسلمين .. الحوار عندنا يجب أن يقوم على الموضوعية ، ويهدف إلى الخير لا إلى الشر ، وغايته الوصول إلى الحقيقة وليس المغالطة ، والقرآن حافل بعشرات النماذج من الحوار .. حوار بين الله وإبليس .. وبين الرسل وأقوامهم .. وبين النبي والمشركين .

– هل يمكن أن يكون الحوار مع الأفكار التي تأتينا من الغرب في المجالات الاجتماعية والاقتصادية .. ؟

●● نحن لنا قيم علّمنا إياها الإسلام .. نحن نحاور غيرنا من أجل الوصول إلى الحقيقة وتبادل المنافع بين الناس .. التبادل بين الثقافات والحضارات لصالح البشرية .. نحن نقدم للغرب ما لدينا .. والغرب يقدم إلينا ما لديه .. ونأخذ ما ينفعنا ويساعد على تقدمنا وقوتنا ولا يتعارض مع ديننا .. لابد أن نتعلم من

غيرنا ما دمنا لا نتنازل عن القيم الإسلامية . والرسول أمر أصحابه بتعلم اللغات السريانية والعبرية ولم يقل الرسول : هذه ليست لغة العرب .. ولكنه قال إن فى تعلمها خيرا وفائدة ، وأرسل الرسول بعض الصحابة إلى بلاد الأعداء ليتعلموا فيها فنون الحرب وصناعة السلاح .. وعندما أرسل أبو بكر الصديق خالد بن الوليد لمحاربة الأعداء قال له : يا خالد حاربهم بالسلاح الذى يحاربونك به .. أولا حاربهم بالسيف إذا حاربوك بالسيف .. وحاربهم بالرمح إذا حاربوك بالرمح .. ولو كان أبو بكر فى عصرنا لقال : وإن حاربوك بالقنبلة الذرية فحاربهم بالقنبلة الذرية .. وفى النهاية العلم لا وطن له . ولا يرتبط بدين دون دين آخر .

– هل يمكن أن يبدأ الحوار والغرب فى موقع قوة ..؟ وما دور الأزهر؟

●● الحوار ممكن فى كل وقت .. وهو وسيلة للتقدم .. والأزهر يرحب بكل حوار ويشارك فيه .. الإسلام دين يستطيع أن ينتصر فى كل حوار .. ويستطيع رجال الأزهر أن يدافعوا عنه .. فلماذا نرفض الحوار أو نتهرب منه ..؟

– كيف ينظر الأزهر إلى مجالات التعاون مع باكستان ؟

●● الأزهر يقدم ما يستطيع .. فى مصر عشرات الباكستانيين يتعلمون فى الأزهر وسنزيد عددهم .. وأنا شخصيا أشرف على بعض الطلبة الباكستانيين يعدون رسائل دكتوراه فى جامعة الأزهر .. وللأزهر الآن معهد لتعليم اللغة العربية والدين فى إسلام أباد .. وفى باكستان عدد كبير من أساتذة الأزهر والعلماء .. وهذا واجبنا : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا » .

– الأزهر صاحب فضل على العالم الإسلامى كله منذ قرون .. ما دوره بالنسبة للأقليات المسلمة فى العالم .. ؟

●● يدافع عنهم .. يذهب إليهم بعلمائه ويقدم لهم الدين الصحيح ويسهم في تعليمهم ورفع مستواهم الثقافى .. ونحن نحمد الله لأننا فى مصر لا نعرف كلمة الأقلية والأغلبية .. المسلمون والمسيحيون فى مصر يعيشون معا على قدم المساواة وكل من يحمل الجنسية المصرية هو مصرى له ما لكل المصريين من حقوق ، وعليه ما عليهم من واجبات دون تفرقة .. وندعو جميع الدول إلى معاملة الأقليات من المسلمين بهذا المفهوم المتحضر الذى نلتزم به التزاما بأوامر شريعة الإسلام .. فالإسلام لا يفرق بين الناس فى الحقوق والواجبات بسبب اللون أو الجنس أو الدين ..

بعد ذلك توجه الإمام لأداء الصلاة وألقاء خطبة الجمعة فى أكبر مساجد باكستان وهو مسجد فيصل واحتشد فيه ما يقرب من مائة ألف شخص ..

فى اليوم السادس فى الصباح الباكر كان الإمام الأكبر قد طار إلى مدينة لاهور ..

وكانت مدينة لاهور ، العاصمة الثقافية لباكستان فى انتظار شيخ الأزهر ..

كان فى المطار حشد كبير ، وفرق موسيقى ، وأعلام ، وهتافات : الله أكبر .. وعلى رأس المستقبلين حاكم إقليم البنجاب الذى أقام حفل غداء كبيرا للإمام الأكبر بعده قام بزيارة مسجد باتشاهى أكبر وأقدم مساجد لاهور وأدى فيه صلاة العصر وسط آلاف المصلين جاءوا ليروا شيخ الأزهر .. وتحدث الدكتور محمد عبد القادر آزاد رئيس دار الإفتاء فى باكستان والإمام الأكبر فى المسجد التاريخى فرحب بالإمام الأكبر باسم رئاسة مجلس علماء باكستان ، والرئاسة العامة للدعوة ، ووزارة الأوقاف وقال : إن هذا يوم لن ننساه نفتح فيه قلوبنا وصدورنا لأعز ضيف .. نرحب بك يا إمام المسلمين .. وأنت إمام العلماء .. والعلماء ورثة الأنبياء .. فمرحبا بقائم مقام الأنبياء !

وتحدث الإمام الأكبر عن الأخلاق فى الإسلام وعن الأسرة والمرأة ودعوة الإسلام أتباعه إلى القوة .. والقوة فى هذا العصر هى العلم والصناعة والحضارة ..

* * *

في اليوم السابع بدأ الإمام الأكبر يومه بلقاء موسع مع أكثر من ٣٠٠ من رجال الدين وعلماء وزارة الأوقاف تحدث فيه عن أدب الحوار فى الإسلام والاجتهاد فى الأحكام الشرعية ..

وبعدها اجتماع مع قاضى القضاة السيد خليل الرحمن وجميع القضاة قال فيه قاضى القضاة : إن هذا يوم تاريخى أن تستقبل هذه المحكمة شيخ الأزهر الشريف .. وقال إننا نتمنى أن يساعدنا الأزهر فى بيان أحكام الشريعة الإسلامية فى المسائل التى تعرض علينا وفى تدريب القضاة .. وقال : لقد بدأنا فى إعداد دائرة معارف إسلامية تضم كل أحكام ومبادئ القضاء فى التاريخ الإسلامى كله ابتداء من عصر الرسول حتى اليوم ، وستقع فى ٢٠٠ مجلد ، وشكلنا لجنة لهذا المشروع الكبير ، واتصلنا ببعض الدول الإسلامية مثل السعودية والكويت وتلقينا ردا بالموافقة على التعاون معنا فى التنفيذ ، ونحن نوجه اليكم الدعوة يا فضيلة الإمام الأكبر ليتعاون الأزهر معنا لأننا نعلم أنه لا يمكن إنجاز هذا المشروع الكبير إلا بمساعدة الأزهر .. ونرجو أن توافقوا على أن يشترك الأزهر فى هذه اللجنة .. وقد عرضت هذا المشروع الكبير لكى نجد منكم التأييد والمساعدة ..

وقال شيخ الأزهر : إن دستور مصر ينص على أن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع ، والقضاء فى مصر مستقل ولا سلطان على القضاة إلا القانون وضمير القاضى ، ووزارة العدل فى مصر لا تتدخل فى أعمال القضاة ، وللقضاة مجلس أعلى يختص بشئونهم ويتكون منهم وبرئاسة رئيس

محكمة النقض . ونحن نؤيد مشروع الموسوعة القضائية الإسلامية ومستعدون للاشتراك فيها ، ويمكنكم الاستفادة من المراجع والمكتبات وأرشيف الأزهر ودار الإفتاء ومحكمة النقض فى مصر .. بعد ذلك اجتمع الإمام الأكبر مع رئيس وزراء البنجاب ..

فى اليوم الثامن غادر الإمام الأكبر فى الصباح الباكر باكستان متجها إلى الهند ..

والتفاصيل كثيرة تحتاج إلى أضعاف هذه الصفحات ..

* * *

والخلاصة :

كانت زيارة شيخ الأزهر لباكستان بالنسبة لى تجربة رائعة ..

كنت أشعر وأنا أعيش معه فى كل لحظة أننى فى حلم ..

لم أكن أتصور أن الأزهر وشيخه لهما كل هذه المكانة وكل هذا الحب .. ما رأيته فوق كل تصور ..

ولابد أن ندرك أن ذلك يلقى علينا مسئوليات كبيرة .. ولابد أن نقوم بها ..

مصر .. ومكانتها .. وأزهرها .. وقيادتها موضع احترام يفوق الوصف .. والجميع يتطلعون إليها .. ويلتمسون عندها الفكر الرشيد .. والقيادة الحكيمة .. ولابد أن نحمد الله كثيرا على هذه النعمة .

فى الهند

١ مع ١٢٠ مليون مسلم

قبل أن يبدأ فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر زيارته للهند كان الاهتمام الشديد بهذه الزيارة واضحا ..

كان المقرر أن تكون الزيارة ثلاثة أيام ولكنها امتدت إلى سبعة أيام استجابة لرغبة المسئولين فى الحكومة والمنظمات الأهلية الذين أكدوا رغبتهم فى الاحتفاء بفضيلته وبالوفد المرافق بما يتفق مع مكانته الكبيرة .. وقررت الحكومة أن تكون إقامة شيخ الأزهر والوفد المرافق له فى قصر الضيافة المخصص لرؤساء الدول والحكومات .

وأظهرت الهند بكل وسيلة اهتمامها البالغ بهذه الزيارة ، وبتقديرها لمصر ، وللأزهر ، وللدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر شخصيا .

والمسلمون فى الهند أقلية تعدادها ١٢٠ مليونا .. وفى الحكومة الحالية ثلاثة وزراء مسلمين .. والإسلام فيها يرجع إلى القرن الثامن الميلادى .. وتستطيع أن تلمس أثر الحضارة الإسلامية والفكر الإسلامى فى كل وقت وفى كل مكان .. والهنود يحملون تقديرا واعتزازا بفترة الحكم الإسلامى وآثارها .. بقدر ما يحملون التقدير للزعيم التاريخى المهاتما غاندى الذى قاد الشعب الهندى فى عام ١٩٣٠ إلى طريق العصيان المدنى ضد الحكم البريطانى إلى أن تحقق الاستقلال .. وفى نفس الوقت تم تقسيم الهند إلى دولتين .. دولة مسلمة هى باكستان .. ودولة أخرى هى الهند الحالية .. ودخلت الهند فى حروب مع باكستان منذ عام ١٩٤٧ حتى عام ١٩٧١ ومازالت العلاقات

بين الدولتين متوترة .. وتاريخيا تولى حزب المؤتمر الوطنى القيادة السياسية على أساس علمانية الدولة من أجل الحفاظ على تماسكها وهى تضم ديانات متعددة .. هندوس .. ومسلمين .. ومسيحيين .. وسيخ .. وبوذيين .. وديانات أخرى .. وتضم قبائل وأصولا عرقية متعددة .. وتتحدث بلغات متعددة بلغت ٢٠٠ لغة مكتوبة ومنها ٦٧ لغة مستخدمة فى المدارس منها ١٨ لغة رسمية تتعامل بها الحكومة .. ومنها اللغة الانجليزية .

الهند عالم كبير .. عجيب .. وهى الآن تعيش مرحلة جديدة .. انتهت مرحلة سيطرة حزب المؤتمر .. انتهت مرحلة نهرو وانديرا غاندى .. وخسر حزب المؤتمر الانتخابات الأخيرة ، والحكومة الحالية ائتلافية من أحزاب اليسار ويسار الوسط يرأسها ديف جاودا ، وسياستها تسعى إلى إيجاد التسامح الدينى والتعايش السلمى بين الديانات بعد مراحل الصراعات الدموية بين أصحاب الديانات المختلفة .

والمسلمون فى الهند فيهم تنوع واسع .. تنوع اجتماعى وثقافى ولغوى ، وهم من أصول من مختلف أنحاء العالم .. ولذلك لا تستطيع أن تتحدث عن مسلمى الهند على أنهم مجموعة واحدة .. ويستمد أكثر المسلمين الهنود تقاليدهم من العرب ومن الأتراك والإيرانيين والأوزبكستانيين والأفغان .. وهم ينتمون إلى جماعات عرقية مختلفة .. وكان للمسلمين الهنود دور بارز فى حركة مقاومة الاحتلال وتحرير الهند من الاستعمار البريطانى .. وظهرت منهم شخصيات لامعة فى السياسة والعلوم والأدب والفلسفة .. ولا توجد دراسات تفصيلية عن الوضع الاجتماعى والاقتصادى للمسلمين الهنود مقارنة بأصحاب الديانات الأخرى غير دراسة أعدت تحت إشراف حكومى عن أوضاع المسلمين فى المدن بين عامى ١٩٥٠ و١٩٧٥ .

* * *

من هذه الدراسة نعرف أن مجموع سكان الهند فى عام ١٩٥١ كان ٣٦٠ مليون وكان عدد المسلمين ٣٥ مليونا وبعد عشرين عاما ، ارتفع سكان الهند إلى ٥٥١ مليون ، وأصبح المسلمون ٦١ مليونا .. يستخدم معظمهم اللغة الأردية وبعضهم يستخدم لغات أخرى محلية .. والمستوى العام للدخل والعمالة بين المسلمين أقل من غيرهم ، ونسبة الأمية بينهم أكبر من النسبة العامة ، ونسبتهم فى العمل فى القطاع العام المنظم أقل .. وخاصة فى الحكومة المركزية والولايات والجيش والشرطة .. وهناك جماعات إسلامية منها جماعة التبليغ ، والجماعة الإسلامية وهى تعارض الاشتراك فى النشاط السياسى ، بينما تقدم ، جماعة العلماء الهند ، صيغة سياسية بناءة لتسهيل قبول المسلمين لشرعية الدولة والمشاركة السياسية ، ولا ترى هذه الجماعة تعارضا بين استقلال الهند كدولة ومصالح المسلمين فيها .. ولذلك عارضت هذه الجماعة قيام باكستان .. ورأوا أن استمرار الهند كدولة موحدة لا يتعارض مع حصول المسلمين فيها على حقوقهم كاملة كمواطنين متساوين مع غيرهم فى الحقوق والواجبات .. هذه الجماعة شعارها : الجنسية هندى .. والديانة مسلم .. ولا تعارض بينهما . ومشاعر المسلمين الهنود قوية تجاه المسلمين فى كل أنحاء العالم .. ولذلك تجد حماسا منقطع النظير للقضية الفلسطينية والقدس .. والطرق الصوفية منتشرة فى الهند .. وحين جاء القرن السابع عشر كان المسلمون هم الأغلبية الساحقة من المواطنين .. وقد استمر حكم المسلمين للهند حوالى ثمانية قرون أثروا خلالها على الحياة الهندية بشكل شامل .. ودخلت اللغات العربية والفارسية والتركية إلى الهند مع دخول الإسلام ، وأثرت اللغة العربية تأثيرا واضحا على اللغات الهندية التى يتحدث بها المسلمون وغير المسلمين فى شمال وغرب الهند . وفى اللغة الأردية كثير من الكلمات العربية .

وفى الهند مئات الجامعات ، والمعاهد والمؤسسات الإسلامية .. كلها كانت تنتظر زيارة شيخ الأزهر .

وكانت الزيارة مليئة باللقاءات والحوارات .

كان في برنامج الساعات الأولى من الزيارة استقبال شيخ الأزهر لوزير الصحة والأسرة السيد سليم إقبال شرفانى ، وهو مسلم ، خريج الجامعة الإسلامية فى البجار التى يسمونها أحيانا جامعة عليكرة وهو عضو فى البرلمان .. واستقبال لوزير الخارجية الذى أقام حفل غداء تكريما للدكتور طنطاوى ..

وكانت هذه هى لقاءات الساعات الأولى من زيارة الهند ، والبرنامج حافل باللقاءات والزيارات والحوارات - فى بلد - المسلمون فيه ١٢٠ مليون مسلم .. ولهم تقاليد متنوعة اجتماعيا وثقافيا ولغويا .. نتيجة تعدد وتنوع أصولهم ، وقد جاءوا من مختلف أنحاء العالم ، وينتشرون فى كل مناطق الهند .. وقد تأثروا بالتقاليد الاجتماعية والثقافية فى الهند وأثروا فى الهند تأثيرا ملحوظا .. وأول المصادر للتأثير بالنسبة للمسلمين الهنود كانت من العرب .. ومن الأتراك والإيرانيين والأوزبكستانيين والأفغان (فى شمال الهند) وإن كان معظمهم هنودا فى الأصل إلا أنهم ينتمون إلى جماعات عرقية مختلفة ويتوزعون على مهن متنوعة ، وينتشرون فى المجتمع الهندى .

* * *

ولأن الهند عاشت منذ عصورها القديمة عند مفترق الطرق جغرافيا ، كانت لها اتصالاتها مع الغرب ومع وسط وشرق آسيا ، وتأثروا بحضارات هذه المناطق ، وكان مسلمو الهند فى القرون الوسطى أهل فلسفة وثقافة وعلوم استمدوها من الإمبراطورية الإسلامية . ومع بداية القرن ١٤ أصبحت الهند

مركزا من مراكز التعليم الإسلامى ، وهم يتحدثون عن « أمير خسرو » على أنه يتساوى مع ليوناردو دافنشي بالنسبة لدوره فى عصر النهضة ، أمير خسرو أسهم فى تطوير الآلات الموسيقية ، والشعر ، والأدب واستمرت جهوده الحضارية على أيدى من جاءوا بعده .. ساهم فى تطوير اللغات رجال يذكرون منهم « ملك محمد جائس » و« قلى قطب شاه ، وفى الفلك والتكنولوجيا حدث تطور هائل فى الهند على أيدى المسلمين ، فى التعدين ، وصناعة المنسوجات ، والبنادق ، وفى الزراعة حتى أن أول مؤلف فى الزراعة يرجع تاريخه إلى القرن ١٧ كان من تأليف أحد المسلمين .. وكان الإسهام الأكبر للمسلمين الهنود فى مجال العمارة الذى تمثل فى بناء مساجد .. كل منها تحفة معمارية ، ومن بينها المسجد الجامع الذى بناه الإمبراطور المغولى شاه جيهان فى القرن ١٧ وهو مسجد لا مثيل له فى الاتساع والفخامة والدقة والجمال فى التصميم .. وإحدى معجزات الدنيا السبع فى الهند وهى مقبرة تاج محل التى بناها الإمبراطور شاه جيهان أيضا لتخليد ذكرى زوجته التى أحبها ومات حزنا عليها .. والذى بنى هذه المعجزة المعمارية كان مهندسا مسلما هو « أحمد المعمر اللاهورى » .

* * *

وفى فترة الاحتلال البريطانى بدأ المسلمون يبحثون أسباب تقدم أوربا .. وسافر عدد من مسلمى الهند إلى أوربا لجمع المعلومات .. ورحبوا متحمسين للعلوم الحديثة والتكنولوجيا وترجمة الكتب الأوروبية وخاصة فى الفلك والرياضيات والجغرافيا .. وقام العالم المسلم ، « نواب فخر الدين خان » بدور كبير فى ذلك يشبه دور رفاعة رافع الطهطاوى فى النهضة المصرية .

وكان المسلمون الهنود هم أكبر الثوار على الاحتلال ، واحتل محمد إقبال مكانا مهما بشعره الثورى فى أوائل العشرينات .. كما كان للمسلمين الهنود

دور بارز فى مجال الصحافة الثورية التى خلقت الوعى القومى والحماس لدى الشعب الهندى بأكمله .. وأنشأ الأستاذان نور الحسن وعرفان حبيب مدرسة لتخريج المؤرخين ، وشغل الأول منصب وزير التعليم ، والثانى منصب سفير ، ثم حاكم ولاية البنجاب ، ثم ولاية أوريسا .. وفى مجال أبحاث الفضاء يلمع اسم العالم المسلم الدكتور فريد الدين .. وأيضا الدكتور أ . ب . كلام .. ويلمع فى علم الأحياء العالم المسلم الدكتور عبيد صديقى .. وأسس الأستاذ حكيم عبد الحميد عددا من المعاهد والكليات منها كلية للصيدلة ، ومعهد تاريخ الطب والعلم ، ومعهد الدراسات الإسلامية .

تاريخ طويل تستمع إليه على لسان كل أستاذ مسلم تقابله فى الهند .. ويحدثك أيضا عن جذور المسلمين فى الهند .. فالمسلمون ينتمون إلى الأجناس التى ينتمى إليها الهندوس والمسيحيون والسيخ الهنود .. وهى الجنس الآرى ، والجنس الدرافيدى .. وجاءت أعداد محدودة من المسلمين من جهات مختلفة من غرب آسيا وهم « الباتان » والترك والمغول .. وجاء الأشراف من بلاد العرب كما جاء غيرهم من إيران .. واشتغلوا فى كل المهن وخاصة التدريس والخدمة العسكرية .. واندمج أكثرهم فى المجتمع الهندى وتزاوجوا وفسروا الإسلام تفسيرا متأثرا بالثقافة الهندية .. وعن طريق القدوة وخدمة الفقراء وحياة الفضيلة كسبوا قلوب الناس وحولوهم إلى الإسلام ..

هكذا شارك الإسلام فى نسيج المجتمع ، وأسهم فى صنع الحضارة الهندية على امتداد العصور .

فالمسلمون إذن ليسوا غرباء .. وليسوا أقلية .. ولكنهم هنود مثل غيرهم ..

وإن كانت هناك تفرقة ، فالتفرقة ليست للمسلمين وحدهم .. ولكن الهند عالم كبير .. ليس من السهل أن تتحدث عنه .. ولكى تحاول أن تفهمه لابد

أن تضع فى اعتبارك أن هذه الدولة مساحتها ثلاثة ملايين وربع مليون كيلو متر مربع وهى بذلك سابع دولة فى العالم من حيث المساحة .. وتنقسم إلى ٢٦ ولاية و٦ أقاليم اتحادية .. وعدد اللهجات التى يتحدث بها الناس تبلغ ١٥٦٢ لهجة .. ! وعدد اللغات المكتوبة التى تصدر بها كتب وتنشر صحف ولها أدب وشعر وعلوم تبلغ ٢٠٠ لغة مكتوبة .. وعدد اللغات المستخدمة فى المدارس ٧٦ لغة .. وعدد اللغات الرسمية التى تتعامل بها الدول تبلغ ١٨ لغة منها اللغة الإنجليزية .

فالهند ليست بلدا ككل البلاد .. هى فى الحقيقة قارة .. أو هى عالم خاص فريد مميز لا مثيل له فى العالم .. عالم ساحر وجذاب تشعر أنه يحتاج منك إلى سنين من المعايشة والدراسة لكى تقول إنك أصبحت تعرفه .. خاصة إذا عرفت أن تعداد سكان الهند الآن وصل إلى ٩٥٠ مليون نسمة ، وهى بذلك ثانى أكبر دولة فى العالم من حيث السكان بعد الصين .

أصحاب الديانة الهندوسية يمثلون ٨٣٪ من سكان الهند ، والمسلمون ١١٪ والمسيحيون ٢٪ ، والسيخ ٢٪ .

٢ رؤية الهند للإسلام

في اليوم الأول في المطار كان في استقباله وزراء من الحكومة .. وبعد وصول شيخ الأزهر بدقائق استقبله نائب رئيس الجمهورية السيد ك . نارايانان وهو شخصية لها ثقلها في الحياة السياسية وله تاريخ طويل .. فهو من مواليد عام ١٩٢١ وحاصل على ليسانس في الادب الإنجليزى عام ١٩٤٣ ثم عمل أستاذا بنفس الكلية ، وحصل في عام ١٩٤٨ على بكالوريوس في الاقتصاد من كلية الاقتصاد بلندن ، والتحق بالخارجية الهندية عام ١٩٤٩ وتدرج في السلك الدبلوماسى ، ثم عمل رئيسا لجامعة جواهر لال نهرو من عام ٧٨ حتى عام ١٩٨٠ ، وشغل منصب وزير الدولة عام ١٩٨٥ ثم وزيرا للشئون الخارجية عامى ١٩٨٥ و ١٩٨٦ ، ثم وزير دولة للعلوم والتكنولوجيا والطاقة الذرية ، فهو شخصية لها تاريخ علمى وسياسى طويل ، وله مكانة كبيرة بين المثقفين والمفكرين ، ولذلك كان اللقاء بينه وبين شيخ الأزهر حوارا فكريا من طراز رفيع حول طبيعة الثقافة المصرية القديمة والحديثة وأوجه التشابه بينها وبين الثقافة الهندية في عصورها المختلفة ، وحول التكوين الحضارى المتقارب والمواقف المشتركة ، والعلاقات القديمة جدا بين البلدين .

* * *

قال نائب رئيس الهند في البداية : نحن نقدر الأزهر ، ونقدر دوره في قيادة المسلمين في العالم ، وقد تعلم فيه عدد من علماء الهند ، كما أننا نحمل تقديرا كبيرا للرئيس حسنى مبارك ولمصر ، ونرى أن الدور الذى يقوم به

الرئيس مبارك لإرساء السلام فى الشرق الأوسط هو حقيقته دور تاريخى لصالح المنطقة ، ولصالح العالم كله .

وقال له شيخ الأزهر : ونحن أيضا نقدر الهند ونعرف الكثير عن تاريخها وزعمائها وكبار مفكريها ، وعندنا فى الأزهر عدد كبير من الطلبة الهنود يدرسون حتى مرحلة الدكتوراه ، وقد منحت جامعة الأزهر الدكتوراه لرسالة عن شخصية وفكر مولانا أبو الكلام أزاد ، وهو شخصية إسلامية بارزة فى تاريخ الهند ، ورسالة أخرى عن تاريخ الهند وكفاحها .

وقال نائب الرئيس : نعم .. أعرف دور الأزهر .. لقد أيقظ العرب والمسلمين .. وشارك فى إيقاظ الهنود كذلك . مصر والهند حضارتان قديمتان .

وقال شيخ الأزهر : ونحن أيضا نقدر صداقة الهند ، والأزهر الشريف مع كل جهد لتحقيق السلام والإخاء ، وهو قاعدة للفكر الإسلامى المعتدل ، الأزهر يرفض الإرهاب .. ويرفض التخريب .. ويرفض العدوان بكل ألوانه .

وعلق نائب الرئيس : هذا حق .. التطرف والإرهاب لا يفيد الشعوب ، وتأثير الأزهر فى محاربة التطرف مهم جدا .

وأضاف شيخ الأزهر : إن الأزهر يستقبل أبناءه من جميع دول العالم ، ويعاملهم معاملة أبنائه المصريين دون تفرقة ، ويغرس فى نفوس الجميع محبة الأوطان ، والتمسك بالقيم الإنسانية والأخلاقية ، وكراهية العنف والإيذاء والعدوان على الغير .. الأزهر يؤمن بأن جميع الأديان ، وجميع العقول تريد السلام وتسعى إليه .

وقال نائب الرئيس : نعم .. نعم .. لقد رأيت كيف أن الطلبة الهنود الذين

درسوا فى الأزهر فخورون بذلك ، ويحملون اعتزازا وحبا له ، وهم فى منزلة رفيعة هنا .

وعلق شيخ الأزهر : ونحن أيضا فخورون بهم .. لأنهم من دولة تربطنا بها صداقة خاصة ، وهى دولة ذات حضارة قديمة جدا ، مصر والهند هما أقدم حضارتين عرفتهما البشرية ، وسوف نستقبل هذا العام ٢٠ طالبا على منح دراسية من الأزهر الشريف .

وقال نائب الرئيس : هذا عدد طيب .. والأزهر مؤسسة علمية كبيرة .

وقال شيخ الأزهر : نعم .. فى المعاهد الأزهرية مليون وربع مليون طالب وطالبة ، وفى جامعة الأزهر حوالى ٥٠٠ كلية للهندسة والطب والصيدلة ، والعلوم والتجارة إلى جانب كليات الشريعة واللغة العربية وأصول الدين .

وعلق نائب الرئيس : مليون ونصف مليون طالب فى معاهد الأزهر .. ! إنهم مثل تعداد دولة الدانمرك مثلا !

وسأل نائب الرئيس : وهل البنات يدخلن الأزهر ؟

وأجاب شيخ الأزهر : نعم .. الأزهر يعلم الذكور والإناث دون تفرقة .. عندنا عشرات الآلاف من الفتيات فى المعاهد والكليات ومئات يحملن الدكتوراه من جامعة الأزهر .. وعشرات يشغلن وظيفة أستاذ وعميد .. العلم لا يفرق بين ذكر وأنثى .

وقال نائب الرئيس : إن الدراسات الإسلامية فى الهند هى دراسات مهمة ، فعندنا ١٢٠ مليون مسلم ، وهم يتمتعون بحرية كاملة ، ويدرسون الإسلام .. وهناك تطورات حديثة فى هذا المجال .. وفى الهند جامعات إسلامية .

وقال شيخ الأزهر : نحن نتابع ذلك ، ونحن فى مصر لا نعرف التفرقة

بسبب الدين .. فالمسلمون والمسيحيون يعيشون معا فى بيوت احدة . ويشتركون فى التجارة والعمل ، وكل من يحمل الجنسية المصرية يتساوى مع غيره فى الحقوق والواجبات .. فلكل إنسان عقيدته .. ولا إكراه فى الدين .. والعقائد لاتباع ولا تشترى .

وقال نائب رئيس الجمهورية : لقد تأثرت الهند بثقافتكم .. وعندنا مئات الكلمات العربية .

وقال شيخ الأزهر : التأثير متبادل .. فالمثقفون فى مصر يعرفون الكثير عن الثقافة الهندية .

هكذا استمر الحوار عميقا .. وأبحر فى بحور الثقافة والفكر .. فى مودة .. وطال الحديث رغم أن نائب الرئيس كان على سفر فى الصباح الباكر لزيارة إيران ، وكانت مقررة منذ شهور .. وامتد الحديث عن أوجه التعاون المختلفة بين البلدين .

وهكذا كانت البداية .

وفى اليوم الثانى كان رئيس الوزراء فى استقباله صباح اليوم .. ورئيس الوزراء السيد هارادانا هالى ديف جودا له ثقل سياسى كبير جدا .. وهو يجمع بين منصبه وبين مهام وزراء الزراعة والشئون الداخلية والعلوم والتكنولوجيا والطاقة النووية .. وهو من مواليد عام ١٩٣٣ ، وبدأ حياته مهندسا مدنيا ، واكتسب من الهندسة الدقة فى الحسابات والقدرة على وضع تصور متكامل لما يريد أن يحققه .

وكان قبل ذلك يعمل بالزراعة قبل اشتغاله بالسياسة ، كما كان عضوا فى المجلس التشريعى منذ عام ١٩٦٢ ، وكان زعيما للمعارضة فى المجلس التشريعى لولاية كرناتكا من عام ١٩٦٢ إلى عام ١٩٧٢ . وفاز فى انتخابات ١٩٩١ فى المجلس التشريعى ، وانتخب رئيسا لحكومة الولاية فى عام ١٩٩٤

ثم فى عام ١٩٩٦ ، وانتخب بعد ذلك فى مايو ١٩٩٦ زعيما للجبهة المتحدة التى تضم ١٣ حزبا هى التى تؤلف الحكومة الهندية الحالية .

قال رئيس الوزراء لشيخ الأزهر : إن زيارتكم تقدير لنا ..ونحن نحمل تقديرا لمصر وللأزهر ولكم شخصيا .. إن التطرف فى الهند ينحسر .. وكل الطبقات وكل الأقليات تلقى من الحكومة معاملة متساوية .. والأحزاب المتطرفة لا تجد تأييدا شعبيا .. وسلاحنا هو اللا عنف .. ونحن نعمل معكم ونتعاون من أجل عملية السلام .. نريد أن يسود السلام فى الشرق الأوسط .. وأنا أعبر عن تقديرى العميق لهذه الزيارة وأرى أنها ستعطينا قوة دافعة .. وأنا أعدكم بأننا سنرعى المسلمين فى الهند وسنعطى الأقليات الحماية الكافية .. وأرجو أن تنقل تحياتنا إلى الرئيس مبارك ونحن نتطلع إلى زيارته للهند .

وقال شيخ الأزهر : إن العقلاء فى العالم كلّه يعملون ضد التطرف والإرهاب ، والعنف لا يحل المشاكل بل يزيدها تعقيدا ، والأزهر الشريف يعلم أبناءه رسالة الإسلام وهى التسامح والرحمة والعدل والمساواة بين البشر فى حقوق الإنسان ، ونحن نعرف الديمقراطية فى الهند ونقدر جهودكم لرعاية المسلمين .. ورسالة الأزهر هى رسالة السلام ونشر الأمان والمحبة كما أمر الإسلام ..

بعد ذلك التقى الإمام الأكبر بأساتذة اللغة العربية من مختلف ولايات الهند ومعهم أفراد الدورة التدريبية التى تنظمها الجامعة الملية الإسلامية فى نيودلهى ، وبدأ اللقاء بقراءة للقرآن الكريم بلغة عربية سليمة وترتيل جميل .. بعده تحدث رئيس الجامعة الملية .. طالب بزيادة البعثات للأساتذة الهنود للتدريب على اللغة العربية والثقافة الإسلامية فى الأزهر ، وطالب بتزويد الجامعة والجامعات المماثلة بكتب عن الإسلام باللغة العربية والانجليزية ، وعتب على الأزهر وعلى مصر لقلة الزيارات منهما إلى الهند ، وقال إن هذه

الجامعة منحت ١٥ دكتوراه فى اللغة العربية لباحثين من الهند واندونيسيا ودول شرق آسيا .

وأفاض الإمام الأكبر فى شرح مبادئ الإسلام .. وختم حديثه بالترحيب بما طلبوه ووعد بدراسة . زيادة المنح .. والزيارات .. والكتب ..

* * *

بعد ذلك كان اللقاء الكبير بين الإمام الأكبر وحشد من أكبر المثقفين والشخصيات الهندية من بينهم راجموهان غاندى حفيد المهاتما غاندى الذى يرأس مركزا للدراسات الاستراتيجية ، وسلمان خورشيد حفيد المفكر الكبير ذاكر حسين الذى بدأ الحوار بحديث عن الأزهر قال فيه : إن الأزهر جامعة الإسلام فى العالم ، ودوره معروف وموضع تقدير كبير فى العالم كله ، وشيخ الأزهر شخصية عالمية لها احترامها ومكانها العالى ، والدكتور محمد سيد طنطاوى شخصية معروفة فى العالم ، وآراؤه موضع احترام وتقدير من كل المثقفين ، وأريد أن أسألكم ونحن نعتبرك مفكرا عالميا فى المقام الأول وتمثلون العالم العربى والإسلامى .. ماذا تعلمنا من دروس فى القرن العشرين وتفيدنا فى المستقبل ؟ وكيف يعالج العالم الجروح التى أحدثها هذا القرن بالحروب والإرهاب والمؤامرات .. ؟

وأجاب شيخ الأزهر أولا بأن تقارب المثقفين على اختلاف أوطانهم ولغاتهم ودياناتهم لصالح البشرية والحضارة ، وأن العلم لا وطن له ، والأزهر يؤمن بالتطور ، والإسلام دين لكل زمان ومكان لأنه لا يتصادم ولا يتعارض مع تقدم العلم والفكر . ودروس القرن العشرين هى أن الحروب لا تحل المشاكل ، والعنف ليس وسيلة الإصلاح . ودين الإسلام يقدم حلولا للمشاكل فى إطار مبادئ أساسية هى : العدل .. والمساواة .. والتعاون على البر والتقوى

وليس على الإثم والعدوان .. والأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية .. واحترام الأديان لهم مالنا وعليهم ما علينا وأن أزمة البشرية فى القرن العشرين كانت بسبب ظهور دول وجماعات تريد بالقوة أن تغتصب حقوق الآخرين .. ولو أن العالم تفهم دول وجماعات تريد بالقوة أن تغتصب حقوق الآخرين .. ولو أن العالم تفهم حقيقة الإسلام الذى ينادى بالعدل حتى مع الأعداء لأدركوا قيمة العدل فى إقرار السلام والأمن للبشرية ، فالقرآن يأمرنا بالعدل ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ وهذا هو مفتاح البشرية للقرن القادم .

وسأل سلمان خورشيد ، وهو وزير مفوض بالخارجية الهندية كيف يرى الإمام الأكبر أن يكون الإصلاح من منظوره ؟

وأجاب الإمام الأكبر : إن الإصلاح فى العالم وفى كل مجتمع على حدة ممكن بأن نسعى إلى زيادة عدد العقلاء وتقليل عدد السفهاء بالتعليم ونشر الفكر الدينى الصحيح .. والإسلام لديه حل يقوم على احترام الآخر والاعتراف بحقه فى الاختلاف .. والأمر الإلهى للمسلمين أن تكون دعوتهم للإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة وليس بأى طريق آخر .

وسأل الدكتور على محمد خسرو رئيس جامعة اليجار الإسلامية : هل من الممكن إعادة فتح باب الاجتهاد فى الفقه الإسلامى بعد أن أغلق سنوات طويلة ؟

وأجاب الإمام الأكبر : إن باب الاجتهاد لم يغلق أبدا حتى يعاد فتح أثر مرة أخرى . ومن حق علماء المسلمين الذين تتوافر فيهم شروط الاجتهاد أن يفكروا ويجتهدوا فى المسائل الجديدة التى لم يعرفها الفقهاء فى العصور الماضية ، والا فكيف يتعامل المسلمون مع كل جديد ؟ هل يرفضون كل ما هو جديد لأن الأئمة الأربعة لم يعرفوه أو أن لنا عقولا تفكر ولدينا

شروط وضوابط للاجتهاد فى الفقه نستطيع أن نتحرك فى إطارها ونقدم الأحكام التى تساير الجديد فى الحياة الإسلام لا يعرف الجمود ، والجمود يعنى التخلف .. والإسلام يدعو إلى التأمل والتفكير واستخدام العقل ؟ وأنتم تسألون عن تنظيم الأسرة والحكم عندنا لا مانع شرعا من تنظيم الأسرة مادامت هناك ضرورة تدعو إلى ذلك .. وهذه الضرورة يقدرها الزوجان .. وقد تكون ضرورة صحية أو اجتماعية أو اقتصادية أو نفسية .. ومن حيث المبدأ فالفتوى تختلف من بلد إلى بلد ومن عصر إلى عصر باختلاف الظروف .. والفتوى يجب أن تدور مع المصلحة .. والمصالح المرسلة أساس للإفتاء .. بعد الالتزام بالقرآن والسنة .. وأن باب الاجتهاد مفتوح منذ عصور الرسول ﷺ حتى اليوم .. ولكن فى أى شىء يكون الاجتهاد .. ؟ لا اجتهاد فى العقائد والعبادات أو فيما ثبت فى الدين بالضرورة .. الاجتهاد ليس فى الأصول ولكن فى الفروع .. فى الأمور الفرعية الاجتهاد سيظل مفتوحا .

* * *

وسأل مهران كريشنا من كبار المثقفين الهنود : أنتم من بلد عدم الانحياز ، وهذه الحركة لم تكن سياسة فقط ، بل كانت حركة ثقافية وكذلك حركة روحية ، وكانت قائمة على فلسفة خاصة فى رؤية العالم .. اختفى زعماء هذه الحركة .. واختفت يوغسلافيا وهى إحدى زوايا المثلث لها .. وأصبحت حركة عدم الانحياز فى خطر .. فقدت الأهداف .. هل تستطيع مصر والهند القيام بدور لإحياء هذه الحركة .. وماذا يستطيع الأزهر أن يقدم لذلك ؟

وأجاب شيخ الأزهر : لست سياسيا لأتحدث عن هذه الحركة من هذه الزاوية ولكنى أنظر إليها من راوية إسلامية فأقول : إنها تحقق خير الشعوب

وحريتها ، وبالتالى فإن الإسلام يؤيدها .. لأنها تقف فى وجه الظلم بكل ألوانه .. وتساند حقوق الشعوب المظلومة ..وتجمع الشعوب الصغيرة لتحقيق الخير لها ، والإسلام يؤيد هذا الاتجاه ويؤيد كل ما يحقق الحرية والمساواة والسعادة للبشر ويرفع عنهم الظلم والاستغلال بكل ألوانه .

وسأل سفير سابق : إن التعليم محرم على المرأة باسم الإسلام .. هل يفرق الإسلام بين الذكر والأنثى .. ؟

وأجاب شيخ الأزهر : إن شريعة الإسلام لا تفرق بين الذكر والأنثى فى التعليم والرسول يأمرنا « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » فالذين يمنعون تعليم الإناث باسم الإسلام مخطئون ، وحق العمل للمرأة والرجل ، والمرأة لها مكانة فى الإسلام لا تقل عن مكانة الرجل ، وفى التاريخ الإسلامى سيدات شاركن فى الحياة .. الشرط هو الالتزام بما أمر الله من أخلاق وسلوك المرأة ..

وسأل أستاذ من جامعة جواهر لال نهرو : كيف ينظر الإسلام إلى صراع الحضارات .. ؟

وأجاب شيخ الأزهر : هناك فرق بين الدين والحضارة ..الحضارة إطار واسع قد تشمل ديانات متعددة .. والدين أيضا قد يشمل حضارات متعددة .. الدين ثابت والحضارة متغيرة .. العلم يتقدم ويتغير ومبادئ الدين لا تتغير .. وكل حضارة تقوم على العدل والمساواة بين البشر ورفض الظلم والتخريب والفساد هى حضارة يقرها الإسلام .. ولذلك نرى أنه يمكن أن يكون هناك تعاون بين الحضارات القائمة على المبادئ الأخلاقية ولا يقوم بينها صراع ..

وقال كاهن بوذى جاء خصيصا للقاء شيخ الأزهر : إن فى الهند مسلمين كثيرين .. والمسلمون فى الهند يعارضون تعليم البنات ..

وعلق شيخ الأزهر : إن من يعارض تعليم البنات جاهل بتعاليم الإسلام ،

ونحن فى الأزهر لدينا معاهد أزهرية للبنات مثل معاهد البنين وكليات جامعة الأزهر فيها البنات والبنون .. ولدينا عشرات من السيدات يشغلن وظيفة أستاذ فى جامعة الأزهر فى مختلف التخصصات : فى الطب والصيدلة والهندسة والعلوم والتجارة والشريعة .. ولدينا سيدات كثيرات يشغلن منصب عميد كلية .فكيف يقال إن الإسلام يمنع تعليم الإناث ؟ .

وسأل أستاذ فى جامعة رحمانى : هل يسمح الإسلام بتغيير المجتمع بالقوة ؟

أجاب شيخ الأزهر : إن الإسلام يعطى الشعوب الحق فى استخدام القوة للتحرر من الاستعمار .. ويحارب استخدام القوة المتمثلة فى تخريب المجتمع والتطرف والقتل والرشوة .. فالذين يقتلون غيرهم باسم الشريعة الإسلامية هم قتلة .. وواجب علماء الإسلام أن ينشروا الفضائل وأولها فضيلة التسامح وعدم التعصب .. فكل الناس من أب واحد وأم واحدة .. ونحن فى مصر لا نفرق بين المصريين على أساس العقيدة الدينية ، والمبدأ عندنا أن كل من يحمل الجنسية المصرية هو مصرى له ما لغيره من حقوق وعليه ما على غيره من واجبات ..

أما العقائد فهى علاقة بين العبد وربه ، وكل إنسان له كامل الحرية فى أن يعتنق العقيدة التى يراها ويحاسبه الله على الخطأ والصواب فى الآخرة ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ لأن العقائد لا تباع ولا تشترى .. والإكراه فى الدين لا يولد مؤمنين ولكن يولد منافقين ، ومبدأ الإسلام (لا إكراه فى الدين) .

وسأل أستاذ فى جامعة كيرالا : هل هناك تعارض بين الدين والقومية ؟

وأجاب شيخ الأزهر : ليس هناك تعارض .. فالمسلم الهندى هو مسلم وهو هندى فى نفس الوقت .. والمسلم المصرى هو مسلم وهو مصرى فى نفس الوقت .. والإسلام يفرض عليه التزامات ، والانتماء الوطنى يفرض عليه

التزامات ، ولا تعارض بين الاثنين . وكذلك لا تعارض بين أخوة المسلمين في كل الأوطان ، وأخوة أبناء الوطن الواحد من مختلف الديانات .

وسأل أستاذ في الجامعة العربية : لماذا لا يقوم الأزهر بجهد خاص يليق بمكانته بعقد ندوة عالمية تجمع المفكرين من مختلف الاتجاهات ومختلف الدول ليبحثوا كيف يمكن تخفيف العدوان في العالم .. ؟

وأجاب شيخ الأزهر : هذه فكرة جديرة بالدراسة .. ونحن في الأزهر نعلم أبناءنا الاعتدال ورفض التطرف والعدوان « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » وواجب كل مثقف إن كان مثقفا حقيقة أن ينشر الفضائل الأخلاقية ويدعو إلى العدل والتسامح .. ولكن الناس في زماننا لا تنقصهم معرفة الحق ، لأن الحلال بيِّن والحرام بيِّن ، ولكن ينقصهم العمل .. ينقصهم أن يتجمعوا ويعملوا من أجل إحقاق وإبطال الباطل .. فنحن نحتاج إلى العمل ..

وقال راجموهان غاندى : نشكركم يا فضيلة الإمام الأكبر لأنكم أجبتم بوضوح عما لدينا من أسئلة ..

في اليوم الثالث زار الإمام الأكبر جامعة حمدار في منطقة قطب منارة على بعد عشرين كيلو مترا من نيودلهي ، وكان في استقباله راعي الجامعة ومؤسسها حكيم عبد الحميد وقد أنشأها بماله الخاص بكل ما فيها من كليات للطب والهندسة والتجارة والصيدلة ومساكن للطلبة وملاعب وحدائق ومطاعم ومكتبات .. ومازال — وهو في السبعين من عمره — يقدم لها الدعم العلمي والأدبي .. وقال الشيخ الجليل في كلمة طويلة للترحيب بشيخ الأزهر : إن الدكتور طنطاوي لا يحتاج إلى تعريف فهو شخصية مشهورة عالميا بعلمه وبآرائه المتفتحة ، ونحن نتابع مقالاته في الصحف ، ونعتز بتفسيره للقرآن الكريم ، ونشعر بالسعادة لما يعلنه من آراء ، فهو يقدم الإسلام للعالم في صورته الحقيقية النقية ، والدكتور محمد سيد طنطاوي مجاهد للدفاع عن

الإسلام ضد خصومه ، والأزهر له أثر كبير فى العالم المعاصر ، وقد قدم علماء خدموا الإنسانية على مر العصور ، وعندما نتطلع إلى فهم ومعرفة الإسلام فإننا نتطلع إلى الأزهر ..

هكذا كانت صورة الأزهر فى الهند ، وصورة شيخ الأزهر ..

وتحدث رئيس الجامعة فقال : إن هذه الجامعة تضم ضمن كلياتها كلية للدراسات الإسلامية واللغة العربية وفيها مخطوطات إسلامية نادرة .

وقال مؤسس الجامعة : إننا نرجو مساعدة الأزهر لهذه الجامعة .. وهذه الزيارة قصيرة جدا ولكنها زيارة تاريخية ..

ورد الإمام الأكبر بأن الأزهر على استعداد للتعاون .

ودار حوار حول احتياجات الجامعة .. وتفقد شيخ الأزهر الكليات والمكتبات والتقى بمجموعة من الأساتذة والدارسين .

* * *

واستقبل شيخ الأزهر بعد ذلك وزير الداخلية الهندى .. قال الوزير : إن الأزهر له مكانة كبيرة فى العالم وكذلك فى الهند .. وله تأثير كبير على المسلمين فى كل مكان وبخاصة فى الهند .. ولذلك فنحن نعتبر شيخ الأزهر زعيما روحيا عالميا .. ونحترم موقفه من رفض الإرهاب والعنف وفى نشر الفكر المعتدل ..

وأجاب شيخ الأزهر : عن دور الأزهر هو حماية الإسلام من أعدائه ومن المسلمين الجاهلين بحقائق دينهم .. والإرهاب لا يمكن أن يكون دعوة دين من الأديان .. والعقيدة الإسلامية السليمة ترفض الإرهاب والقتل والعنف ، ولابد أن تتكاتف الجهود لنشر الدين الصحيح ..

وقال الوزير : إن مصر لها فى الهند تقدير خاص ، وعبد الناصر شخصية لها احترامها عندنا ونقدر كفاحه ضد الاستعمار والدفاع عن حقوق

الشعوب .. ونقدر دور الرئيس مبارك فى السلام والتنمية .. وإن زيارتكم للهند مهمة جدا .. وتبادل الزيارات يوطد العلاقات بين البلدين ويقوى الجسور .. وفى الهند مظاهر تؤيد حقوق الفلسطينيين ، فالشعب فى الهند يعايش مشاكل العرب ويتعاطف معهم ، ونرى أن التعاون بين مصر والهند يجب أن يزداد فى كل الميادين .. ونحن سعداء لأن آراءكم تلقى احتراما كبيرا فى الهند .. ونرجو أن يزداد تعاون الأزهر مع الجامعات والمؤسسات الإسلامية فى الهند .

وأقام وزير الداخلية حفل غداء ضم أكثر من ٢٠٠ من كبار الشخصيات والقى فيه كلمة ترحيب استمرت عشرين دقيقة فيها حرارة مست القلوب ..

بعدها لقاء مع أعضاء السفارة المصرية فى الهند وإجابات عن أسئلتهم ..

ثم لقاء مع رئيس وأعضاء دار العلوم بجامعة ديوند .

ودار الحوار حول آراء شيخ الأزهر فى تعليم وعمل المرأة ، وتنظيم الأسرة ، والخلافات الفقهية ، والتشدد فى الفتوى والتضييق على الناس بجعل كل شىء حراما ، وعن موقفه من التعصب باسم الدفاع عن الشريعة ، والتزام الإسلام بملابس معينة ، وموقف الإسلام من التقدم العلمى والحضارى ..

وبعد ذلك لقاء مع رئيس المحكمة العليا السيد أحمد ، وفى هذا اللقاء طلب رئيس المحكمة العليا الاستعانة بآراء الأزهر فى قضايا فقهية وخلافية يحتاج فيها إلى الاستنارة بالأزهر وخاصة فى قضايا الأحوال الشخصية .. ورحب الإمام الأكبر بذلك واتفقا على تنظيم ذلك ..

* * *

وفى اليوم الرابع طار الإمام الأكبر إلى مدينة اجرا بطائرة خاصة وضعتها حكومة الهند تحت تصرفه لانتقالاته الداخلية ، والتقى فيها بعلماء المسلمين ،

وتصادف وجود مؤتمر يضم ٤٠٠ أمريكى طاروا إلى اجرا لدراسة الرياضة الروحية الهندية ، وحين علموا بوجود شيخ الأزهر فى الفندق طلبوا اللقاء به ورحب بذلك .. وكان لقاء فريدا .. والأسئلة عن موقف الإسلام من غير المسلمين هل يحاربهم أو يتعايش معهم .. وعن الحوار بين الأديان .. وعن رحلة شيخ الأزهر إلى أمريكا وإيطاليا ولقائه مع بابا روما ..

قال لهم الإمام الأكبر إن كل الأديان السماوية نزلت لسعادة البشرية وإقامة العدل ، ودين الإسلام قائم على عبادة الله وحده ، وكل مسلم لابد أن يشهد أن محمدا رسول الله ، وأن المسيح عيسى رسول الله ، وأن النبى موسى رسول الله ، لا نفرق بين أحد من رسله . ونحن نعترف بكل الأنبياء من إبراهيم حتى محمد دون تفرقة .. وكل فضيلة يؤيدها العقل السليم يؤيدها الإسلام .. الصدق .. الأمانة .. القول .. الرحمة .. الوفاء بالعهود .. السعى إلى ما فيه خير الغير .. ولكن الغرب غير منصف فى عرضه للإسلام .. هناك كُتاب ومفكرون غربيون أنصفوا الإسلام لأنهم فهموه فهما صحيحا .. ولكنهم قلة .. ولعل السبب أن بعض المسلمين يرتكبون الشرور والجرائم باسم الإسلام .. ولكن ذلك ليس غريبا على الغرب .. ففى الغرب مسيحيون ويهود يرتكبون جرائم وأعمالا سيئة .. ومع ذلك فنحن كمسلمين لا نحكم على كل المسيحيين بأعمال البعض .. ونحن نعرف أن كل جماعة من الناس فيهم العقلاء وفيهم السفهاء .. فلماذا تحكمون على الإسلام وتعممون الحكم على كل المسلمين بأفعال قلة قليلة منهم خارجة على العقل والأخلاق والقانون ولا تفهم الإسلام على حقيقته .. ؟

وقال لهم الإمام الأكبر : إن مشكلتنا عن الغرب أن بعض الباحثين يأخذون آراء بعض القدماء على أنها هى الإسلام .. ويأخذون من مصادر فرعية .. أو يحكمها الهوى .. أو معادية .. أو غير معتمدة .. نحن نطالب الغرب أن يأخذ الإسلام من مصادره الأصلية من الكتب المعتمدة وهى معروفة لمن يريد

أن يصل إليها .. ونحن مستعدون لتقديم العون فى ذلك ..وهل من المعقول أن يأخذ باحث غربى عن كتاب من تأليف شاب لم يحصل على تكوين إسلامى وعلمى صحيح .. وليست لديه دراية بالمراجع الأصلية .. أو الأفضل أن يرجع إلى الأزهر وهو المؤسسة المعبرة عن حقيقة الإسلام أو عن جامعة الأزهر وفيها خبرة علماء الشريعة ؟ هل من المعقول أن يأخذوا المفاهيم الإسلامية من المنحرفين الذين يقتلون ويعتدون ويفسدون باسم الإسلام ؟ كل ما نرجوه هو أن يكون الكتاب والباحثون الغربيون محايدين ومنصفين فى بحثهم وعرضهم ومناقشتهم للإسلام .. وأبواب الأزهر مفتوحة لكل من يريد أن يسأل .. وهذا رقم تليفونى ومستعد للإجابة عن أى سؤال ولو جاءنى من شخص واحد .. وإذا أراد الرد مكتوبا فنحن نقوم بذلك .. فقط نطلب الإنصاف والحياد وعدم التحيز ضد الإسلام وإلصاق تهم بالإسلام ليست فيه .

وبعد أن استمعوا إلى الاجابات سألوا : هل يمكنهم زيارة القاهرة للالتقاء بشيخ الأزهر ومعهم مجموعات أخرى ؟ ورحب بهم شيخ الأزهر .. وقال منظم الرحلة – وهو يهودى – إن هذا اللقاء ترك فى نفسه أثرا كبيرا .. وإنه يود أن تتاح الفرصة لأعداد كبيرة للاستماع إلى آراء شيخ الأزهر ليعرفوا الإسلام على حقيقته .. لأن صورة الإسلام مشوهة فى العالم بسبب جماعات الإرهاب ..

وفى الفجر كانت الطائرة الخاصة تحلق فى طريقها إلى حيدر آباد وكان فى وداع شيخ الأزهر حاكم الاقليم وكبار المسئولين وحشد من المسلمين ..

* * *

فى اليوم الخامس أدى فضيلة الإمام صلاة الجمعة فى مسجد مكة وهو أكبر مسجد فى حيدر آباد .

من المستحيل وصف الاستقبال ..

أكثر من مليون مسلم كانوا فى المسجد ..

استمعوا .. والتفوا حول الإمام الأكبر حتى أصبح مستحيلا رؤيته .. ولم تعد قوة الأمن قادرة حتى على الاقتراب منه ..

وكانت لحظات تدفع الدموع فى العيون ..

لم يكن على الخاطر إلا مبدأ الإسلام « إنما المؤمنون إخوة » ..

ولو أن هذا المشهد تم تصويره بالفيديو لما صدقه أحد ..

بعدها قام بزيارة للجامعة العثمانية وهى جامعة تدرس الشريعة والعلوم الإسلامية واللغة العربية وتمنح البكالوريوس والماجستير والدكتوراه . وكان المطلب الأساسى هو طلب مساعدات علمية من الأزهر وكتب وأساتذة .

واستقبل الإمام الأكبر حاكم الولاية وكان الحديث وديا والترحيب حارا .. وسأل الحاكم الإمام الأكبر عن لقائه مع المثقفين فى نيودلهى ، ونقل إليه شعور السعادة الذى ساد المدينة بعد حديثه فى مسجد مكة لجموع المسلمين ، وقال فى النهاية : ليتكم تزورون الهند كثيرا .. فهذا يفيد البلدين جدا ..

وبعدها استقبل رئيس وزراء الاقليم الذى يضم ٧٠ مليونا ، والمسلمون يمثلون ٤٠٪ من السكان .

بعد ذلك زار الإمام الأكبر الجامعة النظامية التى أعدت استقبالا ضخما ضم الآلاف من الأساتذة والطلبة وشيوخ المسلمين ..

واستمر الحوار ساعتين ..

كان الإرهاق باديا على الشيخ لكنه لم ينته من اللقاء إلا بعد أن أجاب عن كل سؤال ، ووقف إلى جانب كل من أراد أن يلتقط صورة معه للذكرى ..

وفى الفجر كانت الطائرة الخاصة تحلق فى الطريق إلى بومباى ، كان فى

الوداع حاكم الاقليم ووزير التعليم الذى رافق الشيخ فى كل تحركاته وهو مسلم .

فى اليوم السادس قابل الإمام الأكبر الدكتور رفيق زكريا وهو من الشخصيات المعروفة فى المدينة وكان وزيرا ، وزار مصر عام ١٩٧٥ وله مؤلفات للدفاع عن الإسلام .

وأقام حاكم الولاية حفل غداء كبيرا حشد فيه كل الشخصيات الكبيرة .

وأدى الإمام الأكبر صلاة العصر فى أكبر مساجد بومباى لأهل السنة وبعد ذلك زار طائفة البهرة الشيعية ، ثم لقاء مع محررى الصحف فى الولاية ، ثم لقاء مع طلبة وأساتذة جامعة مهارا شترا فى مومباى .

قال رئيس الجامعة : لا شك أن هذا اليوم سيسجل فى تاريخ الهند لأن زيارة شيخ الأزهر حدث مهم ننتظره منذ سنوات طويلة .. وهناك شيوخ عظام من الهند تعلموا فى الأزهر .. والأزهر هو صاحب الفضل الأكبر على علماء المسلمين فى العالم وفى الهند .. والمسلمون فى الهند وفى العالم كله ينظرون إلى الأزهر على أنه المرجعية العليا فى شئون الشريعة .. وإن الملايين من مسلمى الهند يرفعون رؤوسهم بالفخر لزيارتكم لهم .

وقال الإمام الأكبر فى الحشد الكبير : إن الله خلق الناس لعبادته ، والأنبياء رسالتهم أن يخرجوا الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، والإسلام هو دين العلم ، كما هو دين المساواة والاخاء بين البشر ، وهو دين السلام وهو اسم من أسماء الله ، وغير المسلمين لهم حقوق متساوية مع المسلمين ماداموا لا يعتدون على المسلمين (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) والشريعة الإسلامية تسوى بين الرجال والنساء فى أمور كثيرة لأنهم من أصل واحد ، والإسلام يسمح بالاجتهاد فى الأمور الفرعية التى لا تمس الأصول الثابتة ، والإسلام كعقيدة لا يتعارض مع الوطنية والقومية ، والخلافة ليست شرطا

من شروط الإسلام ، وللمسلمين أن يختاروا نظام الحكم الذى يرضيهم ويحقق لهم الأمن والعدل والحرية والمساواة والكرامة .. فالإسلام لا يحدد شكل الحكم ولكنه يحدد جوهر الحكم ..

* * *

إن زيارة شيخ الأزهر للهند حدث مهم لابد أن نتوقف عنده . لنفكر كيف يمكن أن يؤدى الأزهر رسالته خارج الحدود ، فى عالم يتشوق إلى معرفة الإسلام الصحيح ، ولابد أن ندرك أن زيارات شيخ الأزهر أكثر أهمية من زيارات المسئولين السياسيين .. والمسئولون السياسيون يتصلون بالمسئولين السياسيين فقط .. أما شيخ الأزهر فإن اتصاله وتأثيره يصل إلى الملايين ..

لقد أدركت من هذه الزيارة أن الأزهر قيمة كبيرة .. أكبر مما نتصور ..

وأن شيخ الأزهر ، الدكتور محمد سيد طنطاوى ، قيمة كبيرة يتمتع بالاحترام فى كل مكان .. وأفكاره موضع تقدير من كبار المثقفين .. وعامة الناس .. فى كل أنحاء العالم .. وإنه قيادة فكرية مؤثرة فى المسلمين وفى غير المسلمين أيضا ..

وهذا من فضل الله علينا .

فى ألمانيا

١ الوجه الآخر للإسلام

مظاهر الترحيب بفضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى فى ألمانيا فاقت الوصف ..

كانت زيارة تاريخية بمعنى الكلمة .

فهو أول شيخ للأزهر يزور ألمانيا .. وفى ألمانيا تقدير للإسلام لا تخطئه العيون .. ففى كل جامعة قسم للدراسات الإسلامية .. وأساتذة ألمان تخصصوا فى العلوم الإسلامية وترجمة التراث الإسلامى إلى اللغة الألمانية ، وعدد كبير منهم يجيد اللغة العربية حتى من الشباب .

وهو – فى نظر الألمان – الوجه الآخر للإسلام .. الوجه المضىء المشرق الذى يمكن للعالم أن يحترمه وأن يتعامل معه ..

وهو كما قالوا عنه ، صاحب مدرسة فى تجديد الفكر الإسلامى .. مدرسة تقوم على العقل ، وتؤمن بالتطور ، وتتسع دائرة الفهم والتفاهم عنده حتى تسع العالم كله .

لسنوات طويلة كان الوجه الأسود الكئيب للإسلام هو الذى يطل على ألمانيا .. الإرهاب .. والتعصب .. وضيق الأفق .. ورفض التقدم .. والجمود .. والعداء للآخر .. وكان هذا الوجه الكئيب يقدم نفسه على أنه هو الإسلام .. حتى ساد الظن بأنه فعلا هو المعبر الحقيقى عن جوهر الإسلام ..

ومنذ كان فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى مفتيا ، بدأ اهتمام الدوائر العلمية والجامعات الألمانية بتتبع أفكاره ورأوا فيه تجديدا لفكر الإمام محمد عبده ومدرسته بما يتلاءم مع القرن العشرين .. وبدأ عدد من المستشرقين وأساتذة الجامعات يزورونه ويناقشون معه الأسانيد الشرعية التى أصدر على أساسها الفتاوى التى أعادت « الاجتهاد » مرة أخرى ، بعد أن ساد فهم مغلوط لسنوات طويلة بأن باب الاجتهاد أغلق ولا يجوز فتحه أبدا إلى يوم القيامة ، فلا تبديل ولا تغيير لأقوال وأحكام الرجال الذين عاشوا فى عصور الإسلام الأولى مهما اختلفت الظروف .

وقبل أن تأتى هذه الزيارة كانت صورة الإسلام فى الغرب عموما قد وصلت إلى درجة الصفر ، أو كادت .. وأصيب الغربيون بنوع من الحساسية من الإسلام والمسلمين حتى تصور البعض أن الإسلام هو الخطر القادم على الغرب ، وبدأت تظهر صيحات التحذير من هذا الخطر الذى يهدد الحضارة والتقدم الإنسانى ..

وفى هذا الجو جاءت الدعوة الرسمية التى وجهتها الحكومة الألمانية إلى فضيلة الإمام الأكبر وأرادت بها أن تعكس أولا تقديرها للإسلام كدين ، وللأزهر كمؤسسة عريقة يزيد عمرها على ألف عام تمثل منارة للفكر الإسلامى المعتدل ، وأرادت بالإضافة إلى ذلك أن ترى هذا الرجل الذى يطرح على العالم رؤية جديدة مختلفة عن الرؤية الكئيبة السائدة .. رؤية يظهر فيها الإسلام دين للعدل .. والسلام .. والمساواة .. وقوة للبناء لا للهدم .. للحياة لا للقتل .. لاحترام الإنسان وليس لإهدار حقوقه .

وفى هذا الجو جاء الاهتمام الرسمى والأهلى .

الاستقبال كان على مستوى الرؤساء ..

والبرنامج الحافل كان يعكس الرغبة فى الاستفادة بكل دقيقة من أيام الزيارة فى الاستماع إلى الشيخ والتعرف على آرائه .. وكان تلبية لرغبة جهات وهيئات كثيرة أرادت أن تلتقى بالشيخ وتستمع إليه .

وكان اللقاء مع رئيس ألمانيا وديا .

فى برلين شملت لقاءات الإمام الأكبر لقاءات ودعوات مع رئيس الجمهورية الدكتور رومان هيرتسوج ، ورئيس برلمان ولاية برلين البروفيسور هازه ، وعمدة برلين رئيس حكومة الولاية السيد ديبجين ، ومحادثات مع المستشار السابق هيلموت شميت ، وفى بون شمل البرنامج لقاء مع وزير الخارجية الدكتور كلاوس كينكل وزيارة إلى أكاديمية الملك فهد ، وزيارة إلى المركز العلمى وجمعية الصداقة العربية الألمانية ، ومناقشات مع نخبة من العلماء والأساتذة والمفكرين فى بون ، ولقاءات صحفية وتلفزيونية ، وزيارة لمؤسسة كونراد اديناور .

وفى مدينة براونشفايج كانت حكومة ولاية سكسونيا السفلى قد أعدت برنامجا حافلا شمل زيارات ولقاءات فى مكتبة الدوق أوجست ، ومباحثات مع وزيرة العلوم والثقافة .

أما فى مدينة فولفينبول كان أهم مافى البرنامج اشتراك الإمام الأكبر فى ندوة رفيعة المستوى حول موضوع « أوروبا والعالم الإسلامى فى تحديات وأبعاد الجوار الصالح » وأشرف على هذه الندوة مفكر كبير هو البروفيسور فان ايس الأستاذ فى جامعة توبنجين . وناقش الإمام الأكبر الدكتور نيفونر حول موضوع التسامح عند المسلمين .

وفى فرانكفورت كان البرنامج المزدحم يشمل زيارة لمقر الرابطة

الإسلامية بالمدينة ، ومحادثات مع رئيس الرابطة السيد عثمان أوتزاى ، ومع الأمين العام للرابطة الدكتور راينر البيرت والمشرف العام السيد بكير البوجا .

وأدى الإمام الأكبر صلاة الجمعة فى مسجد السلطان سليم فى فرانكفورت والتقى مع جموع المسلمين ، كما التقى فى مقر رئاسة الكنيسة الإنجيلية مع الرئيس الكنسى العام البروفيسور شتاين أكر ، والتقى أيضا مع أعضاء حلقة الدراسات الإسلامية التابعة للكنيسة الإنجيلية فى هسن وناساو ، والتقى أخيرا مع ممثلى حلقة دراسية عن الإسلام يشترك فيها مجموعة متميزة من الدارسين الإنجيليين يشرف عليهم القس المصرى الأصل الذى يعيش فى المانيا منذ عشرين عاما الدكتور ثروت قادس وهو حاصل على الدكتوراه من أمريكا ومن المانيا فى الدراسات الإسلامية .

هكذا كان برنامج الإمام الأكبر .. مزدحمًا من الصباح إلى المساء .. ولم يتخلل البرنامج لحظات للراحة .. وازدادت المشاغل بالوفود التى كانت تأتى لزيارة الإمام الأكبر من المصريين والعرب والمسلمين والألمان ، ولم يكن هناك بد من اقتطاع دقائق للقائهم .

لم أكن أتصور أن زيارة شيخ الأزهر إلى ألمانيا يمكن أن تكون بكل هذا الاهتمام والنجاح .. ولو كان الأمر بيدى لطلبت من الإمام الأكبر أن يطوف بدول العالم ليقدم إليهم الصورة الحقيقية للإسلام قبل أن تستقر فى أذهان المفكرين ورجال الإعلام الصورة المشوهة عن الإسلام والتى تجعل العالم يتخوف منه .

هذه الزيارة اثبتت أن الغرب ليس عدوا للإسلام .. وكل ما فى الأمر أن الغرب ضحية الصورة المزيفة عن الاسلام التى قدمها الإرهاب بفكره وجرائمه ..

بل إن هذه الزيارة أثبتت أن الغرب يريد أن يعرف الاسلام على حقيقته .. ويسعد حين يرى أن الإسلام دين عقل وعدل وتقدم ويمكن التفاهم معه وفيه من الفضائل والمبادئ ما يستحق الدراسة والفهم ..

أثبتت هذه الزيارة أن المسلمين هم المخطئون فى حق أنفسهم ، لأنهم لم يقدموا دينهم إلى العالم كما يجب ، وأن رجلا واحدا فى مثل علم وثقل الدكتور محمد سيد طنطاوى يستطيع أن يكون سفيرا فوق العادة للإسلام وللعالم الإسلامى مبعوثا إلى العالم الغربى يشرح له ويوضح الحقائق بمنطق هادئ يخاطب العقول .. ويستند إلى الواقع وحقائقه .. ويفتح قلبه وعقله لفهم ما لدى الآخر والتفاعل معه ..

ولقد شاء حسن حظى أن أصحب الدكتور طنطاوى فى زياراته إلى الولايات المتحدة ، وباكستان ، والهند ، ثم ألمانيا ، لكى ألمس بنفسى أن المسلمين فى العالم يتطلعون إلى الأزهر باعتباره قلعة الأسلام الحصينة ، لكى يدافع عن الاسلام ويدفع عنه هجمات أعدائه الذين يشوهون نقاءه بادعاء أنهم أصحاب الحق فى التحدث باسمه .

وليس سهلا أن أنقل كل مادار من حوارات .. ولكن قد أستطيع أن أقدم فى سطور مختصرا لبعض هذه الحوارات ..

ففى الحوار مع السيدة بربارا يون المفوضة لشئون الأجانب فى ولاية برلين قالت: إنها كمسئولة عن الأجانب تجد صعوبة فى تقديم الخدمات للمسلمين .. أولا لأنهم يعيشون فى مناطق متباعدة ومتفرقة ، وينشئون مساجد صغيرة فى أحياء لا يسكنها مسلمون كثيرون ، ومع ذلك فهم حريصون على استخدام مكبرات الصوت بأصوات مرتفعة جدا للأذان واذاعة الصلوات ، والمجتمع الألمانى لم يتعود على الأصوات العالية ، وغير مسموح

بمكبرات الصوت لأى سبب ، واستخدام مكبر الصوت بهذه الصورة غير مجدٍ لأنه يصل إلى سكان الحى وهم غير مسلمين أكثر مما يصل إلى مسلمين .. ولذلك تحدث مشاكل ويتقدم السكان بشكاوى ، وتجد السلطات الالمانية حرجا لأنها ملزمة بتنفيذ القانون والنظام العام السائد فى البلاد ، ولا تريد فى نفس الوقت الاعتداء على حرية العبادة .. فهل لدى شيخ الازهر حل لهذه المشكلة .. ؟

وكانت البداية تعكس حساسية الالمان ورغبتهم فى عدم ايذاء مشاعر المسلمين ، وكان رد شيخ الازهر أن من حق غير المسلمين أن ينعموا بالهدوء الذى تكفله لهم قوانين البلاد ، ومن واجب المسلمين أن يرفعوا الأذان بصوت منخفض أو بدون مكبرات صوت .. لاسيما وأوقات الصلوات معروفة .. رفع الأذان واجب شرعا ولكن مكبرات الصوت ليست واجبة شرعا .. والواجب على المسلم ألا يجعل غير المسلم يتأذى من أدائه للشعائر لكيلا تكون موضع نفورهم ..

وكانت المشكلة الثانية هى أن المسلمين يريدون انشاء مآذن يزيد ارتفاعها على الارتفاعات المسموح بها .. وهناك أسباب أمنية تجعل السلطات الالمانية تمتنع عن التصريح ببناء هذه المآذن .. فهل ارتفاع المئذنة له كل هذه الاهمية فى الاسلام أو فى صحة الصلاة .. ؟

وكان السؤال غريبا ، ولكن هكذا يفكر بعض المسلمين فى المانيا ، ويجعلون الالمان يتساءلون : أهذا هو الإسلام .. ؟ وكان رد شيخ الازهر أن المسجد تؤدى فيه الصلوات سواء كانت له مئذنة أو كان بدون مئذنة ، والمسلمون يستطيعون أداء الصلوات سواء كانت هناك صلوات أو لم تكن .. والاسلام لا يُفهم بهذه الأمور الشكلية .. الاسلام دين قلوب .. مادامت

القلوب مؤمنة ومخلصة فى العبادة فهذا أهم من استخدام أصوات عالية أو رفع المآذن إلى أقصى ارتفاع .. المهم هو كيف يصلى المسلمون ؟ .. هل يحسنون الصلاة ؟ .. هل يقبلون على الله بقلوبهم أولا ؟ ..

وقالت السيدة بربارا جونز إن فى برلين ٢٢٠ الف مسلم ، أكثرهم من الاتراك ، ويليهم فى الكثرة المهاجرون من البوسنة ويبلغ عددهم ٢٠٠ الف مسلم ، وفى برلين مدرسة خاصة إسلامية تعلم أبناء المسلمين فى المراحل الابتدائية باللغة الالمانية وقد أثارت جدلا فى البداية لأنها كانت أول مدرسة إسلامية ولكنها بعد ذلك حصلت على ترخيص وأصبح من حقها الحصول على دعم من الدولة ، وفى برلين ٤٠ مسجدا صغيرا معظمها أقيمت فى مبان قديمة تم تجديدها ..

ولكن المسلمين فى برلين يثيرون قضايا خلافية تسبب التوتر مع السلطات ، من ذلك أن عملية الذبح فى المانيا تتم بعد تخدير الماشية ، ويقول المسلمون إن ذلك يجعل الذبح غير شرعى مع أنهم يذكرون اسم الله عليها حين يذبحونها .. فهل هذا حرام .. ؟

وقال شيخ الأزهر إن العبرة ليست فى التخدير أو فى وعى الماشية ساعة الذبح ... المهم أن يكون الذبح بقطع الرقبة وأن يسيل الدم من الذبيحة ووفقا للشروط التى قررها الفقهاء ولابد من ذكر اسم الله على الذبيحة .. ولا يهم أن يكون الذى يقوم بالذبح مسلما ، لأن طعام الذين أوتوا الكتاب حلال للمسلمين بنص القرآن .

مشكلة أخرى للمسلمين .. يريد المسلمون أن تكون لهم مدافن خاصة وهم يقومون بفتح المدافن ودفن موتى جدد فيها ، بينما القانون الألمانى يمنع إعادة فتح المدفن إلا بعد مرور عشرين عامًا على دفن شخص فيه ، وأغلب

الألمان يوصون بحرق جثثهم ، والكاثوليك يدفنون موتاهم فى مقابر لا تفتح إلا بعد عشرين عاما .. هل لذلك حل .. ؟

وقال شيخ الأزهر : ربما كان السبب فى هذا القانون الألمانى هو أن الدفن يتم والميت داخل تابوت من الخشب يشغل حيزا فى المقبرة ، ويؤجل تحلل الجثمان وتحوله إلى تراب ، ولكن الدفن عند المسلمين مختلف ولذلك يمكن إعادة النظر بالنسبة لهم لاختلاف طريقة الدفن .

وفى اللقاء مع رئيس البرلمان فى برلين البروفيسور هازه قال لشيخ الأزهر ، إننا نشعر بفخر لأنكم زرتم برلين ، ونحن نرحب بكم ترحيبا خاصا .. أولا لأننا نتابع آراءكم ومواقفكم ونحترم الدور الذى تقومون به لتحسين العلاقات بين المؤسسة الإسلامية الأم ودول العالم .. ولأن علاقاتنا الثقافية مع مصر علاقات وثيقة جدا ، ولقد زرتم اليوم أحد متاحف برلين ورأيتم اهتمامنا واحترامنا للتاريخ المصرى وللفن المصرى ومثل هذا المتحف هناك متاحف كثيرة تؤكد أن لمصر مكانة خاصة فى قلوبنا ، وهناك إلى جانب ذلك العديد من مجالات التبادل العلمى بين مصر وألمانيا ، وعدد أبناء برلين الذين يرغبون فى زيارة مصر يزدادون يوما بعد يوم ، والاهتمام بمصر فى معرض برلين السياحى المقام هذه الأيام فى برلين ويحضره وزير السياحة الدكتور ممدوح البلتاجى دليل على ذلك ، ونحن سعداء ونحن نستمع منكم شرحا عن الإسلام على أنه دين التسامح ، وبالطبع أنتم تتابعون الجدل القائم حول الصراعات المتوقعة فى القرن القادم وأحب أن أعرف رأيكم فى ذلك .

وقال شيخ الأزهر : أولا أنا أعرف ما يقال عن أن صراع الحضارات أمر لازم ، وأن الصراع القادم سيكون بين الغرب والإسلام ، وأعرف أن الذين

يقولون ذلك يتخذون الدليل من جرائم قتل وتخريب يرتكبها البعض باسم الإسلام ، وأنا أرى أولا أن الحضارات الإنسانية يمكن أن تتعاون وتتبادل المنافع ، فتأخذ كل حضارة ما لدى الحضارة الأخرى من أوجه التقدم ما ينفعها .. والحضارة الإسلامية قامت واستوعبت الكثير من الحضارات اليونانية والفارسية والهندية ، وأضافت وابتكرت ، وكان العلماء المسلمون هم الذين قامت عليهم الحضارة الغربية الحديثة .. بدأت الحضارة الغربية بنقل العلوم الإسلامية .. الطب والصيدلة والهندسة والعمارة والكيمياء وغيرها وغيرها .. وفنون العمارة .. وهكذا استفادت الحضارة الغربية من الحضارة الإسلامية .. ولعلكم تعلمون أن الفكر اليونانى لم يصل إلى الغرب عن طريق اليونان ، ولكن عن طريق المسلمين .. إذن فتعايش الحضارات ممكن .. والحوار بين الحضارات ممكن .. والإسلام ليس دين عدوان .. ولكنه دين تسامح وإخاء وتعاون وسلام ..

وقال شيخ الأزهر : إن هناك مشاعر تقدير من الشعب المصرى تجاه الشعب الألمانى ، ويعرف ذلك كل ألمانى يزور مصر ويتعامل مع المواطنين المصريين ويشعر بحبهم له حين يقول لهم أنا ألمانى .. ونحن لا نحمل عداء للأديان الأخرى ، بل نشعر أننا قريبون من كل المؤمنين بالله مهما اختلفت دياناتهم ، فكل الأنبياء أرسلهم الله للبشرية بدعوة واحدة هى أن يعبدوا الله .. ومن يعبد الله لا يكره عباد الله .. ونحن نعرف أن هناك حضارات متعددة ولكن الله أراد هذا التعدد لكى يتبادل الناس المنافع .. والأديان كلها تدعو إلى التعاون لا إلى الصراع ، وتدعو إلى البناء لا إلى الهدم ، وإلى الإصلاح وليس إلى الإفساد ، والتطورات الإنسانية لا تقف عند حد ، وكل ما نرجوه أن يكون التطور إلى الأفضل ومحكوما بالقيم الدينية وبالفضائل التى جاءت بها الأديان .. وهذا دور العقلاء .

وقال رئيس البرلمان : هذا فعلا دور العقلاء ، ولكن كيف نجعلهم يمارسون دورهم .. لحماية البشرية من جرائم المجرمين ؟ ..

وأجاب شيخ الأزهر : بأن يتجمعوا .. وإذا كان أهل الباطل يتجمعون ويتعاونون على الباطل فأولى بأهل الحق أن يتجمعوا ويتعاونوا على حماية مجتمعاتهم .

وقال رئيس البرلمان : أنا أرى البشرية مثل أسطورة سيزيف .. تتقدم خطوة ثم تتراجع ..

وأجاب شيخ الأزهر : أنا أرى أن البشرية إذا تراجعت خطوة فإنها تتقدم خطوتين .. والنتيجة أن الحياة الإنسانية تسير إلى الأفضل .

قال رئيس البرلمان : إننى أرى عدد الذين يترددون على الكنيسة يتناقص .. هل هذا تراجع عن الدين ؟

وأجابه شيخ الأزهر : الإيمان يحتاج إلى إقناع .. العقائد لا تباع ولا تشترى .. ولا يعتنقها الناس تحت الضغط أو الإكراه .. ولابد أن نقدم الدين للأجيال الجديدة بالصورة التى تتفق مع ما وصلت إليه عقولهم من تطور نتيجة تعاملهم مع علوم وأجهزة متطورة جدا .. والإسلام يقوم على مبدأ اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا فهو يجمع بين الايمان والعمل دون تعارض بينهما .. ولابد أن نعرف أن الجيل الذى نشأ على مبدأ اللذة ومبدأ المنفعة هو الذى ينصرف عن العبادة ولابد أن نغرس فى الأطفال القيم والفضائل فنوجد الجسور بينهم وبين الإيمان . وربما يكون السبب أن هذا الجيل رأى بعض من يتحدثون باسم الدين لا يمثلون القدوة أو النموذج فابتعدوا عن الدين ذاته .. وعندما يفهم الناس الدين فهما سليما لابد أن يرتبطوا به لأنهم سوف يكتشفون أنَّ حياتهم ستكون أفضل بهذا الارتباط ..

وقال رئيس البرلمان : دعوتكم لتجمع العقلاء لحماية الأديان أمامها صعوبة أننا قد لا نجد الكثير من العقلاء ..

وقال شيخ الأزهر : إن يكن عندنا ٢٠ من العقلاء فإنهم يغلبون ٢٠٠ من غير العقلاء .. المهم أن نبدأ فى محاربة الانحراف فى فهم الأديان .. ومحاربة استغلال الأديان فى الجرائم .. ومحاربة المساعى التى تهدف إلى تشويه الأديان لأغراض خبيثة ..

وقال رئيس البرلمان : هذا حوار ممتع .. ولم أكن أظن أننى سأجد رجل دين بهذا التفتح والأفق الواسع .. لقد ساعدتنا فى معرفة الكثير عن الإسلام ..

ولم يكن ذلك كل ما قاله شيخ الأزهر ..

٢ حوارات . . ومعارك !

كانت أيام زيارة الإمام الأكبر شيخ الأزهر إلى ألمانيا معارك متصلة .. معارك فكرية مثيرة .. فى جو من الترحيب الحار به وبأفكاره ، كانت موائد الحوار فى حقيقتها ساحات معارك ..

فقد سبقت فضيلة الأمام مجموعة من « الألغام » كانت فى انتظاره ..

قضية نصر أبو زيد .. وهل الأزهر ضد حرية الفكر ؟ وهل مصر دولة لايجد المفكرون فيها فرصة للحياة إلا بأن يقولوا مايريد الشيوخ أن يقولوه وإلا فإن تطليق زوجاتهم منهم هو العقاب الاول وإقامة حد الردة عليهم هو العقاب الأخير .. !

وقضية سلمان رشدى .. وهل القتل هو الأسلوب الوحيد الذى يستخدمه المسلمون للتعامل مع من يخالفهم فى الرأى .. ؟ !

وقضية جمود الفكر الإسلامى .. هل كل ما لدى الاسلام هو الشكليات .. اطلاق اللحية .. ولبس الجلباب .. ووضع مكبرات الصوت فى كل مكان تجلجل بالآذان وتحرم المرضى والمتعبين وغير المسلمين من حقهم فى الراحة .. وحق كل انسان فى الهدوء والراحة حق مقدس فى ألمانيا بالذات .. لأن كل من فيها يعمل ويتعب وليس من حق أحد أن يفسد عليه لحظات راحته ..

وقضية صراع الحضارات .. وهل صحيح أن الصراع القادم فى العالم هو الصراع بين حضارة الغرب والاسلام ولابد أن يقضى أحدهما على الآخر .. ؟ .

وهذه القضية بالذات كانت لها أهمية كبيرة .. كانت تبدو هى الشغل الشاغل للمفكرين والسياسيين ورجال الحكم .. وكان واضحا أنها مأخوذة مأخذ الجد فى أوربا كلها وفى أمريكا بالطبع .. وليس فى ألمانيا فقط .

وكانت هناك قضية أخرى أشد أهمية وخطرا .. هى موقف الاسلام من « الآخر » .. من أصحاب الديانات الأخرى والثقافات الأخرى .. هل هو موقف الرفض والعداء على طول الخط .. أو أنه يمكن قبول « الآخر » والتعاون معه ؟ !

وبصراحة أكبر كيف تسير العلاقة بين الاقباط والمسلمين فى مصر ؟ .. هل هى متجهة إلى العداء أو إلى التعاون ؟ . وكيف يمكن فهم أحداث القتل التى تحدث فى مصر .. ؟

* * *

قضايا شائكة أخرى كثيرة ..

وأسئلة صريحة ..

وكان فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى بهدوئه المعروف ، وابتسامته المتواضعة ، ومنطقه البسيط الواضح الذى يخاطب العقل بهدوء .. يقف صلبا فى ساحات المعارك .. و « مناضلا » عن الاسلام .. يقول فى كل مرة .. أرجوكم .. قولوا كل مالديكم .. نحن نعرف أن الاسلام يتعرض لحملة تشويه ولا أحب أن أقول إن هذه مؤامرة على الاسلام ، ولكنى أقول إن السبب فى هذه الحملة هو عدم وضوح مبادئ الاسلام ، وعدم وصول حقائق الاسلام إلى العقول الغربية .. والناس أعداء ماجهلوا ..

ومع كل ذلك لم يكن هناك « عداء » فى ألمانيا ..

كانت هناك مناقشات وحوارات محترمة .. ساخنة دائما .. وملتهبة

أحيانًا .. ولكنها كلها كانت تدور فى إطار الاحترام والرغبة فى معرفة الحقيقة ..

وفى ألمانيا – بالذات – مجموعة كبيرة من المستشرقين الدارسين للإسلام كدين وكحضارة .. بعضهم أحب الاسلام ويريد أن يفهمه أكثر .. وبعضهم درس الاسلام لكى يدس فيه ماليس منه .. ولا يتحدث إلا عما يثير مشاعر الغربيين .. فيختزل كل تعاليم ومبادئ وأحكام الاسلام فى حد الردة ليقول للغربيين إن الاسلام دين عنيف ودموى .. من أراد أن يخرج منه فإن القتل هو العقاب الوحيد الذى ينتظره ، ولذلك فإن من يبقى فى هذا الدين لا يبقى إلا خوفا مما ينتظره من عقاب ..

وهناك – بالطبع – من يربط بين الاسلام والارهاب .. ويقول إن وجود العنف فى الفكر الاسلامى ظاهرة قديمة .. واستخدام القتل وتكوين جماعات لقتل المعارضين والمختلفين فى الرأى أمر قديم له جذوره منذ البدايات .. منذ مقتل عثمان .. وجماعات الخوارج .. والحشاشين .. والباطنية .. وكأن هؤلاء فقط هم كل الاسلام ..

وكان شيخ الأزهر يخرج من كل لقاء ، بعد مواجهات صريحة جدا ، وقد اكتسب احترام الجميع ، وسلب المعارضين أسلحة المعارضة التى كانت فى أيديهم ، وأقنع كل من استمع إليه أن الاسلام دين لكل الانسانية وليس للعالم الاسلامى وحده .. وليس فيه ما يتصوره البعض من عنف هو جزء من تكوينه .. وليس دينا عدوانيا كما يروج الذين لا يعرفون حقيقته .. ولكنه سماحة .. وتعاون بين البشر .. وقبول لكل انسان مهما يكن لونه .. أو دينه .. أو لغته .. لأن أصل التفكير الاسلامى يبدأ من حقيقة مهمة هى أن البشر جميعا انحدروا من أب واحد وأم واحدة .. ومن هنا فإن وشائج القربى تربط البشر مهما اختلفت أوطانهم ولغاتهم ودياناتهم .. وأن الله سبحانه خلق الناس

مختلفين فى التكوين .. شعوبا مختلفة .. وقبائل وجماعات عرقية وروحية مختلفة .. لكى يستفيدوا من هذا الاختلاف والتنوع .. بأن يتعارفوا على ألوان متعددة من الفكر وأساليب الحياة .. وتزداد حياتهم ثراء .. ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ..

* * *

ومهما حاولت أن أصف شعورى وأنا أشارك الإمام الأكبر فى رحلته فلن أستطيع .. حقيقة كانت رحلة شاقة جدا .. كان تنظيم البرنامج على الطريقة الألمانية .. والألمان لا يعرفون إلا العمل الشاق .. يبدأ الإمام الأكبر يومه فى الصباح مبكرا ولا يدخل غرفة نومه فى الفندق إلا فى ساعة متأخرة من الليل .. وما نكاد نصل إلى مدينة .. ونفتح حقائبنا فى المساء .. حتى نغلق الحقائب فى الصباح ونتركها لتسبقنا إلى المطار ونقضى اليوم كله فى لقاءات وزيارات واجتماعات وحوارات .. حتى أن وزير الخارجية كلاوس كينكل صاح عندما تصفح البرنامج : ماهذا ؟ .. حرام عليكم .. من الذى أعد هذا البرنامج ؟ .. فكيف قبلت هذا البرنامج يافضيلة الإمام ؟ .. إنهم لم يتركوا لك حتى لحظات لكى تصلى .. هذا برنامج لا يتناسب معكَ .. وقد يناسب وزير خارجية وليس شيخ الأزهر ..كنت أريد أن أطلب منك أن تصلى من أجلى وتطلب من الله أن يساعد هذا المسكين وزير خارجية ألمانيا .. ولكنى أرى أنه ليس لديك وقت لتفعل ذلك ..

وابتسم الإمام الأكبر وقال له ببساطة : أبدا ياسيادة الوزير .. هذا برنامج طيب .. فهو يعطينى الفرصة لألتقى بأكبر عدد من المفكرين وقادة الرأى فى ألمانيا فى مختلف الاتجاهات والبلاد .. والحوار معهم متعة فكرية لأنهم أصحاب عقول راجحة وثقافة عميقة .. وأنا أجد وقتا للصلاة .. فالصلاة

عندنا يمكن أن نؤديها فى أى مكان وليس لها مكان معين .. ورحمة الله واسعة ولذلك أعطانا رخصة قصر الصلاة فى السفر ..

وهكذا ..

وأعتقد أن الافضل أن أقدم للقارئ تقريرا سريعا عن الرحلة لمن يحب أن يصحب معى فضيلة الإمام الأكبر فى جولته الألمانية ..

* * *

بدأت الرحلة فى برلين ..

وفى نفس الوقت كان الدكتور ممدوح بلتاجى وزير السياحة فى برلين يخوض معركة أخرى فى بورصة برلين السياحية ومعه وفد كبير من خبراء ورجال السياحة فى مصر .. وكانت أخبار نجاحهم تصل إلينا ساعة بساعة ..قالوا لنا إن الوفد السياحى المصرى كان أعلى الأصوات وكانت له مكانة متميزة .. وإنه عقد أكثر من ٤٠ لقاء رسميا ومهنيا واعلاميا ، وعقد مؤتمرين صحفيين عالميين ولقاء موسعا فى المتحف المصرى فى برلين ، وأقام ليلة مصرية يتحدث عنها كل من شارك فى هذا اللقاء الدولى ..

كان الحديث فى برلين عن مصر بالتقدير الكبير ..

أما فضيلة الإمام الأكبر فكان فى حوار طويل مع مجموعة من الألمان على رأسهم السيدة بربارا جون المسئولة عن شئون الأجانب فى برلين .

وفى اليوم التالى كان الحوار أوسع مع رئيس مجلس النواب فى برلين الدكتور هيرفيج هاسه ..

وقال رئيس مجلس النواب إن عدد الألمان الذين يرغبون فى زيارة مصر يزداد يوما بعد يوم ، وقد لاحظت أن رجال القانون الألمان بالذات لديهم رغبة قوية لزيارة مصر ويعودون منها باحترام كبير لمصر وللقضاء المصرى ..

وقال بعد ذلك إن نظرية صراع الحضارات تجد أنصارا كثيرين .. وإن العنف الذى ينتشر فى البلاد الاسلامية يصعب علينا فهمه وفهم دوافعه الحقيقية ..

وقال فضيلة الإمام الأكبر : إننى فى الحقيقة أحب أن أعبر عن التجاوب بين الشعبين المصرى والألمانى ، وهناك روابط ثقافية بين الشعبين ، يشعر بها الألمان دون شك حين يزورون مصر ويجدون الترحيب من الناس العاديين .. وأحب أن أؤكد فى البداية أن الاديان السماوية التى أنزلها الله تتفق فى أنها تدعو الناس إلى الفضائل وإلى القيم النبيلة ، وهدفها سعادة البشر وليس شقاءهم ، ولذلك فلا يعقل أن يكون هناك دين يدعو إلى العنف أو القتل أو يدعو إلى ارتكاب الرذائل .. وجميع الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى عباده أرسلهم بدعوة واحدة هى أن يعبدوا الله ، ولذلك فهناك عوامل مشتركة كثيرة بين الأديان والحضارات .. والعقلاء هم الذين ينظرون إلى الحضارات على أنها مجالات للتعاون وليست مجالات للصراع .. كل حضارة تستطيع أن تأخذ من الحضارات الأخرى ما ينفعها .. ونحن نعرف – على سبيل المثال – أن الحضارة الغربية – وألمانيا بالذات – متقدمة فى العلوم الحديثة والصناعات الدقيقة ، ولذلك نرسل أبناءنا ليتعلموا منها ، ونرحب بكل من يأتى إلينا ليتعلموا جانبا من حضارتنا وثقافتنا .. فالحضارات بذلك تتعانق وتتفاعل .. ولا تتصارع أو تتنافر ..

وقال رئيس مجلس النواب : أن الذين يترددون على الكنائس يتناقص عددهم ..

فهل نعود إلى التبشير من جديد بأهمية الدين .. ؟

وأجابه شيخ الأزهر : قد يكون هناك إعجاب بالجانب المادى من الحضارة وقد يرى البعض أن الأديان لم تعد صالحة لهذا العصر .. وهذه المسألة تحتاج إلى تفاهم وإقناع ، لأن العقائد لا تباع ولا تشترى .. والإيمان لا يتحقق

بالضغط أو الإكراه .. والأجدى من الضغط أن يقتنع هؤلاء أن الإيمان ليس نقيضا للعلم .. وأن الأديان ليست ضد التقدم العلمى والحضارى .. وأن التمسك بالقيم الدينية يفيد الإنسان الفرد ويفيد المجتمع ككل ويفيد العالم كله .. لأن الحياة القائمة على الإيمان والقيم الأخلاقية السليمة المستمدة من الشرائع السماوية هى الحياة التى تليق بالإنسان .. من المهم جدا أن نوضح للناس أن الأديان ليست قوة رجعية أو دعوة للجمود أو التخلف .. الأديان دعوة إلى التقدم والبناء والإضافة إلى العلم والمعرفة .. والإسلام يقوم على مبدأ « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا » ..

وفى القرآن عشرات الآيات التى تدعو المؤمنين إلى العلم والتفكير والعمل لتعمير الأرض والإصلاح بين الناس والتعاون فيما بينهم على البر والتقوى وليس على الإثم والعدوان ..الإسلام يدعو الناس إلى أن يجمعوا بين العمل للدنيا والعمل للآخرة ومراقبة الله فى كل ما يعملون .. المشكلة أن رجال الدين أحيانا لا يقومون بواجبهم كما ينبغى ليشرحوا للناس بأساليب مقنعة أن الدين فى حقيقته قوة للتقدم ، والرقى ، والعمل فى الدنيا بكل جدية ، وإتقان العمل ، والبعد عن الظلم ، والتخريب ، والإفساد فى الأرض ، والإرهاب بكل صوره .. وعندما يفهم الشباب الدين فهما سليما ستصل الإنسانية إلى التعاون ، والسلام ، والتقدم القائم على القيم .. وسعادة الإنسان لا يمكن أن تتحقق بالابتعاد عن الله ولكن ستتحقق بالاقتراب من الله والحياة معه وفقا لتعاليم الدين ..

وقال رئيس مجلس النواب : إن دراستى فى العلوم السياسية وليست فى الأديان ، وعندما أتحدث عن الإسلام السياسى نصطدم بالوسائل التى يتبعها الراغبون فى التغيير وهى العنف والإرهاب ، ونجد صعوبة فى إقناع الآخرين بأن الإسلام ليس له علاقة بالعنف ..

وقال الإمام الأكبر : فى المنطقة التى نعيش فيها نشأت الديانات السماوية الثلاث .. وهى موجودة إلى اليوم .. وهذه الديانات تدعو إلى عبادة إله واحد .. الله واحد مهما اختلفت الديانات .. وليس هناك إله لأهل كل دين .. والله الواحد الأحد لا يأمر البشر بالصراع أو القتل .. وما فى منطقة الشرق الأوسط من عدوان على حقوق الآخرين .. وما فيه من ظلم وعنف وقسوة ليس وليد الأديان .. ولكنه تعبير عن الخروج على الأديان وتجاهل الوصايا التى أرسلها الله إلى البشر عن طريق الرسل .. كل دين من عند الله هو دعوة للسلام .. المشكلة تأتى من توظيف الدين لتحقيق أهداف سياسية تتعارض مع قيم ومبادئ الدين ذاته .. ولذلك أنا أدعو العقلاء دائما إلى أن يتجمعوا من كل الديانات وكل الدول .. ويلتقوا على كلمة واحدة لتحقيق السلام ونشر الفضائل والدفاع عن المظلوم ورد الظالم وإعادة الحقوق إلى أصحابها .. أنا أدعو العقلاء جميعا إلى التجمع سواء كانوا يعملون فى الدين أو السياسة أو الثقافة أو العلوم ..

وقال رئيس مجلس النواب وهو يبتسم بعد ساعات من الحوار شارك فيه كل الحاضرين : أنا شاكر للإمام الأكبر هذا التوضيح المقنع .. ومقدر له أنه مازال يؤمن بالعقل الإنسانى .. وإن كنت أرى أن دور العقلا ينحسر والعقلاء يقل عددهم يوما بعد يوم ..

وكانت كلمة الختام لفضيلة الإمام الأكبر : مهما قل عدد العقلاء فإن تجمعهم يجعلهم أكبر أثرا .. وإذا تجمع عشرون من العقلاء فإنهم يتغلبون على مائتين من الحمقى ..

وانتهى اللقاء بمشاعر فياضة من التقدير لرجل الدين القادم من مصر بلغة لم يسمع مثلها الألمان من قبل كما قال رئيس مجلس النواب ..

* * *

وكان اللقاء الثانى مع عمدة برلين ايبرهارد ديبجن وهو صاحب تاريخ سياسى طويل وانتخب عمدة لبرلين ثلاث مرات .. ويعتبر من الشخصيات المهمة خاصة وأنه يحكم برلين التى ستكون عاصمة ألمانيا الموحدة مع بداية عام ٢٠٠٠ وهو الذى يشرف على أكبر حركة بناء فى العالم لتشييد المبانى الجديدة للوزارات الاتحادية التى ستنقل من بون وتعود إلى برلين من جديد ..

وقال عمدة برلين : أرحب بك يا صاحب الفضيلة فى برلين .. ونحن نعرف الكثير من مواقفك التى تدل على التسامح واتساع الأفق .. والحقيقة أنا أعتبر نفسى عمدة لواحدة من أكبر المدن التركية الإسلامية .. لأن الأتراك المسلمين فى برلين غالبية .. ولدينا أيضا عدد كبير من المصريين .. ويهمنا أن يكون التعايش سلميا بين أصحاب الديانات والثقافات المختلفة ..

وأجاب شيخ الأزهر : الطبيعى أن يكون التعايش سلميا بين أصحاب الديانات المختلفة ، لأن هناك روابط تجمعهم .. فهم جميعا يؤمنون بإله واحد .. وهم جميعا متفقون فى الفضائل الأخلاقية التى تدعو إليها الأديان .. وإذا كان هناك اختلاف بعد ذلك فى العقائد فلا يصح أن يكون ذلك سببا للصراع أو العداء .. لأن الأديان جميعا تدعو إلى اعتناق الفضائل بما فيها محبة الآخرين .. واجتناب الرذائل بما فيها الكراهية للآخرين .. والأديان جميعها تدعو إلى السلام والتعاون بين الناس وتحذر اتباعها من الظلم والقتل والإرهاب .. الأديان جميعها تدعو إلى الاصلاح وليس هناك دين يدعو إلى الإفساد .. والأديان كلها تدعو إلى البناء والتعمير وليس هناك دين يدعو إلى التخريب وليس هناك دين من عند الله يدعو الإنسان إلى كراهية الإنسان ..

وإذا نظرت إلى ما يحدث فى مصر - مثلا - فسترى أن هناك جرائم تنسب إلى الأديان .. وهى جرائم لا تختلف عن الجرائم التى ترتكب فى غير مصر .. وأنا كمتخصص فى دراسة الأديان أقول إن الأديان كلها بريئة من

كل دعوة إلى العنف أو الإرهاب أو القتل أو التخريب .. ولذلك عندما سافرت إلى الولايات المتحدة والتقيت بالمسلمين والمسيحيين هناك وقابلت بعض المسئولين قلت : إذا حدثت جريمة انسبوا الجريمة إلى مرتكبها ولا تنسبوها إلى الدين حتى لو حاول المجرم أن يفعل ذلك .. لأننا نعرف الحقيقة وهى أنه ليس هناك دين يدعو المؤمنين به إلى ارتكاب الجرائم .. هناك مجرمون بالطبع فى كل مكان .. منهم مسلمون ومنهم مسيحيون ومنهم يهود .. ولكنهم ليسوا مجرمين لأن جرائمهم استجابة لدعوة أو لمبادئ أديانهم .. ولكنهم خارجون على الأديان السماوية وخارجون على القانون الوضعى .

ونحن فى مصر ٦٠ مليونا ، بيننا ١٠٪ من المسيحيين ، نعيش معا منذ ١٤٠٠ عام أخوة متحابين .. نسكن فى مساكن متجاورة .. ليس فى مصر مدن أو أحياء أو مستوطنات لأصحاب ديانة بعينها .. البيت الواحد يسكن فيه المسلمون والمسيحيون .. والشركة أو المحل قد يملكه أكثر من واحد منهم المسلم والمسيحى .. والكل يجند فى الجيش ويشارك فى الحروب ، وكل من يحمل الجنسية المصرية هو مصرى والكل متساوون فى الحقوق والواجبات .. أما اختلاف العقائد فهذا ما أراده الله .. ولو شاء الله ان يوحد العقائد فى عقيدة واحدة فلن يعجزه ذلك .. ولو شاء أن يجعل الناس على الأرض أمة واحدة لفعل .. ولكن التعدد هو إرادة الله .. ولكل إنسان أن يعتنق العقيدة التى يؤمن بها والمبدأ فى الإسلام « لا إكراه فى الدين » .. والسبب فى ذلك أن الإكراه لا يولد مؤمنين .. إذا اضطررت إنسانا على اعتناق عقيدة لا يؤمن بها من قلبه فسوف يظهر الإيمان ويبطن الكفر ويكون منافقا .. الإكراه يولد منافقين ولا يولد مؤمنين .. ومادام غير المسلم لا يسيء إلى عقيدة المسلم فإن التعاون والمحبة هما الإطار الإسلامى الذى شرعه الله للعلاقة بينهما .. سواء فى بلد إسلامى أو فى بلد غير إسلامى ..

وقال العمدة : ولكننا نرى فى تاريخ كل الأديان مراحل من العنف .. وفى عالم اليوم الكثير من التعصب ولذلك فإننا نحتاج إلى رجل الدين الذى يساعدنا على نشر التسامح ويساعد الناس المختلفين فى العقائد على أن يتعايشوا معا ويقبلوا الحياة المشتركة ..

ونحن فى برلين نشعر أن عام ٢٠٠٠ له أهمية أكبر مما يشعر بها العالم .. لأن برلين ستصبح عاصمة ألمانيا .. ونريد أن تكون برلين نموذجا لروح التعاون بين أصحاب الديانات المختلفة ، ولذلك أطلب من مراكز البحوث والجامعات فى برلين أن تزيد جهودها للتقريب بين أصحاب الديانات المختلفة وتبادل المعرفة بينهم .. وفى برلين معهد علمى يعد لتنظيم حلقة نقاش مهمة حول آفاق التفاهم والتعاون بين الأديان .. وفى الجامعات لدينا أقسام لدراسة العلوم الإسلامية ..كما أن فيها أقساما لدراسة المسيحية واليهودية أيضا . وأعتقد أن فهم الأديان فهما صحيحا يساعدنا على تفادى التأثيرات السلبية والإرهاب الذى يهدد الحضارة باسم الدين . وأنا أشارككم فى أن الإرهاب ليس تعبيرا عن روح أى دين من الديانات ولكنه تعبير عن استخدام الدين استخداما ضد مبادئه وأهدافه الحقيقية .. وعندما أنظر إلى مدينة القدس ولها أهمية بالغة للديانات الثلاث فإننى أرجو أن تخلو من التطرف الدينى ومن الإرهاب باسم الدين .. وأرجو يا فضيلة الإمام الأكبر أن تأخذ معك من برلين فكرة مهمة .. هى أننا مهتمون بالسلام فى الشرق الأوسط كما أننا مهتمون بتحقيق السلام فى بلادنا .. ففى ألمانيا لدينا مشكلة هى أن الجزء الشرقى عاش فى ظل الحكم الشيوعى وكانت التربية الشيوعية تغرس فى الألمان المادية والإلحاد ونحتاج إلى مجهود كبير لإعادة غرس القيم الدينية فى هذا الجيل .

وقال الإمام الأكبر : طبعا نحن نقدر هذه المسألة ولكن هكذا شأن الحياة دائما .. لابد أن تكون هناك صعوبات ومشاكل .. ولابد أن يدخل العقلاء

فى صراع مع الحمقى .. ويدخل الحق صراعا مع الباطل .. وأعتقد أنكم لن تجدوا صعوبة كبيرة فى إعادة الناس إلى الإيمان .. لأن الإيمان بالله فطرة فى الإنسان .. والذى أرجوه أن تتضح حقيقة الأديان وأولها الإسلام كدعوة للسلام .. وللتعاون بين الناس .. وأن الأديان بريئة من الجرائم التى تنسب إليها .. الإسلام برىء من التعصب والعنصرية والإرهاب .. برىء من الظلم والعدوان على الآمنين .. وبالنسبة للقدس فإن لها أهمية كبيرة للمسلمين ..فهى المكان الذى أسرى فيه الله بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم .. وفيها أول قبلة اتجه إليها المسلمون للصلاة .. وهى مدينة مقدسة للمسلمين كما هى مقدسة للمسيحيين ولليهود .. ومن الممكن إذا حكَّمنا العقل أن نجعلها مفتوحة لكل أصحاب الديانات وليست تحت حكم أصحاب دين واحد .. ولعلكم تذكرون أن القدس كلها عربية منذ آلاف السنين وأن نصفها ظل عربيا إلى وقت احتلالها فى عام ٦٧ ..

وختم الإمام الأكبر حديثه إلى عمدة برلين بقوله : إذا كانت هناك دعوة للحوار بين الأديان بقصد البحث عن القاسم المشترك بينها وبهدف إيجاد جسور للتفاهم والتعاون بينها فنحن نرحب بالاشتراك فيه باسم الأزهر .. لأن الحوار النزيه يؤدى إلى الفهم السليم ..

وأجاب العمدة : أشكرك جدا .. وسأضيف ذلك إلى تخطيط الندوة الدولية التى نعدها ..

* * *

اتجهت السيارة بالإمام الأكبر إلى مطار عسكرى ملاصق لمطار برلين .. فى إحدى القاعات كان ينتظر هيلموت شميت المستشار الألمانى السابق الذى جاء بطائرة خاصة لهذا اللقاء ..

.كان هيلموت شميت واقفا فى انتظار الإمام الأكبر وهو مبتسم ابتسامة عريضة بادى الحيوية رغم إنه من مواليد عام ١٩١٨ .. وكان الرجل صاحب التاريخ العريض فى العمل السياسى كعضو فى البرلمان (البوندستاج) ووزير ثم كمستشار له دور كبير فيما حققته ألمانيا من تقدم اقتصادى ، ثم كمفكر وكاتب .. فهو الآن يكتب بانتظام فى مجلة سياسية أسبوعية منذ عام ١٩٨٣ ، وله عدة مؤلفات فى الدراسات الاستراتيجية ..

بدأ شميت حديثه بدعابة ..

قال : يا فضيلة الإمام الأكبر أنا عمرى ٧٨ سنة ، ولكن أذنى عمرها ٨٨ سنة ولذلك أرجو أن ترفع صوتك بقدر ما تستطيع لأنى أريد أن أسمعك .

وقال له فضيلة الإمام الأكبر : لعلك تذكر أننا التقينا فى القاهرة فى العام الماضى ، على الباخرة فرعون ، بعد منحك وسام الجمهورية من الرئيس حسنى مبارك فى احتفالات المولد النبوى الشريف .

وهز شميت رأسه وقال : نعم .. نعم أذكر .. وكان لقاؤنا على أفكار كثيرة .. وأنا دائما أجد أصدقاء فى مصر .. تربطنى صداقة بالرئيس مبارك ، وقد التقيت به مرات كثيرة منذ كان نائبا للرئيس وأنا متأثر جدًا بشخصية أنور السادات وسمعت منه الكثير عن الأديان الثلاثة .. وقد حاولت اجراء حوارات مع رجال دين من المسيحية واليهودية والإسلام فعرفت ان نظراته كانت صحيحة .. فيما عدا شىء واحد .. السادات كان يرى أن اليهودية اخذت فكرة وحدانية الله من امينوفيس الرابع ولم أجد إثباتا لذلك فى كتب التاريخ لأنه ليس هناك دليل تاريخى على أن اليهود كانوا فى مصر ، في التوراة أن اليهود كانوا فى مصر ، ولكن التاريخ الفرعونى لم يسجل وجودهم .. والسادات كان يرى أن الأديان الثلاثة تنتسب إلى النبى إبراهيم ، ولذلك كان يرى أن هناك قاسما مشتركا بين الأديان الثلاثة يجعل المؤمنين بها قادرين على

التعايش معا ، وقبل قيامه برحلته التاريخية إلى القدس تحدث إلى كثيرا عن هذه الأفكار التى كانت تشغل تفكيره ..

وقال له الإمام الأكبر : إن الرئيس السادات له كل الاحترام فى مصر ، وهو من الزعماء الذين سبقوا زمانهم ..

قال شميت مقاطعا : نعم .. نعم .. السادات سبق زمانه ..

وأكمل الإمام الأكبر : وفكرته عن تعايش الأديان هى تعبير عن روح الإسلام .. فليس هناك ما يمنع من ذلك من الناحية الدينية أو العقلية .. وفى مبادئ الإسلام أن اختلاف الديانات ليس سببا للعداوة بين البشر ، وغير المسلمين الذين يعيشون معنا فى مصر يأمرنا الإسلام أن يكونوا مثلنا تماما لهم مالنا وعليهم ما علينا .. والمسلمون الذين يعيشون فى بلاد غير مسلمة لابد أن يتبعوا قوانين ونظم هذه البلاد ويتعاونوا مع أهلها .. مادام لا يعتدى علينا أحد فنحن لا نعادى احدا .. ولا نعتدى على أحد .. لأن الله لايحب المعتدين . أما الذين يحاربوننا أو يعتدون علينا أو على أموالنا أو أعراضنا أو أرضنا فإن العقول قبل الأديان تأمرنا أن ندافع عن أنفسنا .. المبدأ فى الإسلام أن اتفاق واختلاف العقائد شيء ، وتعاون البشر وتبادل المنافع فيما بينهم شيء آخر . ونحن نرى محاولات للإساءة إلى الإسلام وتشويه صورته ، ونريد أن نوضح حقيقة الإسلام .. فهو دين سماحة وسلام وعدل .. وضد التعصب والإرهاب والظلم .. واليهودية أيضا دين يرفض الإرهاب والظلم .. ولذلك نقول إن اليهود الذين يطالبون باغتصاب أرض غيرهم وينكرون الحق والعدل هم بعيدون عن حقيقة الدين اليهودى .. لأنه ليس هناك دين من عند الله يدعو اتباعه إلى الظلم والاعتداء على الآخرين واغتصاب حقوقهم .. نقول بوضوح الأديان الثلاثة جاءت بالمحبة ونشر السلام ..

وقال هيلموت شميت وهو يهز رأسه : صدقت .. الأديان الثلاثة فيها قاعدة واحدة مشتركة هى : أن يتصرف الإنسان تجاه جاره كما يريد من جاره أن يتصرف معه . ولكن هناك خطر كبير يأتى من المتطرفين .. بل نستطيع أن نقول من الإرهابيين فى الأديان .. فى المسيحية نذكر الحروب الصليبية .. فى اليهودية نذكر جماعات الإرهاب .. وفى المسلمين نذكر الشيعة .. وما يقلقنى الآن هو كتاب نشره المفكر الأمريكى صمويل هانتنجتون موضوعه صراع الحضارات وانتشرت الفكرة فى العالم ، وهو يقول للأمريكيين إن الصراع بين الغرب والإسلام أمر لا مفر منه .. هذه الفكرة بذرة غرسها هانتنجتون فى أرض خصبة لأن الأمريكيين منذ وقت طويل يساندون إسرائيل ، لذلك فإننى أتمنى لو صدر من جانبكم ياصاحب الفضيلة ردا على هانتنجتون فهذا الرد سيكون له تأثيره الكبير .. لأن خطورة الفكرة أكبر مما نظن .. خاصة وإن هناك ظاهرة أخرى ليست واضحة الآن لكنها ستضح فيما بعد ، هى الصراع على مراكز القوة الذى بدأ بين الصين وإيران وباكستان ودول الاتحاد السوفيتى السابق مثل تركستان واوزبكستان والدول التى فيها شعوب مسلمة ، وفى الصين منطقة سنجان وهى منطقة المسلمين فى الصين .. ولأول مرة تطالعنا حوادث إرهابية يقوم بها سكان منطقة غرب الصين المسلمون ، لذلك أعتقد أنه من المهم جدا أن يكون معلوما ومعلنا رأى الأزهر ..

وقال فضيلة الإمام الأكبر : إن ما قاله هانتنجتون عن الصراع المحتوم بين الغرب والإسلام ليس قائما على أساس علمى ، أو منطقى ، أو تاريخى ، وعند العقلاء أن الحضارات المختلفة لا تتصارع ولكنها تتعاون ويأخذ بعضها من بعض ، كل حضارة تأخذ من الأخرى ماينفعها ، والحضارات ملك للبشرية كلها .. ولا أعرف ما المقصود بالحضارات .. هل هى المقومات المادية من صناعة وعلوم ؟ .. وماذا يمنع من أن تأخذ الحضارات من بعضها هذه العلوم

والصناعات .. أو أن المقصود هو الديانات ؟ .. وهل يرى حتمية الصراع بين المسيحية والإسلام مثلا ؟ .. أقول له أنت مخطىء .. مخطىء .. لأنه ليس هناك أسباب تدعو إلى هذا الصراع وتجعله محتوما .. فكل دين هو دعوة للإيمان بالله .. والله واحد .. الله الذى يعبده اليهود هو الله الذى يعبده المسيحيون وهو الله الذى يعبده المسلمون .. وهل يعقل أن يكون لكل أصحاب ديانة إله مختلف عن إله الآخرين .. هو لهم وحدهم ؟ ! ..

ثم هل هناك دين جاء من عند الله ليدعو أصحابه إلى التخريب والعنف والقتل .. أو أن الأديان كلها جاءت بالدعوة إلى المحبة بين الناس وبالسلام للجميع وبالتعاون على البر والتقوى وليس على الاثم والعدوان ؟ .. هل هناك دين يدعو للافساد فى الأرض ؟ ..

* * *

وقال شميت : أوافق تماما على ما تقول ، ولقد دعوت إلى مؤتمرين حضرهما علماء من المسلمين ورجال دين من البروتستانت والكاثوليك وأحبار من اليهود ورهبان من البوذية وحضره أيضا من الصين من يعتنقون الديانة الكونفوشية ، وكان المؤتمر الأول منذ عشر سنوات ، والثانى عقد فى العام الماضى ، وتكشف فى المؤتمرين أن هناك اتفاقا تاما بين كل هذه الديانات على المبادئ الاخلاقية . وسوف أدير مؤتمرا مشابها فى فيينا عاصمة النمسا لتوسيع رقعة المبادئ الاخلاقية التى تلتقى عليها الأديان ، ولكى تقوم المجتمعات والدول على أسس أخلاقية ولا تكون الاخلاق للأفراد فقط .. لقد اختفى من وعى الناس ما كان يحدث فى تبادل الفكر والتعاون بين علماء المسلمين والمسيحيين واليهود فى الأندلس .. فى طليطلة وغرناطة قبل أن يستولى عليها الأسبان .. وأهل الغرب غاب عن وعيهم أن فكر افلاطون وأرسطو وغيرهما

من فلاسفة اليونان جاء إلى الغرب عن طريق الفلاسفة المسلمين وليس عن طريق اليونان .. وهذا شيء لا نتعلمه فى المدارس .. وأنا أساند بكل قواى ما تطمحون إليه من حوار بين قادة الأديان ..

وقال الإمام الأكبر : هذا الحوار لصالح البشرية .. وأريد أن أفرق بين أنواع من الحوار .. إذا كان الحوار موضوعه العقائد ليبين كل واحد أن دينه صواب ودين غيره خطأ فسيكون الحوار فاشلا .. أقول ذلك وأنا واثق أن حجج الإسلام واضحة وقوية .. لكن ذلك لن يفيد البشرية .. وإذا قام الحوار على أن الأديان السماوية كلها من عند الله ، وأنها تدعو إلى الفضائل الأخلاقية ، وإلى الإخاء الإنسانى ، وتدعو إلى العدل وإلى نصرة المظلوم .. إذا قام الحوار على هذه المحاور فسنجد أن التعاون والاتفاق سهل ، وسنرى أن الحضارات يمكن أن تتعاون لا أن تتصارع .. فالعقائد ليست موضوع حوار .. العقائد يقين مستقر فى الضمائر والقلوب .. العقائد لا تباع ولا تشترى والذى يحاسب عليها هو الله تعالى .. ومادمت أنت لا تسىء إلى عقيدتى فأنا ملزم بألا أسىء إلى عقيدتك .. ولا يفيد الإكراه فى الدين ، لأن اعتناق الدين بالاكراه يعنى أن يكون الناس منافقين وليسوا مؤمنين ..

وقال شميت : هناك نقطة أخرى هى أن يكون أساس الحوار قبول التسامح واحترام عقيدة الآخر وهذا شىء نسيناه فى المسيحية ..

وتوقف هيلموت شميت عن الحديث لحظة وقال للإمام الأكبر ..

حين تلتقى بالرئيس مبارك أرجوك أن تنقل إليه تحياتى .. فأنا أحمل له تقديرا كبيرا .. وهو شخصية مؤثرة .. وهو رجل صادق فى سعيه إلى السلام .. كذلك كان السادات الذى كتبت عنه فصلا كاملا فى كتابى الأخير « أصدقاء على الطريق » الذى صدر فى ديسمبر الماضى ..

وبعد اللقاء الذى طال بأكثر مما كان مقررا .. توجه الإمام الأكبر إلى الطائرة الخاصة التى كانت تنتظره لتقله إلى العاصمة بون .. وكان شميت أيضا يتجه إلى طائرته الخاصة التى كانت تنتظر ..

. *

قبل لقاء شميت كان لقاء الإمام الأكبر مع الرئيس الألمانى الدكتور رومان هيرتزوج وكان الاستقبال رسميا فى قصر الرئاسة .. والدكتور هيرتزوج شخصية سياسية معروفة وهو أيضا مفكر كبير .. كان أستاذا للقانون والعلوم السياسية ، ووزيرا للتعليم والثقافة ثم وزيرا للداخلية ، ووصل إلى منصب رئيس المحكمة الدستورية الاتحادية وأخيرا أصبح منذ عام ١٩٩٤ رئيسا لجمهورية ألمانيا الاتحادية ، وله مواقع مهمة فى العمل الدينى .. كان رئيسا لغرفة الكنيسة البروتستانية ورئيسا لمجموعة العمل البروتستانتية فى تحالف الحزب المسيحى الديمقراطى ..

ودار الحوار حول محاور محددة طال فيها الحديث لأكثر من ساعة ونصف .

كان المحور الأول هو أهمية العلاقات الألمانية العربية بشكل عام .

والمحور الثانى عن أهمية مصر فى نظر ألمانيا والشعب الألمانى وحرص ألمانيا على تقوية جسور التعاون مع مصر ، مع تقديرها لدور مصر القيادى ، ولدور الرئيس حسنى مبارك فى عملية السلام وفى نجاحه فى عملية الإصلاح الاقتصادى الصعبة التى خرج منها منتصرا .

والمحور الثالث كان عن نظرية صراع الحضارات ونظرية الدكتور طنطاوى عن حوار الحضارات التى كان يريد أن يستمع منه شخصيا إلى آرائه فى هذا الموضوع بعد أن قرأ له فى بعض الصحف ما قاله عنها .

وكان الحوار وديا كأنه بين أصدقاء التقوا كثيرا ومنذ سنوات طويلة ..

وحين وصل الإمام الأكبر إلى بون كان فى استقباله وكيل وزارة الخارجية والسفير المصرى النشيط محمود مبارك الذى تسلم عمله منذ أيام فقط ولكنه أصبح معروفا وصديقا للجميع .. وكان فى استقباله أيضا أعداد كبيرة من المسلمين فى بون والجالية المصرية .. ونزل الإمام الأكبر فى دار الضيافة الرسمية فى بيترسبرج وهى ضاحية فى بون حيث ينزل رؤساء الدول ..

ومن هنا بدأ الحوار يأخذ أبعادا جديدة ..

٣ الإسلام بعيون غربية

فى زيارة ألمانيا كانت هناك أسئلة هدفها معرفة الحقيقة ، وأسئلة كان هدفها إحراج شيخ الأزهر .. من بعض من أرادوا إفساد الزيارة ولكنهم لم يستطيعوا .. !

وصل فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر من برلين إلى العاصمة الألمانية بون ..

فى المطار كان هناك استقبال رسمى من الدولة وممثل لوزارة الخارجية .. وكان هناك عشرات من ممثلى المنظمات والهيئات الإسلامية ومن الجاليات الإسلامية والمصريين الذين يقيمون فى بون ..

واستضافت الحكومة الألمانية الإمام الأكبر فى دار الضيافة الرسمى الذى ينزل فيه رؤساء الدول .. وهو قصر جميل على قمة جبل يطل على العاصمة الصغيرة التى تستعد للانتقال إلى برلين ..

فى الصباح زار أكاديمية الملك فهد ، وهذه الأكاديمية أنشأتها السعودية فى بون لتعليم اللغة العربية والدين الإسلامى لأبناء الجاليات العربية ، وتكلف إنشاؤها ٣٢ مليون مارك ، ويدرس فيها ٥٠٠ طالب وطالبة فى المراحل الابتدائية والإعدادية والثانوية ويحصلون على الثانوية العامة السعودية .. وملحق بالأكاديمية مسجد وقاعة محاضرات ومكتبة .. والتقى الإمام الأكبر مع أساتذة وطلبة الأكاديمية ، وكان فى استقباله سفير السعودية فى بون ، ومديرة الأكاديمية الدكتورة عائشة الحسينى وهى حاصلة على الدكتوراه من كلية البنات بجامعة الأزهر ، وتحدث شيخ الأزهر عن أهمية العلم والعلماء ..

قال : إن الذين يخدمون أمتهم ويخدمون غيرهم بالعلم النافع لا يقلون عن المجاهدين .. وقيمة العلم تظهر حين نرى أن الله حين أراد أن يكرم رسوله صلى الله عليه وسلم لم يعلمه أن يطلب مزيدا من المال ، أو الجاه ، أو السلطان ، ولكن علمه أن يطلب مزيدا من العلم « وقل رب زدنى علما .. »

من هنا فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم وكل مسلمة دون تفرقة بين رجل وامرأة .. فالإسلام جاء بالمساواة بين الرجل والمرأة فى أمور متعددة : مساواة فى أصل الخلقة ، فالرجل والمرأة من أب واحد وأم واحدة و ﴿ بعضكم من بعض ﴾ .. ومساواة فى التكاليف الشرعية فكل ما هو مفروض على الرجل من العبادات مفروض أيضا على النساء .. ومساواة فى طلب العلم ؛ ولذلك يجب أن تحصل المرأة على نصيب مساوٍ للرجل من فرصة التعليم دون تفرقة .. ومساواة فى الكرامة الإنسانية فالله يقول : ﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾ فلا تفرقة فى الدرجة أو المنزلة بين الرجل والمرأة فى صيانة الكرامة .. إذن هناك مساواة تامة فى أمور كثيرة .. وهذا لا يمنع من أن يكون لكل منهما خصائص مختلفة عن الآخر ، لكنها خصائص تجعل التعاون والتكامل بينهما أساسا لإعمار الكون ..

* * *

بعد المحاضرة سأل أستاذ بالأكاديمية : هل أطفال الأنابيب وهل الاستنساخ الذى توصل إليه علماء الهندسة الوراثية حلال أو حرام .. ؟

وأجاب الإمام الأكبر : المبدأ أن كل ما يؤدى إلى إعمار الكون ، وإلى سعادة الإنسان ، وإلى المزيد من الذكاء الإنسانى بطريقة يقرها الأطباء ولا تتعارض مع الشريعة فهو حلال .. الأصل أن اختلاط الأنساب حرام ..

فإذا توصل العلم إلى أى وسيلة جديدة ليس فيها شبهة اختلاط الأنساب فهى حلال .. أما المسائل الفنية الخاصة بالهندسة الوراثية فلا أستطيع أن أتحدث فيها ، وقد علمنا الإسلام أن نرجع إلى أهل كل علم فهم أدرى به .. ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ . فأطفال الأنابيب إذا كانوا من ماء الزوج وماء الزوجة دون سواهما فهذا حلال ، أما إذا كان من ماء الزوج وماء امرأة أخرى أو العكس فهذا حرام .. الذى يحدد الحلال والحرام هنا هو ما إذا كانت هذه الوسيلة تؤدى إلى اختلاط الأنساب أو لا ..

وسأل طالب بالأكاديمية .. إن الكتب تقول : إن الإنسان الذى يموت مقتولا يظهر له « عفريت » فهل فى ذلك أصل فى الشريعة .. ؟

وكان السؤال دليلا على أن الخرافات تصاحب المسلمين حتى وهم فى بون ..

وأجاب شيخ الأزهر : هذه خرافة من الخرافات ليس لها أساس فى الدين ولا فى العلم .

وسأل طالب آخر : هل إذا توصل العلم إلى إعادة الحياة إلى الموتى يكون ذلك حلالا أو حراما .. ؟

ومع غرابة السؤال أجاب الإمام الأكبر : يا بنى .. لا يحيى الموتى إلا الله ..

وسألت سيدة : هل الإجهاض حرام مهما يكن السبب ؟ وهل تنظيم الأسرة حلال ؟ .

وأجاب الإمام الأكبر : الإجهاض يكون حلالا إذا كانت هناك خطورة مؤكدة على صحة الأم ، أو أن يكون الجنين مشوها ، وجزم الطبيب بذلك ، أما تنظيم الأسرة فهو اتخاذ وسائل طبية لمنع الحمل أصلا وهذا حلال .

وهكذا استمر الحوار ..

* * *

وبعد اللقاء كانت إحدى محطات التليفزيون فى انتظار لتسجيل حديث مع شيخ الأزهر ..

سألوه : هناك موقف متعجل أدان الاستنساخ ، وموقف آخر يرى فيه تقدما علميا يمكن أن يؤدى إلى تقدم البشرية ، مع أيهما يقف الإمام الأكبر ؟ ..

وأجاب : موقفى يتلخص فى كلمات محددة : كل ما يأتى به العلم لخدمة الإنسانية فى حدود ما أحله الله فهو حلال .. أطفال الأنابيب حلال إذا كانوا من الزوجين ولم يكن فيها اختلاط الأنساب .. وكل تقدم علمى نحن نرحب به ، والإطار الشرعى للحلال والحرام محدد ومعلوم ، ومادام التقدم العلمى ليس فيه اعتداء على ما أمرنا به الله أو مخالفة للسنة المؤكدة فلماذا نعارضه .. وأخيرا لابد أن نعلم أن الخالق هو الله ..وليس هناك خالق إلا الله .. فإذا كان فى اكتشافات العلماء خروج عن الضوابط الشرعية والأخلاقية فنحن نعارضه .

وسألوه : هل أنت راضٍ عن نظام تعليم الفقهاء ؟ وهل يتناسب مع روح العصر .. ؟

وأجاب : نحن فى عصر التخصص الدقيق .. الطب له مجالاته الكثيرة المتخصصة .. والفلك .. وعلم الحياة .. وهكذا .. نحن الفقهاء لا يمكن أن ندرس كل هذه العلوم لأنها لا تدخل فى مجالات تخصصنا .. نحن متخصصون فى الجانب الفقهى .. نرجع إلى كتاب الله والسنة المؤكدة واجتهادات الفقهاء السابقين .. ولنا أن نمارس الاجتهاد فيما يجدّ من أمور

على أن نكون مؤهلين لذلك ونلتزم بشروط الاجتهاد .. والاجتهاد ليس بالعقل وحده .. ولكن العقل محكوم بحدود ما شرعه الله ، والدراسات الفقهية تتطور مع العصر .. لأن هناك مسائل جديدة لم يعرفها الفقهاء السابقون ، ولابد أن نقول فيها حكم الشريعة .. نحن نساير العصر ، وفى نفس الوقت نحتفظ بأصول الفقه .. التطور ليس معناه أن نحل ما حرم الله أو نحرم ما أحله .. ولكن التطور أن نفهم القضايا والمشاكل الجديدة التى تأتى مع تغير المجتمعات وتقدم العلوم ونضعها فى الإطار الشرعى السليم .. ولا تبديل لحكم الله .. الحلال هو الحلال .. والحرام هو الحرام .. ولكن أفعال البشر هى التى تتغير وهذا ما يحتاج إلى الاجتهاد وليس هناك ما يمنع الفقهاء المؤهلين من الاجتهاد .

وسألوه : كيف يرى نهاية العنف فى المجتمعات الإسلامية ؟ .

فأجاب : إن كل حل للمشاكل عن طريق العنف والإكراه مصيره الفشل .. لأن العقائد لا تستقر فى الضمائر بالقوة والإكراه .. وحل الخلافات بالإكراه يؤجل الانفجار ولا يحل الصراع .. لا يحل الخلافات إلا الحوار النزيه الذى يهدف إلى الوصول إلى الحق والصواب .. وفى القرآن الكريم آيات فيها حوار بين الله والملائكة ، وبين الرسل وأقوامهم ، وبين الله والشيطان ، مما يدل على أن الحوار هو الوسيلة الوحيدة لإظهار الحق .. الذى يلجأ إلى العنف هو الذى يريد أن يفرض الباطل .. عندما نرى من يقتل إنسانا آمنا ويقول : إن ذلك من أجل إعلاء الشريعة .. أى شريعة ؟ .. وأى دين ؟ .. وأى خلق ؟ .. وهل يمكن أن يرضى الله عن قتل المسلم للمسلم ؟ والمسلمون جميعا يعلمون أن الله أمرهم فى كتابه ﴿ولا تعتدوا﴾ .. وهل وضع قنبلة فى سفارة يمكن أن يكون تنفيذا لأمر الله ؟ .. هذا تشويه لشريعة الله .. بل هو عدوان على شريعة الله ..

وسألوه : هل وضع الإسلام المرأة فى مرتبة أقل من الرجل .. ؟

وأجاب : إن الله يحاسب الرجل والمرأة دون تفرقة : ﴿من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ .. وفى القرآن المرأة والرجل من أصل واحد .. وكل تقييد لحق المرأة فى التعليم أو العمل فى حدود ما أحل الله هو جهل بالشريعة ..

وسألوه : ما موقفه مع غير المسلمين .. ؟

فأجاب : الناس متساوون فى الحقوق والواجبات .. يتساوى أبناء الوطن الواحد .. أما العقائد فلكل إنسان عقيدته ولا إكراه فى الدين .. ولو أجبرنا فردا واحدا على اعتناق الإسلام لكان نكبة على الإسلام .. من يدخل الإسلام يجب أن يدخله عن اقتناع ، وبإرادة حرة ، ويجب أن نتأكد أنه لا يفعل ذلك متأثرا بأى ضغط أو مصلحة .. وفى مصر المسلمون والمسيحيون يعيشون معا على قدم المساواة ودون أى تفرقة .. ولا تفرقة بين من يحملون الجنسية المصرية وأمر الله لنا : ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ..﴾ .

وسأله مذيع آخر لمحطة تليفزيون عربية .. ماذا تقول للمسلمين فى أوربا عموما وفى ألمانيا بالذات .. ؟

وأجاب : أوصيهم وأوصى نفسى بالتمسك بالفضائل .. وألا يهملوا لغتهم .. وأن يعيشوا فى هذه البلاد معمرين لا مخربين .. مصلحين لا مفسدين .. وأن يلتزموا بأدب الضيافة فى البلاد التى تستضيفهم ، وفى نفس الوقت أنصح البلد المضيف أن يعامل أبناء الجالية الإسلامية معاملة كريمة وألا يضع تفرقة بين الناس بسبب العقائد ..

* * *

بعد ذلك كان هناك حوار آخر على مائدة غداء بدعوة من يورجن موليمان

وزير الاقتصاد السابق ورئيس جمعية الصداقة العربية الألمانية ، والدكتور فولكمار كولر وزير الدولة السابق ورئيس لجنة التخطيط بمؤسسة كونراد اديناور .

وقال شيخ الأزهر فى هذا الحوار : لا يجوز تحميل الدين المسيحى أو الدين الإسلامى مسئولية أى عمل من أعمال العنف التى تحدث فى أى مكان فى العالم .. وطبيعى أن مسئولية كل دولة محاربة السلوك الإجرامى مهما كانت الدعاوى التى يحاول أن يبرر بها جرائمه ، ومسئولية كل دولة أن تعمل على إزالة أسباب العنف فى المجتمع .. ولابد أن يكون الحوار هو الوسيلة الوحيدة لحل المشاكل وتحقيق الأهداف وليس العنف .

وبعد الغداء التقى شيخ الأزهر مع أعضاء جمعية الصداقة العربية الألمانية ومؤسسة كونراد اديناور فى قاعة المحاضرات فى المركز العلمى فى بون ..

وكان الحشد يضم صفوة من المفكرين وقادة الرأى وممثلى الجماعات والتجمعات المختلفة ، وكان محور المناقشة موضوع : « الإسلام وأوربا » ..

وقال شيخ الأزهر :

أحب أن أوضح فى البداية حقائق لا خلاف عليها بين فقهاء المسلمين :

الحقيقة الأولى : أن الأديان السماوية جميعا ، بل إن العقول السليمة جميعا متفقة على أن هناك فضائل يجب اعتناقها مثل الصدق ، والعدل ، والرحمة ، ونصرة المظلوم ، وحرية الإنسان ..وأن هناك رذائل يجب اجتنابها مثل الكذب ، والظلم ، والاعتداء على الحريات التى منحها الله للإنسان . وقد جاء فى القرآن أن كل نبى أرسله الله إلى الناس كانت دعوته الأولى لقومه هى : اعبدوا الله وحده ، وكانت رسالته هى إرساء الأخلاق .. وسعادة الإنسانية رهن بإقرار مبادئ الأخلاق التى دعت إليها الأديان .

الحقيقة الثانية : أن الأديان عامة ، والإسلام الذى أتحدث بلسانه ، تمتاز بالوضوح ، فلا توجد فى الشريعة الإسلامية أسرار ، أو أمور خفية وأمور معلنة ، أو ألغاز يصعب فهمها على العقل السليم ، ولكن شريعة الإسلام فيها وضوح كامل .. فى العقائد نحن نعبد الله الواحد .. هو الله الذى يعبده المسيحيون واليهود .. هناك إله واحد خالق ، وليس لكل دين إله خاص به .. والإسلام يأمر المؤمنين به باحترام جميع الأديان وجميع الأنبياء ﴿لا نفرق بين أحد من رسله﴾ .. والعبادات فى الإسلام شرعها الله لتطهير الإنسان والارتقاء بالحياة الإنسانية ..

الصلاة مفروضة لكى تنهى عن الفحشاء والمنكر .. الزكاة لمساعدة الفقراء .. الصيام لتدريب الإنسان على الصبر وقوة الإرادة والإخلاص لله .. وهكذا فالحياة الإنسانية الراقية هى الهدف ، ولذلك لا صحة لما يقال أحيانا من الجاهلين بأن هناك تصادما بين الدين والحياة .. أو بين الدين والتقدم .

الحقيقة الثالثة : أن الناس فى نظر الإسلام جميعهم من أب واحد وأم واحدة ، فكل شعوب العالم بينهم قربى ، ولذلك يجب أن يتعاونوا من أجل نشر السلام ، والأمان ، والفضائل ، والرخاء .

الحقيقة الرابعة : أن العقل وكذلك العلم ليس مقصورا على أمة واحدة ، فكل الشعوب وكل البشر خلقهم الله وفيهم عقول لا تقل ولا تزيد على عقول غيرها من الشعوب ، وكل شعب لديه علوم يمكن أن تفيد الشعوب الأخرى ، وكل أمة فى إمكانها أن تتعلم من غيرها .. الشرق يأخذ من الغرب ما ينفعه .. والغرب يأخذ من الشرق ما ينفعه .. وأنا لست مع الذين يقولون : إن الصراع بين الحضارات محتوم ، ولكنى .. مع الذين يقولون : إن العقل السليم يدعونا إلى نبذ فكرة الصراع والتمسك بفكرة التعاون .. تعاون الحضارات .. وحوار الحضارات .. والإمام الغزالى له عبارة بليغة يقول فيها : ما من عالِم فى فن

إلا وهو تلميذ لغيره فى فن آخر .. قد يكون شيخ الأزهر أستاذا فى العلوم الدينية ولكنه تلميذ فى الطب عليه أن يتعلم من أساتذة الطب .. أو فى علوم الفضاء .. وهكذا الأمم والحضارات .. وبذلك فإن فكرة الصراع قائمة على غير أساس .. وفكرة التعايش بين الحضارات .. والاعتماد المتبادل .. والتفاعل هى الأقرب إلى الواقع والعقل ..

حوار الحضارات ضرورى للإنسانية ، ولكن يجب ألا يكون هذا الحوار قائما على سوء الظن .. أو الغرور والتعالى .. الحوار يجب أن يكون هدفه زيادة التفاهم .. والوصول إلى الحق .. وتحقيق السلام والرخاء لكل الشعوب .. والمساعدة فى تقدم البشرية ككل .. والإسلام يدعونا إلى الحوار مع الآخرين .. وأن تكون دعوتنا دائما بالإقناع .. بالحكمة والموعظة الحسنة .. وأن يكون الجدل بأحسن وسيلة وليس بالعنف أو الضغط أو الإكراه .. والحروب لم تحل المشاكل فى كل مراحل التاريخ .. وكذلك الإرهاب والقتل والتخريب لا يمكن أن يحقق أهدافا نبيلة .. الأهداف النبيلة لا يمكن تحقيقها إلا بوسائل نبيلة ..

الحقيقة الخامسة : أن الأديان السماوية جميعها وعلى رأسها الإسلام قررت أن كل إنسان مسئول عن تصرفاته وسلوكه وأقواله ، ولا تلقى المسئولية على غيره ، لذلك أقول : إذا رأيتم جريمة إرهاب أو تخريب انسبوا الجريمة إلى مرتكبها ولا تنسبوها إلى دين لمجرد أن المجرم يعتنق هذا الدين .. فليس هناك دين يحرض المؤمنين به على ارتكاب الجرائم من قتل أو تخريب أو اعتداء على الأرواح والأموال والأعراض .. فى كل دين هناك عقلاء وسفهاء .. والاستقامة والانحراف من خصائص البشر ، وليست من خصائص الأديان ، لذلك أقول : لا تنسبوا إلى الإسلام ما يرتكبه بعض المسلمين من جرائم ، فهناك جرائم مماثلة يرتكبها أصحاب الديانات الأخرى وهى انحراف عن دعوة هذه الأديان .

الحقيقة الأخيرة : أن شريعة الإسلام تقيم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين على أساس التعايش والقبول والتعاون وترك اختلاف العقائد لله هو الذى يفصل بين الناس فى اختلافهم .. ومادام غير المسلمين لا يعلنون علينا حربا ، ولا يسيئون إلى ديننا أو أوطاننا فإننا نتعامل معهم على قدم المساواة : ﴿فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم .. ﴾ ولا يأذن الله بالقتال إلا لرد العدوان : ﴿وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .. ﴾ المسلمون يجب أن يدافعوا عن أنفسهم .. ومن قتل دفاعا عن نفسه أو عرضه أو ماله فهو شهيد ..

الخلاصة أن الإسلام ليس دين عدوان ولكنه دين تعاون وسلام ..

وعلق الوزير السابق موليمان : إن دعوة الإمام الأكبر للحوار بين الحضارات تمثل أهمية كبيرة بالنسبة لنا فى ألمانيا .. والعداوات غالبا تكون نتيجة معرفة مشوهة أو معلومات غير دقيقة والحوار يوضح الحقائق .. ونحن حريصون على الحوار مع الإسلام ليس فقط لأن العالم الإسلامى قريب من أوربا ، ولكن لسبب أهم هو أن الإسلام يعيش بيننا ، وهناك أعداد كبيرة من المسلمين فى ألمانيا ، ونريد حماية ألمانيا من الصراعات .

وقال ممثل إحدى الجماعات المسيحية : لا شك أن زيارتكم بالنسبة لنا مهمة جدا لأنها تصحح المفهوم الخاطئ والصورة السيئة فى الغرب عن الإسلام .

وقال الإمام الأكبر : إننى أطالب الغرب أن يعرف الإسلام من مصادره ليس عن طريق وسطاء يشوهون صورة الإسلام .. إذا أردت أن تعرف شيئا عن الطب فإنك تسأل الأطباء ، وكذلك فى الهندسة وسائر العلوم .. ولكن حين تريد معرفة الشريعة الإسلامية وأحكامها فكيف تأخذ معلوماتك عن غير المتخصصين .. وكما فى كل مجال هناك الدخلاء .. هناك من يدعون

معرفة الطب ولكن من يأخذ معلوماته منهم يتعرض لخطر كبير .. كذلك في الدين .. هناك دخلاء على الشريعة الإسلامية يدعون العلم بها .. وما أكثر الذين يتاجرون بالأديان لتحقيق مآرب شخصية .. إننى أطالب الغرب بأن يأخذ الإسلام عن الفقهاء الأمناء المخلصين المتخصصين ، وليس عن المدعين أو المتاجرين بالإسلام ..

وقال الدكتور كولر المفكر الألمانى المعروف : لقد شرحتم بوضوح أن الأفكار الأمريكية عن صراع الحضارات خطأ ، وأن الحوار بين الغرب والإسلام ممكن ، وعلينا أن نهدأ فى هذا الحوار ، والمسلمون فى ألمانيا لهم مطالب ، ولكننا لا نعرف مع من نعقد اتفاقات لتلبية مطالبهم .. ليس هناك جهة إسلامية واحدة يمكن الحوار معها ..

وقال الإمام الأكبر : إننا مستعدون للحوار فى كل وقت وكل مكان .. والأزهر مستعد لأن يقدم كل عون ممكن للمسلمين فى ألمانيا .

وسأل ممثل جماعة أخرى : قلتم : إن أحكام الإسلام واضحة وليس فيها ما هو فى الخفاء ، وقلتم : إن الحوار هو دعوة الإسلام ، وقلتم : إن الإسلام دين تسامح ، ونحن نرى ذلك فيكم وفى الأزهر وفى مصر عموما ، ولكن هناك أئمة آخرون أقل تسامحا وأكثر عنفا .. هل أقمتم معهم حوارا .. ؟

وأجاب شيخ الأزهر : شكرا لهذه الصراحة .. وأحب أن أقول : إن المسلمين بشر وليسوا ملائكة .. فيهم المحسن والمسيىء مثل أهل الديانات الأخرى .. وفيهم المتسامح والمتشدد .. وفيهم العاقل والسفيه .. أنا لا أقول أقيموا الحوار مع الجميع ، ولكن أقول : أقيموا الحوار بين العقلاء فى كل جانب .. وبين الأسوياء وبين المصلحين .. وهم الأغلبية والقاعدة .. والأزهر يتحدث عن مصر وليس عن كل البلاد الإسلامية .. الأزهر يفتح أبوابه لأبناء

العالم الإسلامى جميعا ليتعلموا فيه .. ولكنه لا يمارس سلطة دينية على العالم الإسلامى .. وطبعا نحن نحتاج إلى حوار بين المسلمين أنفسهم .. فهناك مذاهب واجتهادات مختلفة .. وكذلك يحتاج المسيحيون إلى حوار بين المذاهب المختلفة .. وفى نفس الوقت يمكن الحوار بين الأديان بحثا عن العوامل المشتركة وأسس التعاون بينها لخير البشرية .. لتقليل مساحة العنف وزيادة مساحة العدل والتفاهم .

وقال ممثل جماعة أخرى : كيف تدخل الأزهر لتفريق نصر أبو زيد عن زوجته عقابا على آرائه .. ؟

وأجاب شيخ الأزهر : حقيقة الأمر أن الأزهر لم يتدخل .. الحقيقة أن هناك محاميا تقدم إلى المحكمة وحصل على حكم قضائى .. وانتهت المسألة كلها بحكم قضائى .. والقضاء فى مصر مستقل ولا سلطة لأى جهة عليه .. ونصر أبو زيد يستطيع أن يعود إلى مصر فى أى وقت . والإسلام ليس دينا همجيا يدين الناس دون أسباب .. لقد منح الله الحق لكل إنسان فى اختيار الدين الذى يناسبه ، والإكراه فى الدين مرفوض بأمر الله ، ولابد أن تعلموا أن مصر ليس فيها محاكم دينية وليس فيها محاكمات دينية ..

وانتهى الحوار بعد ساعات ..

وكان هناك لقاء آخر فى الانتظار ..

* * *

كان اللقاء التالى مع مجلة « فوكس » وهى الآن أكثر المجلات الألمانية توزيعا وشعبية ، ودار الحوار كما يلى :

س : ما الفرق بينك وبين شيخ الأزهر السابق .. ؟

جـ : أعتقد ليس هناك فرق .. أنا والإمام الأكبر الراحل متفقان فى أصول

الدين ولا نختلف فى أمر ثبت فى الدين بالضرورة .. أما الفروع فقد نختلف فى بعض الاجتهادات والتفسيرات حول موضوعات ليست من أركان الإسلام .

س : هو عارض مؤتمر السكان وأنت أيدته وهو عارض ختان البنات وأنت أيدته .. ؟

جـ : أنتم هكذا تخلطون بين الأصول والفروع .. وهل ختان البنات من أصول الإسلام .. ؟ هذه خلافات ليست خلافات جوهرية .. هى خلافات فى أمور فرعية مما يجوز فيها الخلاف .. أما الأصول فالجميع متفقون عليها دون أى خلاف .

س : أنت أصدرت فتوى بأن النساء المغتصبات فى البوسنة لهن الحق فى الإجهاض .. ؟

جـ : نعم وأنا فى ذلك أتفق مع جمهور المسلمين وهم يجيزون للمرأة الإجهاض فى الشهور الثلاثة الأولى ولو لغير سبب طبى .. وبالنسبة للاغتصاب فإن إبقاء ابن من حرام نتيجة اعتداء لا يمكن إكراه المرأة عليه لأنه أمر غير إنسانى وغير أخلاقى ..

س : هل تصل الفتاوى التى تصدرونها إلى الجماعات الإسلامية .. ؟

جـ : تصل إليهم وإلى غيرهم لأنها معلنة .. ومن أراد أن يناقشها فنحن نرحب بالحوار دائما .. والفتوى رأى .. وهى غير ملزمة .. لا إلزام لأحد بالفتوى التى أصدرها .. أنا أبين الحكم ومن يخالفه يتحمل المسئولية أمام الله .. الله هو الذى يحاسب وليس أنا .

س : هل طلبت الجماعات منك أن تصدر فتوى ما .. ؟

جـ : لا .. لم يحدث أبدا ..

س : حتى الآن سقط ٦٠ ألف قتيل فى العالم الإسلامى ، وتقول الجماعات التى قتلتهم إن ذلك فى سبيل الله .. فهل هو كذلك .. ؟

جـ : لا .. كل عدوان على نفس إنسانية حرام .. ولم يأمر الله أبدا بقتل الآمنين .. ومن يقول إن قتل الأبرياء فى سبيل الله فهو كذاب .

س : ولكن هناك من يقتل ويقول : إن ذلك فى سبيل الله .

جـ : إذا كان دفاعا عن الأرض أو المال أو العرض فهذا دفاع مشروع عن النفس وهو فى سبيل الله .. وإذا لم يكن دفاعا ضد عدوان فهو جريمة .

س : وهل ترى أن كل قتيل من الفلسطينيين شهيد .. ؟

جـ : إذا هاجمنى من يريد قتلى واغتصاب أرضى فهل هناك دين يأمرنى بالسكوت والاستسلام .. الدفاع عن النفس مشروع فى كل الأديان والقوانين والشرائع .. والمبدأ فى الإسلام أن من مات دفاعا عن عرضه أو ماله أو أرضه فهو شهيد .

س : الجماعات التى تقتل المسلمين فى البلاد الإسلامية تقول إنها تجاهد فى سبيل الله .. فهل هذا هو الجهاد .. ؟

جـ : كثيرا ما تنسب جماعة نفسها إلى الإسلام ظلما وزورا ، فإذا كنت تقصد جرائم قتل الأطفال والنساء والرجال الآمنين فإن كل من يفعل ذلك الإسلام برئ منه ، وجماعات القتلة بالغدر لا تنتمى إلى أى دين من الأديان وإنما هى جماعات تخريبية تعمل ما يخالف تعاليم الأديان .

س : وكيف ترى التعامل مع هذه الجماعات : بالحوار أم بالقوة ؟

جـ : علينا أن نعيدهم إلى الطريق الصحيح لفهم الدين .. ونحن دائمًا على استعداد للحوار مع من يريد أن يعرف حقائق الدين .

س : هل ترى أن هناك عوامل مشتركة بين الأديان .. ؟

جـ : طبعا .. كل الأديان قائمة على عبادة الله .. والله واحد .. والفضائل الأخلاقية في الديانات السماوية واحدة .. الخلاف فى العقائد وليس فى الفضائل والأخلاق ..

س : هل تقول ذلك علنا أم تخاف رد فعل الجماعات .. ؟

جـ : أنا كشيخ للأزهر أقول حكم الله في أى مكان .. ولا أخشى إلا الله وحده ..

* * *

وجاء الدور على إذاعة ألمانيا لحوار طويل جاء فيه :

س : ما أهداف هذه الزيارة وأنت أول شيخ للأزهر يزور ألمانيا .. ؟

جـ : العالم كله يحتاج إلى تبادل المعرفة .. نحن نريد أن نعمق العلاقات بيننا وبين أوربا عموما وألمانيا خاصة .. وألمانيا فيها نسبة كبيرة من المسلمين ويهمنى أن ألتقى بهم .. كما يهمنى أن أوضح حقيقة الإسلام فى مواجهة حملة التشويه التى تصور الإسلام على غير حقيقته ..

س : هل هى جولة استطلاعية لبحث بعض الموضوعات التى تتعلق بالحوار بين الإسلام والمسيحية .. ؟

جـ : ليس الهدف النزهة .. ولكن الهدف هو الحوار بالطبع .. وأن نتفق على خطوات تزيد التعاون بيننا .

س : الملاحظ أن سوء الفهم يزداد فى الغرب تجاه الإسلام فما العمل .. ؟

جـ : أمامنا أن نتعاون .. وأن نمد أيدينا إلى العقلاء لكى نشرح لهم حقائق

الإسلام .. الإسلام دين سلام .. وحرية .. ومساواة .. وعدالة .. وتسامح .. والحمد لله أننى أجد فى كل مكان من لديه استعداد للحوار والتفاهم والاعتراف بالحق .

س : ورأيك فى قضية سلمان رشدى وإصرار إيران على قتله .. ؟

جـ : سلمان رشدى كاتب فاشل ومغمور أراد تحقيق الشهرة والمال بالإساءة المتعمدة إلى الإسلام ورسوله وآل البيت وأنا ضد القتل ..القتل لا يحسم قضية ولا يظهر حقيقة . ولقد التقيت مع أسقف كانتربرى فى لندن واقترحت عليه تشكيل لجنة من ثلاثة من أكبر علماء الدين الإسلامى والمسيحى واليهودى وتجتمع فى بريطانيا باعتبار أن سلمان رشدى يحمل الجنسية البريطانية .. وتتولى هذه اللجنة مناقشة سلمان رشدى حول الاتهامات التى وجهها إلى الإسلام وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى زوجاته وآل بيته ..وتسأله من أين أتى بهذه الاتهامات والبذاءات .. وهل هناك أى مصدر تاريخى اعتمد عليه فيما قال .. ؟ فإذا توصلت اللجنة إلى أن ذلك كله كذب وافتراء فعليها أن تعلن ذلك فى تقريرها وتقول للعالم أن سلمان رشدى كذاب .. وهذا يكفينا ..

س : لماذا يصادر الأزهر الكتب والأعمال الفنية .. ؟

جـ : الأزهر لا يصادر .. الأزهر يوضح الحقائق والأحكام الشرعية ، ومن شاء أن يلتزم بأحكام الشريعة أو يخالفها فحسابه عند الله .. وإذا وجدنا فى الأعمال الفنية إساءة أو أخطاء فواجبنا التصحيح ..

س : هل أصدرتم فتوى بأن خروج المرأة للتعليم أو العمل حرام .. ؟

جـ : ليس هناك فتوى بذلك .. بل إن الأزهر فيه عشرات الآلاف من الفتيات فى مختلف الكليات الدينية والعملية وهناك عشرات السيدات يشغلن وظيفة أستاذ فى جامعة الأزهر وحاصلات على أعلى الشهادات من مصر ودول

العالم المختلفة .. والمرأة فى مصر تعمل فى كل المجالات .. المرأة فى مصر طبيبة ومهندسة ومدرسة وصحفية وتعمل أيضا فى مجال الدعوة .. ليس هناك مجال محرم على النساء فى مصر ومادامت ملتزمة بأحكام الدين فليس هناك من يمنعها باسم الدين من الخروج للعمل ..

وفى المساء كان الحوار ممتدا على مائدة عشاء ضمت عشرات من الشخصيات فى بيت سفير مصر فى بون السفير محمود مبارك .

* * *

فى الصباح مبكرا كان حوار آخر فى مؤسسة كونراد اديناور مع رئيس مجلس الإدارة وأعضاء مجلس الإدارة والمدير التنفيذى ، وقال الدكتور لانجوت رئيس المؤسسة :

– لقد تابعنا آراءكم فى قضايا تهمنا كألمان ، ونحن نريد أن نزيد مجال عملنا فى مصر .. ونحتاج إلى رأيكم فى ذلك .

وقال شيخ الأزهر :

– شكرا لما تقدمونه ونحن نرحب بكم ..

قال الدكتور لانجوت :

– ندخل فى الخطوات العملية .. ونرجو أن تحددوا مسئولا فى الأزهر لتحديد ميادين التعاون مع المؤسسة وأحب أن أقول لكم إن مجلس إدارة المؤسسة قرر أن يكون محور العام القادم هو الحوار بين الأديان .

وأجاب شيخ الأزهر :

– لدينا عدد كبير من الأساتذة تخرجوا فى الجامعات الألمانية ، واللغة الألمانية تدرس فى كلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر ، وصديقى الدكتور

محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف يمكن أن يكون حلقة الاتصال بين مؤسستكم والأزهر . وأعتقد أن العمل يجب أن يكون فى البلدين : فى ألمانيا وفى مصر .

وقال رئيس المؤسسة :

– نعم .. نريد أن يعرف الألمان حقيقة الإسلام ولذلك سنعقد مؤتمرا فى شهر يونيو القادم عن الإسلام والشريعة ، واسمحوا لى أن أقدم لكم الدعوة لحضور هذا المؤتمر .

شيخ الأزهر : أرجو أن أتمكن من الحضور أو ينوب عنى أحد الزملاء .

رئيس المؤسسة : فى ندوة الأمس طرحتم فكرة الحوار بين الحضارات .. وهذا محور أساسى فى نشاطنا الدولى .. فكيف ترون استعداد الغرب للحوار ؟ .

شيخ الأزهر : أرى أن هناك استعدادا للحوار .. والأزهر يرحب بالحوار بكل صوره ، لأنى أعتقد أن الحوار هو خير وسيلة للوصول إلى التفاهم وتقارب العقول وحل المشكلات بأسلوب حضارى ، مادام هدف الحوار تقريب المسافات والبحث عن نقاط التقاء .

رئيس المؤسسة : أستطيع أن أؤكد أن الاستعداد للحوار فى ألمانيا يزداد ولكن هناك سؤال يحيرنا .. من الذى يمثل الإسلام ..؟ نحن نعرف أن الأزهر له دور مؤثر فى العالم الإسلامى ، ولكن نعلم أيضا أن العالم الإسلامى فيه تيارات مختلفة .. وهناك قرارات وتصرفات فى العالم الإسلامى لا نستطيع أن نفهمها جيدا ، ولذلك سررنا بحديثكم عن الإسلام على أنه دين التسامح .. وسعدت حين رأيتكم فى حديث ودى مع الأسقف القبطى المصرى فى حفل العشاء أمس .. وهذا شيء يهمنا جدا ..

شيخ الأزهر : ليس غريبا أن تكون هناك تيارات واختلافات فى العالم

الإسلامى .. فهناك تيارات واختلافات أيضا فى العالم المسيحى .. وليس هناك جهة واحدة تمثل كل المسيحيين فى العالم .. وكذلك ليس هناك جهة واحدة تمثل كل المسلمين فى العالم ولذلك نقول إن الحوار مطلوب بين المسلمين أنفسهم .. وبين المسيحيين فيما بينهم .. وبين المسلمين والمسيحيين .. وهكذا .. هناك خلافات ونحن ندعو إلى التفاهم لتقريب شقة الخلاف .. وأحب أن أقول لكم أن علماء الأزهر يتفقون مع غيرهم من علماء المسلمين فى أصول الإسلام ، والمسائل التى تتعلق بالعقائد لا خلاف عليها بين المسلمين جميعا .. الخلافات فى الفروع .. وفى الفروع وجهات نظر واجتهاد .. ويمكنكم الحوار مع جميع الاتجاهات . وثق أنك لن تجد خلافات جوهرية بين علماء المسلمين .. أما إذا كنت تقصد الجماعات التى لم تفهم الإسلام فهما سليما وتمارس العنف والقتل فهذه الجماعات تختلف مع علماء الاسلام جميعا اختلافات جوهرية .. هؤلاء لا يمثلون الإسلام والحوار معهم هو حوار من يمثل نفسه ولا يمثل الإسلام . أما علاقتنا فى مصر مع الأخوة المسيحيين فهى علاقات قوية .. نحن أبناء وطن واحد .. ولا تفرقة بين المصريين على أساس العقيدة وتربطنى صداقة شخصية مع قداسة البابا شنودة بطريرك الأقباط منذ سنوات طويلة ..

رئيس المؤسسة : نحن نعارض نظرية هنتنجتون عن حتمية الصراع بين الغرب والإسلام .. ونحن أيضا نرى أن جماعات الإرهاب تجد فرصة للعمل .. ونلاحظ أن قاعدتها من الطبقات الفقيرة وسمعت أن لها تأثيرا فى بعض الجامعات ..

شيخ الأزهر : الحياة الإنسانية لابد أن يكون فيها الصراع بين العقل السليم والعقل المريض .. ونحن جميعا نعترف بأن هناك أخطاء فى الشرق وفى الغرب .. ومن جانبنا نحاول تصحيح الأخطاء .. والأزهر يشرح ويوضح حقائق الإسلام بأسلوب يتفق مع العقل السليم .. أما أصحاب العقول المريضة

فهم فى كل مكان ، وفى كل دين ، وتأثيرهم يكاد يكون معدوما ، ومصيرهم حتما إلى زوال ..

وعلى مائدة الغداء قال الدكتور لوتار كرافت المدير التنفيذى لمؤسسة كونراد اديناور :

– لقد عقدنا مؤتمرا مع أصحاب الديانة الكونفوشية ، وأعتقد أن الحوار مع الإسلام له أهمية خاصة لنا بسبب العلاقات الوثيقة بيننا منذ عصور بعيدة ، وبسبب آخر هو وجود ملايين المسلمين بيننا ونريد أن نتعلم كيف نتعامل معهم ونتفهمهم .. نحن نهتم بالحوار عموما من أجل تعميق الديمقراطية ، من أجل حماية المجتمع من الانقسام والتوتر ، ومن أجل نشر ثقافة التسامح ، ونهتم بالحوار بين طبقات المجتمع لتعبر كل طبقة عن مشاكلها ومطالبها .. وهذه المؤسسة عمرها ٤٠ عاما الآن ، ونشاطها يتخطى الحدود ، وهناك اتصالات بيننا وبين مؤسسات مماثلة فى مختلف دول العالم .. ونحن نقوم أساسا بتثقيف الشباب سياسيا ، ولنا مركزان للتدريب السياسى ، ولنا أيضا مكاتب للتثقيف السياسى منتشرة فى أنحاء البلاد ، وكذلك نحن نهتم بالنشاط العلمى ، ولدينا أرشيف عن تاريخ ألمانيا يضم كل الوثائق من محاضر اجتماعات سياسية أو مضابط البرلمان أو مذكرات الشخصيات السياسية ، ولكل مؤرخ الحق فى أن يستفيد من هذا الأرشيف .. خاصة أننا بعد توحيد ألمانيا حصلنا على أوراق ووثائق ومعلومات مهمة عن الأحزاب والنشاط التاريخى والأحداث المهمة والشخصيات البارزة فى ألمانيا الشرقية منذ تقسيم ألمانيا ، ونقلنا ١٥٠ طنا من الوثائق إلى مقر المؤسسة فى بون وقمنا بتصنيفها وفهرستها وهى الآن متاحة لمن يبحث فى تاريخ هذه الفترة من الكتاب والمؤرخين والصحفيين ..

وأضاف الدكتور كرافت :

– مؤسستنا مهتمة بالبحوث فى مجالات البحث العلمى السياسى

والاقتصادى والسياسة الأمنية ، وتشجع البحوث فى السياسة الألمانية والسياسة الدولية — ونحن نقدم المشورة للمجالس المحلية فى الموضوعات التى تطلب منا دراستها وإجراء بحوث حولها . نحن أيضا نشجع المتفوقين من الشباب ليستمروا فى التفوق ونقدم لهم المنح والمساعدات ، وهناك ٦ آلاف شاب حصلوا على منح وأصبحوا من أصدقاء المؤسسة . والميزانية الخاصة بالمؤسسة مقسمة بالتساوى .. النصف للبحوث والأنشطة داخل ألمانيا .. والنصف الآخر للتعاون الدولى .

ويشارك فى إدارة هذه المؤسسة شخصيات ألمانيا بارزة فى المجالات السياسية والعلوم وممثلون من الولايات ، والمستشار هيلموت كول عضو فى مجلس الإدارة منذ ٢٩ عاما .. وهو يشارك فى أعمال ونشاط المؤسسة . أما التمويل فإن كل ما له علاقة بالمصلحة العامة فى ألمانيا يعتمد على الدعم المالى من الدولة .. ومع أننا نحصل على التمويل من الدولة إلا أننا مؤسسة مستقلة ، نحصل عن تمويل من وزارات الخارجية ، والبحث العلمى ، والتعاون الاقتصادى .. وفى ألمانيا ٥ مؤسسات مماثلة حسب الاتجاهات السياسية للأحزاب الألمانية .. أما مؤسسة كونراد اديناور فإنها تحصل من الدول على ٢٠٠ مليون مارك سنويا .. والبرلمان هو الذى يقرر ميزانية هذه المؤسسات .. وهدف هذه المؤسسات هو التربية الديمقراطية ، وتشجيع البحث السياسى والاقتصادى من أجل تطوير المجتمع الألمانى باستمرار ، ووضع الحقائق والبدائل أمام من يتخذون القرار السياسى ، وتقديم الرأى والمشورة للبرلمان ووسائل الإعلام .. هذه المؤسسات هى الجسر بين المؤسسة السياسية والمجتمع وهى أيضا جسر يربط بين البحث العلمى والجامعات وبين المؤسسات السياسية وخاصة البرلمان .

وكان هذا الحديث عن مؤسسة كونراد اديناور مقدمة لحوار عن أوجه التعاون الممكنة بينه وبين الأزهر .. منح لأبناء الأزهر للدراسة فى ألمانيا ومنح

لأبناء ألمانيا الراغبين للدراسة فى الأزهر .. ونقل التكنولوجيا الحديثة إلى كليات جامعة الأزهر ، وكان الدكتور حسن شريف مستشارنا الثقافى النشيط حاضرا ومشاركا فى هذا الحوار الذى انتهى إلى الاتفاق على اعداد مشروع بروتوكول مشترك بين المؤسسة والأزهر لمناقشته فى القاهرة وبون وتوقيعه بعد ذلك من خلال وزارة الخارجية المصرية ..

وظهر من الحوار أن الألمان حريصون على الدراسة فى مصر عموما ، وفى الأزهر خاصة ، بنفس حرص المصريين على الدراسة فى ألمانيا ..

وقال الإمام الأكبر : هذا هو الحوار الحقيقى بين الحضارات .. أن نتعايش معا ، ونتبادل المعرفة ، ونتعاون جميعا على النهوض بالمجتمعات ونشر الفضائل .

* * *

جاء موعد لقاء مع وزير الخارجية الدكتور كلاوس كينيكل وهو فى نفس الوقت نائب المستشار الألمانى ..

كان وزير الخارجية مبتسما ابتسامة حقيقية وليست ابتسامة دبلوماسية .. وكان مرحا .. وطبيعيا .. ومتدفقا بالحيوية وهو يرحب بالإمام الأكبر .. وما كاد يجلس حتى ارتفع صوته :

– يا صاحب الفضيلة .. أود أن أرحب بكم ونود أن تكون هذه الزيارة بداية لقاءات بناءة بيننا .. لقد زرت مصر أكثر من مرة .. وفى كل مرة يزداد تقديرى للرئيس مبارك وارتباطى بعمرو موسى واعتبره صديقى .. وأمامى ملف كامل عنكم كل ما فيه طيب .. فأنت على رأس أكبر مؤسسة إسلامية فى العالم .. وأوربا ترغب فى إقامة حوار مع العالم الإسلامى ، ومنذ توليت وزارة الخارجية قررت عقد مؤتمر إسلامى ، ووجهت الدعوة إلى

عمرو موسى وللأسف تأجل هذا المؤتمر .. لدينا مشكلة تتبلور فى أوربا ولذلك نريد الحوار مع العالم الإسلامى .. الحكومة المصرية تلعب دورًا بارزا فى عملية السلام .. والرئيس مبارك دوره محورى .. ونحن على علاقة طيبة مع إسرائيل وإن كنا نختلف معهم فى بعض الأمور ..

وقال شيخ الأزهر : أولا أحب أن أشكركم على هذه الدعوة .. والأزهر يحمل رسالة الاعتدال والسماحة منذ أكثر من ألف عام .. ونحن نرى أن الأديان السماوية تتعاون على نشر الفضائل ، وخير وسيلة لذلك هى الحوار ، والأزهر يرحب بالحوار البناء الذى يسعى إلى الوصول إلى الحقيقة وخدمة الإنسانية ورفض العنف والظلم واغتيال الحقوق .. نريد أن يفهم بعضنا بعضا ونفهم الأديان على حقيقتها على لسان أهلها وليس على لسان أعدائها أو الجهلاء والمتاجرين بها .. فى القرآن أن الناس جميعا أوجدهم الله من أب واحد وأم واحدة .. ومادامو كذلك فالطبيعى أن يتعاونوا ومن غير الطبيعى أن تسود العداوة بينهم .. والأديان لا تدعو إلى شىء يتعارض مع العقل ..

وقال وزير الخارجية : نحن نتابع ما ينشر عنكم من أنكم حققتم تطورا مهما فى الاجتهاد والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين واهتمامكم بحقوق الإنسان ، وهناك اهتمام بنظرية صراع الحضارات ونرى أن العالم لا يحتمل هذه الصراعات .. لابد من اتفاق على أن يخدم أهل كل دين أصحاب الديانات الأخرى .. والإسلام دين يعتنقه مليار إنسان ، وعندنا فى ألمانيا ٤ ملايين مسلم .. ومعظم المسلمين من أصل تركى ، وبيننا وبين تركيا مشاكل لأنها تريد أن تصبح عضوا فى حلف الأطلنطى ونحن لنا تحفظات .. ولابد أن يكون واضحا أننا نرفض دخول تركيا حلف الأطلنطى ليس لأنها دولة مسلمة ولكن لأسباب أخرى .. بسبب عدم حل مشكلة قبرص مع اليونان ، وموقفها من قضية الأكراد ، ومن حقوق الإنسان .. وأمامنا شعوب الاتحاد السوفيتى

المسلمة تحررت .. وهذا كله يجعلنا نحتاج إلى الحوار لكيلا نتحول إلى أعداء بعضنا البعض .. نريد الحوار أيضًا مع إيران وهم متشددون ويخلقون لنا صعوبات في هذا المجال .. نحن نعرف أن الإسلام لا صلة له بالإرهاب والتطرف والاعتداء على حقوق الإنسان .. مثل هذه الأفكار غير صحيحة ولا تتفق مع العقل .. ونحن نريد الحوار لكي نصل إلى التسامح ، والاحترام المتبادل ، ولكي نبحث : ماذا تستطيع الديانات أن تقدم للإسهام في تحقيق السلام في الشرق الأوسط .. وماذا يستطيع الأزهر أن يقدم لدعم التفاهم المتزايد للحفاظ على الأمن والسلام في المنطقة ؟ ..

شيخ الأزهر : هذه الآراء نحن نحترمها وأحب أن أقرر الحقائق الآتية :

أولا : أن الاختلافات في العقائد لا يمنع من التعاون بين الأفراد والدول ، فالاختلاف قائم منذ وجدت الدنيا وإلى يوم قيام الساعة .. والعقائد في قلب ويقين كل إنسان ولا يمكن تغييرها بالاكراه . ونحن في مصر نعيش – مسلمين ومسيحيين – أخوة .. دون تفرقة .. والإسلام لا يعرف التفرقة في الحقوق والكرامة الإنسانية بسبب العقيدة واللون أو الجنس .. وعندنا مبدأ : « الدين لله والوطن للجميع » ..

والحقيقة الثانية : أننا نؤيد كل حوار هدفه أن يفهم بعضنا بعضا .. وأن نتعاون من أجل إنصاف المظلوم ومنع الظالم من الاستمرار في الظلم ..

الحقيقة الثالثة : أن أهل الديانات والحضارات جميعا لهم هدف واحد هو السلام والرخاء وإعلاء القيم الإنسانية وحقوق الإنسان ..

الحقيقة الرابعة : أن نظرية صراع الحضارات قائمة على غير أساس علمي أو منطقي .. الصراعات تقوم بسبب الأطماع والرغبة في السيطرة وسلب حقوق الآخرين .. فإذا قامت العلاقات على العدل فلن يكون هناك سبب للصراع .. نحن نقول بتعاون الحضارات وتبادل المنفعة فيما بينها ..

وزير الخارجية : إن مصر لها ثقل كبير .. أنا أرى أن الرئيس مبارك رجل دولة عظيم .. وأقدر قيادته ودوره .. وأرى أن مصر دورها أن تحافظ على التوازن والتسامح .. وكذلك الاتحاد الأوربى يجب أن يعمل للمحافظة على التوازن .. والقيادة المصرية لها احترام وتقدير فى ألمانيا دائما .. ودور مصر أن تعمل لكيلا يحدث صراع بين الحضارات .. وأنا أعتبر أن زيارتكم هذه مهمة جدا .. وأنا أسألكم أن تدعو الله فى صلاتكم لهذا المسكين وزير خارجية ألمانيا ..

وهكذا استمر الحوار الودى .. ساعة ونصف الساعة .

ولم يكن ذلك كل ما دار فى حوارات شيخ الأزهر فى ألمانيا .. ومازال هناك الكثير والمثير .. !

٤ بين الإنصاف والعداء

شارك فضيلة الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر فى الجزء الثانى من ندوة « أوربا والعالم الإسلامى » التى عقدت فى بيت ليسنج فى مدينة فولفينبوتيل فى مقاطعة سكسونيا الجنوبية وهى من أهم مقاطعات ألمانيا .. وشارك فى هذه الندوة عدد كبير من أكبر المستشرقين وأساتذة اللاهوت الألمان . وكانت فى هذه الجلسة الختامية أكثر من مفاجأة ..

فقد بدأت الجلسة بمحاضرة للبروفيسور الدكتور نيفونر بعنوان « كتاب ناتان الحكيم » الذى ألفه الكاتب الألمانى الشهير ليسنج وهى تدور حول التسامح عند المسلمين .

كانت المفاجأة أن محاضرة الدكتور نيفونر كانت دفاعا عظيما عن تسامح الإسلام على لسان أستاذ ألمانى مرموق مشهود له بالنزاهة العلمية .

بدأت المحاضرة بأن قال : إن المفكرين الأوربيين فى القرن ١٧ كانوا ينظرون إلى الإسلام على أنه دين التسامح ورأى بعضهم أن المسيحية ليست كذلك .. !

وكان المفكرون الأوربيون طوال القرنين ١٧ و ١٨ يتحدثون على الإسلام عن أنه دين تنوير واحترام العقل ، وسأذكر ثلاثة من أكبر المفكرين الغربيين . الأول هو هنرى ستاد وكان عالما فى الطب ، وقبل وفاته عام ١٦٧٦ ألف كتابا مهما جدا عن « محمد الرسول » وعن « مبادئ الإسلام » وكان هذا أول كتاب عن حياة محمد يكتب بالإنجليزية فى وقت كان الأوربيون ينظرون إلى الإسلام بشك وإلى محمد على أنه مخادع ..

وجاء هنرى ستاد وكتب بموضوعية فأنصف رسول الإسلام من حملة التشكيك والافتراء . ولم ينشر هذا الكتاب إلا فى عام ١٩١١ بعد الحروب الدينية الظالمة التى قامت باسم المسيحية ، وأشار إليها على أنها دليل على عدم التسامح بين المسيحيين ، وذكر أنه قرأ « القرافى » من علماء المسلمين ورأى فيه فكر التسامح والتنوير والتدين العاقل ، وأسس ذلك على أن الإسلام يقوم على مبادئ لا يستطيع أحد أن يختلف معه فيها ، مثل فكرة خلود الروح والحياة بعد الموت وأن الروح لا تفنى ، ومثل البعث يوم القيامة والحساب ، وقال هنرى ستاد : إنه ليس فى الإسلام غموض كما فى المسيحية ، وإن الإسلام يتفق مع العقل ، ومع الفطرة ، وكانت أهم عبارة قالها فى ذلك الوقت هى : أن كل إنسان يعيش ويفكر حسب الفطرة فهو مسلم ، وكل ديانة غير الإسلام ليست طبيعية .. وأكثر من ذلك كان هنرى ستاد : يقول : « إن الرسول محمد لم ينشر الإسلام بالسيف ، ولكن المسلمين بعده وسعوا بلادهم بالسيف ، ولم يلاحقوا غير المسلمين ، ولم يقتلوا المخالفين لهم فى العقيدة كما حدث فى المسيحية ، بل كان لأصحاب الديانات الأخرى حرية الاختيار والاحتفاظ بعقائدهم المخالفة وإعلان ذلك دون خوف فى ظل الدولة الإسلامية ..ووصل الأمر إلى حد أن أعلن هنرى ستاد أن الإسلام هو الدين الوحيد المتسامح .

هذا ما كتبه هنرى ستاد .. وهو بالطبع ليس مسلما .

* * *

وفى عام ١٧٥٢ كتب « ليسنج » لأول مرة عن الإسلام ، وقال للأوربيين : إن الإسلام دين لا يستطيع الحكم عليه إلا بعد دراسته دراسة جيدة ، ومن لم يفعل ذلك فلا يستطيع فهمه .. وكان « ليسنج » قد درس كل ما كتبه المستشرق الهولندى جورج سيل ، كما قرأ ترجمة القرآن وتاريخ العرب فى فترة الخلفاء ، وقرأ كل ما كتبه المستشرقون الذين كتبوا عن

الإسلام دون عداء أو تحيز مثل فون مارينى ، والمستشرق المشهور يوهانوبرايسكى الذى درس معه بالوثائق الاستشراقية فى الإسلام .

ويقول « ليسنج » : انظر إلى قانون محمد ماذا تجد فيه مما لا يتفق مع العقل .. ؟

المسلمون يؤمنون بإله واحد .. وبالآخرة حيث الحساب والثواب والعقاب ، من يعمل خيرا يجد خيرا ، ومن يعمل شرا جزاؤه العذاب ، وهذا هو منطق العقل .. ولماذا يتعالى المسيحيون على الإسلام بينما لم يتعال محمد على الأديان الأخرى .. إن التعالى دليل على عدم القدرة على إقناع الآخرين .. ومحمد ليست له معجزة .. وهو لم يكن محتاجا إلى معجزة .. لأنه كان يخاطب العقول .. بالمنطق .. وبالإقناع .. فإذا جاء من يقول : إنما أنا رسول من عند الله فإنه لا يحتاج إلى معجزة .. إنه يحتاج إلى أن يبلغ الرسالة التى أرسله الله بها .. فالإسلام دين بسيط ليس فيه تعقيدات ولا قضايا محيرة .. الإسلام دين يسهل الإقناع به دون معجزات .. وكل من يستعمل عقله لابد أن يتفق مع الإسلام ..

وكتب « ليسنج » نقلا عن « ريماروس » :

إننى أشعر أن كل شىء فطرى وطبيعى فى الديانة فإنه موجود فى القرآن ، وأعتقد أننى أفهم وأقتنع بسرعة بالقرآن ..

وكتب « ليسنج » إن ما يراه من عدم تسامح تجاه الإسلام هو أمر غير طبيعى .. فالمسلمون يسمحون للمسيحيين بأن يعيشوا معهم ، بينما المسيحيون يرفضون المسلمين .. !

والمسلمون يؤمنون بأن موسى رسول .. وأن المسيح رسول .. ويؤمنون بهما .. بينما ينكر المسيحيون أن محمدا رسول ..

« ليسنج » يقول : إن المسيحيين ليسوا متسامحين .. إنهم يعتقدون أن محمدا كذاب .. !

وهذه الأفكار التى جاء بها ليسنج جعلته يكتب مسرحية بعنوان « ناثان الحكيم » وتدور وقائعها فى بلاد المسلمين ..وفى نهاية المسرحية يتضح أن « ريحا » وهى بنت أحد اليهود شقيقة لمسيحى ، وأن أمهما المسيحية متزوجة من رجل مسلم مصرى ، وأنها فى الحقيقة ابنة أخت السلطان المسلم صلاح الدين ، وهى نهاية غير متوقعة .. وفى المسرحية « قصة الخواتم » حيث الأب الذى يملك خاتما فيه سر هو أنه يحمى من يملكه من الشرور والمهالك ، ولكيلا يظهر أنه يؤثر أحد أبنائه الثلاثة بهذا الخاتم دون أخويه الآخرين فقد صنع خاتمين غير حقيقيين مثل الخاتم الأصلى ، وأعطى لكل واحد من أبنائه خاتما ، وأوحى إليه أنه هو الخاتم الأصلى ، وبعد موت الأب اكتشف الأبناء الخدعة ، فلجأوا إلى القاضى لكى يحقق فى الأمر ، ويعلن أىّ الخواتم الثلاثة هو الخاتم الحقيقى ، وبعد التحقيق أعلن القاضى أنه من الأفضل أن يتصور كل منهم أن الخاتم الذى يملكه هو الخاتم الأصلى حتى لا يشعر اثنان من الثلاثة أنهما عاشا مخدوعين كل هذا العمر .. وكان « ليسنج » يقصد بالخواتم الأديان الثلاثة : المسيحية واليهودية والإسلام ، وهو يقدم للغربيين نصيحة هى ألا يبحثوا أى دين منها هو الدين الصحيح وأيها الزائف .. وعلى الأبناء الثلاثة أن يعترفوا بهذا الواقع ، وهو أن هناك ثلاثة أديان ، فإذا قالوا : إن أحد الأديان زائف فكأنهم يتهمون الأب بالخداع .. والأبناء فى النهاية لا ذنب لهم .. وفى هذه الفكرة يشير ليسنج إلى قول الله فى القرآن : ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ .

ويعلن « ليسنج » رأيه على لسان القاضى الذى يقول للأبناء الثلاثة :

– حين يكون الواحد منكم مخلصا فإنه سيجد الخاتم الذى معه

حقيقيا ، وهذا ما يؤكد عليه ليسنج : المسلم هو كل من أسلم نفسه لله ، وإذا ذكرنا الفيلسوف الألمانى جوته الذى قال : إنه إذا كان الإسلام هو إسلام النفس لله ، فكلنا نعيش مؤمنين بالإسلام ونموت فى الإسلام .

وحين مات « ليسنج » أوصى بأن توزع ثروته بالتساوى على المسلمين والمسيحيين واليهود زكاة وصدقة حتى يدرك الجميع أن الناس جميعا إخوة ولا يجوز التفرقة بين الناس بسبب اختلاف دياناتهم .. وهذه الوصية نجدها أيضا عند الفيلسوف الفرنسى الكبير فولتير ..

وكان تعليق فضيلة الإمام الأكبر :

– إن ما قاله هذا الفيلسوف الألمانى عن الإسلام يفوق ما قاله المسلمون أنفسهم ، ولو انتشرت هذه الروح من التفهم والتسامح بين أصحاب الديانات فلن تكون فى العالم عداوات .. وساد العالم التعايش والتعاون كما يريد منا الله سبحانه وتعالى .

* * *

ثم تحدث البروفيسور الدكتور هوبون وقد اعتنق الإسلام منذ سنوات طويلة ، وهو الآن ممثل المسلمين الألمان ..

قال : إن محاضرة الدكتور نيفونر عن موقف « ليسنج » من الإسلام يجب أن تطبع وتوزع على كل المشتغلين فى الإعلام فى ألمانيا لكى يعرفوا أن مفكرا كبيرا مثل « ليسنج » أنصف الإسلام بعد أن درسه وفهمه فهما صحيحا .

وقال أيضًا :

– إننى أراقب أوضاع المسلمين منذ أربعين عاما ، وقد شعرنا بسعادة حين دعا رئيس ألمانيا فى ١١ ديسمبر عام ١٩٩٥ ممثلى الإسلام إلى مقره فى برلين ، وناقش معهم أوضاع المسلمين فى ألمانيا ، وطرح نظرية هننجتون عن

صراع الحضارات التى يقصد بها صراع الأديان ، وفى ألمانيا نجد من يؤمن بهذه النظرية مما سيؤدى إلى وجود توتر فى المجتمع الألمانى .. ففى ألمانيا الآن ٤ ملايين مسلم ألمانى ، إذا لم يشعروا بالأمان فسيكون المجتمع مهددا .. وقد طلب منا الرئيس فى هذا اللقاء أن نفعل ما نستطيع لكى نمنع الصدام داخل المجتمع ، ونحقق الوفاق الاجتماعى بين المسلمين والمسيحيين فى ألمانيا ، وأريد أن أقول : إن مصلحة ألمانيا تقتضى التعايش السلمى بين المسيحيين والمسلمين فى الداخل ، وكذلك فإن البعد الخارجى يدفعنا إلى التعايش مع الدول الإسلامية .. بحيث نلتقى مع فكر المسلمين ..

ونحاول أن نتعرف عليهم عن طريق الحوار .. يجب أن نتعلم كيف نفهم « الآخر » ونتفاهم معه .. والتعايش يستلزم احترام الآخر .. لذلك فإننى أطالب بأن تقوم العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين فى ألمانيا وفى العالم كله على أساس أن يحترم بعضهم بعضا ، وهذا هو هدف الحوار ..

والحوار بين الأديان مسألة حساسة ، وأهم المخاطر أن تكون التوقعات من وراء هذا الحوار أكبر مما يجب ، أو أن يكون لدى أحد أطراف الحوار رغبة ظاهرة أو خفية لاستقطاب الآخر أو إقناعه بالخروج من عقيدته واعتناق الدين الآخر ، وأضيف إلى ذلك أن كل محاولة لإرغام « الآخر » على التخلى عن عقيدته ستؤدى إلى فتح الجروح القديمة ، وفتح الباب أمام الصراع .. الحوار ليس هدفه تغيير العقائد ، ولكن هدفه تبادل المعرفة والاقتراب من الآخر .. وقبول الآخر بدلا من موقف الرفض أو الإدانة .. كذلك يجب ألا يكون الهدف من الحوار محاولة مزج العقائد للتوصل إلى خليط منها ..

لابد أن نعترف أن هناك عدم ثقة لدى المسيحيين فى أوربا تجاه المسلمين ، والعكس صحيح أيضا .. وهذا الشعور لن يزول إلا بزوال المخاوف التى يحملها البعض تجاه البعض الآخر .. ولن يتحقق ذلك إلا حين يلتقى المسيحيون والمسلمون فى إطار احترام كل منهما لعقيدة الآخر ..

وقال الدكتور هوبون :

إننى أقول بوضوح : يجب ألا يحاول البعض استخدام الحوار وسيلة للتبشير ، وأقول للألمان : إن التفاهم والمعرفة يجب أن تحل محل العدوانية وسوء الظن .. وقد لا نجد صعوبة فى الحوار الذى يقوم مع ممثلى الكنائس ولكننا نجد صعوبة فى التعامل مع صانعى القرار السياسى ومع وسائل الإعلام ، ولذلك فإن الحوار يجب أن يبدأ مع رجال السياسة والمشتغلين بالإعلام ..

إن الرئيس الألمانى هيرتزوج هو أول رئيس ألمانى يدعو إلى حوار مع المسلمين الألمان ، والحوار هو الوسيلة الحضارية للحياة المشتركة فى بلد واحد بين المختلفين فى العقائد ، ولكى يحقق الحوار هدفه يحتاج إلى مجهودات مساعدة لتحسين إمكانات التعاون بين المسلمين وغير المسلمين .. أن ندعو المسلمين لزيارتنا لنعرف أن لديهم مبادئ وأخلاقا وقيما لا تختلف كثيرا عما لدى المسيحيين .. وأن يشارك الألمان فى احتفالات الألمان المسلمين .. يجب أن نتغلب على المخاوف .

هناك مسلمون أتراك يعيشون فى ألمانيا يحملون الجنسية الألمانية .. وهناك من لا يحملون الجنسية ، وهذا ما يجعل الإسلام غريبا فى نظر الألمان غير المسلمين ، ويولد فيهم الرغبة فى الابتعاد عن المسلمين ، ويتصورون أن على المسلمين أن يعيشوا فى أحياء خاصة بهم .. وهذا خطأ .. يجب أن ينفتح المجتمع الألمانى ويسمح للأقلية المسلمة بالاندماج فى هذا المجتمع وأن تذوب فيه . إننى أرجو أن تصل ألمانيا إلى يوم لا تكون فيه هناك تفرقة بين المسلم وغير المسلم ..

فى المجتمع الألمانى تحدث حوادث قتل واعتداء على المسلمين .. ولكى نتفادى التصعيد فإن علينا أن نتقبل فكرة الحياة المشتركة .

وأضاف الدكتور هوبون :

– إننى كمسلم أقول : إن ما يحدث فى بعض الدول الإسلامية ينعكس علينا هنا .. هناك من يوظف الإسلام وينشر الإرهاب باسم الإسلام .. وما يحدث فى أفغانستان أو الجزائر ينسب إلينا هنا ونحن أبرياء من الإرهاب .. لذلك نهيب بإخواننا المسلمين فى البلاد الإسلامية أن يرفعوا أصواتهم لتصل إلى هنا ويعلنوا أن الإسلام برىء من الإرهاب ومن العنف .. وما يقوله الإمام الأكبر شيخ الأزهر هنا يجعلنا نرفع رؤوسنا كمسلمين ألمان .. ونقول : إذا أردتم أن تعرفوا الإسلام اعرفوه من شيخ الأزهر الذى يعلن أن الإسلام برىء من الإرهاب والقتل والتطرف ..

وكانت هذه أيضا وقفة بالإنصاف .. وكانت مفاجأة ..

وقال الدكتور فان ايس منسق الندوة تعليقا على حديث الدكتور هوبون .

– لابد أن نشير إلى أهمية تغيير نظام التعليم .. ما الذى يتعلمه التلميذ عن دينه وعن دين « الآخر » ..وهذا يؤدى إلى إعلان حق المسلمين فى ألمانيا فى تعليم أبنائهم مبادئ الدين الإسلامى فى المدارس وهم ممنوعون من ذلك .. وإعطاء المسلمين حق الانتخاب .. ولا أريد أن أنكر أن فى ألمانيا شعورا عدائيا ضد الإسلام وضد الأجانب .. وهذه العنصرية قد لا يكون السبب فيها العداء للإسلام ولكن السبب هو العداء للأجانب عموما .. بدليل أن الألمان لديهم نفس الشعور العدائى تجاه الأجانب القادمين من روسيا وبولندا ..

وطلب الجميع من فضيلة الإمام الأكبر أن يقول كلمته ..

وقال الإمام الأكبر :

– أنا أوافق على ما قيل فى هذه الندوة ، فقد سمعت أفكارا حسنة لا تعكس إلا الرغبة فى الوصول إلى التعاون بين الأفراد والمجتمعات ، ولو أن المسئولين فى كل دول العالم فهموا الحقائق التى قيلت فى هذه الندوة لكانت

العداوات بسبب الخلافات العقائدية من آثار الماضى ، ولعاشت كل دولة فى استقرار وأمان مع اختلاف عقائد أبنائها ، وأحب أن أقول : إن العقول السليمة تهدف دائما إلى البناء لا الهدم ، وإلى التعمير لا الإفساد ، وإلى تقريب الناس لا تفريقهم ، وإلى غرس الفضائل ..وفى هذا درجة من الاتفاق بين العقول السليمة تضمن التعايش والأمن مهما اختلفت العقائد .

وأحب أيضًا أن أقول : إنه ليست هناك مشكلة ليس لها حل ، فكل مشكلة يمكن حلها إذا وجدت النوايا الطيبة ، والعزيمة والشجاعة ، وإذا وجدت قبل ذلك الموضوعية والعدالة . فلنبدأ بالاتفاق على أن الناس محتاجون لأن يتعلموا الموضوعية والعدالة والمساواة بين البشر ، وبعد ذلك فإن اختلاف الأديان أو اللغات أو الأقطار سيكون أمامهم من الأمور التى لا تستوجب تبادل العداء والكراهية .

وختم الدكتور فان ايس الندوة بكلمة مؤثرة قال فيها :

- إننى أشكر الإمام الأكبر شيخ الأزهر .. فقد تعلمنا منه الكثير خلال هذه الندوة .. وبعد الكلمات الرفيعة التى قالها لنا لا نجد ما نقول .. وأنا سعيد جدا لأننا ونحن لا نملك سلطة استطعنا أن نتوصل إلى اتفاق يجمع بين قلوبنا رغم اختلاف عقائدنا .. واستطعنا بروح التسامح والرغبة فى الفهم بإخلاص أن نرتفع إلى مستوى صعوبة المشكلة التى نبحثها ..

وباسم الجميع الحاضرين هنا أقدم الشكر والتحية لضيفنا الكبير صاحب الفضيلة شيخ الأزهر ..

وكانت الطائرة فى انتظار الإمام الأكبر للانتقال إلى فرانكفورت .

* * *

في الصباح كان الإمام الأكبر في طريقه إلى مدينة مانهايم للقاء مع المسلمين وأداء صلاة الجمعة والقاء كلمة ..

كان في انتظاره السيد عثمان اوتزاى رئيس الرابطة الإسلامية ، والأمين العام للرابطة الدكتور راينر البيرت والمشرف العلمى السيد بكير البوجا .. وكان فى استقباله أيضا راعى الكنيسة البروتستانتية المواجهة لمسجد السلطان سليم .. وظل هذا القس مصاحب للإمام الأكبر طول الزيارة بل وشارك فى الخدمة أثناء تقديم الغداء .. وكانت لهذه الروح أثرا بالغا فى نفس الإمام الأكبر ..

* * *

بعد الصلاة والخطبة والغداء مع مجلس إدارة المسجد والكنيسة توجه الإمام الأكبر إلى مقر رئاسة الكنيسة الإنجيلية فى هسن وناساو فى مدينة دار مشتات وكان فى انتظاره الرئيس الكنسى البروفيسور شتاين أكر ومجلس رئاسة الكنيسة وأعضاء حلقة الدراسات الإسلامية التابعة للكنيسة ..

قال رئيس الكنيسة : إننا نرحب بضيفنا العظيم ، إن هذه الزيارة تزيد من عمق العلاقات بين ألمانيا ومصر ، وبين المسيحيين والمسلمين ، وأنتم يا صاحب الفضيلة لكم مكانة رفيعة .. لأن الأزهر مؤسسة عظيمة لها تاريخ عظيم .. ولكم سمعة عالمية كعالم من أكبر علماء الإسلام ، وتتمتعون بالسماحة والأفق الواسع والقدرة على التأثير بالمنطق والعقل .. وكنيستنا تقدم الخدمة للمسلمين الذين يعيشون فى دائرة عملها .. ونحن مهتمون بالحوار بين الأديان لإقامة جسور التفاهم وإزالة المخاوف والعداوات .

وقال الإمام الأكبر :

– إن الأديان على اختلافها يجمعها أصل واحد هو إخلاص العبادة لله ودعوة المؤمنين بها إلى العدل والصدق والمحبة وتبادل المنافع والابتعاد عن العداوات والعنف واجتناب الرذائل ، ولا اختلاف بين الأديان فى ذلك . ويسرنى أن أسمع أنكم تقدمون خدماتكم للمسلمين وللمسيحيين ، فهذا يساعد على التقريب والتآلف .

وكانت المشكلة التى أراد رئيس الكنيسة رأى شيخ الأزهر فيها هى : هل إقامة الأذان بمكبرات الصوت جزء من شعائر الصلاة .. لأن المسلمين لهم مسجد صغير فى حى يسكنه الألمان المسيحيون .. ويستخدمون مكبرات الصوت فى الفجر ؛ وبذلك يزعجون الألمان فى وقت راحتهم .. والمجتمع الألمانى حريص جدا على الهدوء وتوفير النظام والهدوء .. ولا يريد المسيحيون أن يعتدوا على حق المسلمين فى الصلاة ولكنهم يطالبون بحقهم هم فى الراحة فى وقت النوم .. فهل يتعارض ذلك مع شريعة الإسلام ..

وضحكنا ..

وقد تبدو المشكلة بسيطة بالنسبة لنا ، ولكنها فى المانيا تسبب إزعاجا لا يمكن تصوره .

وقال الإمام الأكبر :

– إن المسلمين عليهم مراعاة حقوق غيرهم .. فإذا كان من حق المسلمين أن يؤدوا الصلاة ، فمن حق غير المسلمين ألا يكون ذلك على حساب راحتهم .. ومكبرات الصوت ليست من شعائر الصلاة كما يقولون .. ويكفى أن يكون الأذان بصوت هادئ .. ونحن ننصح الفريقين بالتسامح ..

ولا أستطيع أن أعبر عن شعور السعادة الذى ساد المجتمعين ..

وطلبوا من الإمام الأكبر التوقيع على هذه الفتوى ليقدموها إلى المسلمين ويطالبوهم بمراعاة حقوق « الآخر » ..

* * *

وفى لقاء شيخ الأزهر مع ممثلى الحلقة الدراسية الخاصة بالاسلام جاء القس الدكتور ثروت قادس مع كل ممثلى الكنيسة المصرية الأرثوذكسية فى ألمانيا ومعهم عدد كبير من القسس الألمان من الكنائس البروتستانية والكاثوليكية .

وظهرت مشاكل .. الدولة لم تعترف بتعليم الدين الإسلامى للمسلمين فى المدارس .

وأن بعض القسس يعلمون الدين الإسلامى للأطفال المسلمين .

وليس فى الجامعات الألمانية أقسام لتخريج معلم الدين الإسلامى .

وقال شيخ الأزهر : إنه آن الأوان لتسمح الدولة بتدريس الإسلام . وأن يقوم المدرسون المسلمون بتدريس العقائد فهم الأقدر على ذلك ، كما أن العبادات فى الدين المسيحى لا يقوم بتدريسها إلا المدرسون المسيحيون .

وقال : إن الأزهر مستعد لتأسيس كرسى فى إحدى الجامعات الألمانية لتعليم مدرس الدين الإسلامى .

وكانت السيدة قسمت الناحل حاضرة . وهى بنت حمادة الناحل الشخصية السياسية المصرية المعروفة فى الأربعينات .. وقالت ما أذهلنا ..

قالت :

– إن المشكلة التى تواجهنى كمسلمة هى مشكلة كل المسلمين فى ألمانيا الحاصلين على الجنسية الألمانية . وهى مشكلة الهوية .. لأنى مسلمة مصرية

وزوجى مسلم أوروبى .. وكنت حريصة على تعليم أبنائى الدين الإسلامى .. ولكن المدارس فى المانيا لاتعلم الدين الإسلامى ، وليس فى المنهج حصة للدين الإسلامى .. ووجدت أن أبنائى بدون دراسة للدين سوف يتعرضون لأفكار وانحرافات مادية خطيرة .. فلم أجد إلا أن أطلب تعليمهم فى حصص الدين المسيحى ، وقلت أن يتعلموا دينا أفضل من أن يجهلوا كل الأديان .. والمشكلة الأخرى أن عندنا فى ألمانيا صورا كثيرة للاسلام .. السنة .. والشيعة .. والعلوية .. والقاديانية .. والأحمدية .. واتجاهات أخرى .. والألمان يسألون : أين الإسلام بين هؤلاء ؟ .

وأجاب شيخ الأزهر :

– نحن فى مصر لا نقبل أن يلتحق أبناء المسيحيين فى فصول تعليم الدين الإسلامى ونخصص لهم مدرسين مسيحيين .. فكيف لا تفعل ألمانيا ذلك ؟ والأزهر مستعد لإعداد المنهج وإرسال مدرسين للدين الإسلامى إذا طلبت الحكومة الألمانية ذلك .

واختلاف المذاهب والطرق الإسلامية مثل اختلاف المذاهب المسيحية لا يعنى أن هناك أكثر من إسلام ، فالجميع متفقون فى الأصول ومختلفون فى الفروع .

وسأل القس فوجيل :

– منذ ٨ سنوات وسلمان رشدى مهدد بالقتل ، وقد طلبتم تشكيل لجنة من ممثلى الأديان للنظر فى مدى الكذب الذى اقترفه فى حق الإسلام .. هل تم تشكيل هذه اللجنة ؟ .

وقال شيخ الأزهر :

– لقد اقترحت هذه اللجنة منذ ٤ سنوات وقلت أنا لا أوافق على القتل ، ولكنى أيضا لا أوافق على ترك الاتهامات والافتراءات التى ذكرها سلمان

رشدى لنبى الإسلام وزوجاته وبناته .. لابد من تحقيق علمى تاريخى ، وإعلان نتيجته ، ويكفى أن يعرف العالم أن سلمان رشدى كاتب مخادع وكاذب ، وليس له دافع إلا طلب المال والشهرة بإظهار العداء للإسلام وبتلفيق الاتهامات للرسول عليه الصلاة والسلام .

وحتى الآن مازلت أطلب من بريطانيا تشكيل هذه اللجنة باعتبار أن سلمان رشدى يحمل الجنسية البريطانية .

وسأل أحد الحاضرين :

– هل تعلمون أن الجماعات المتطرفة فى تركيا لها تأثير على المسلمين الاتراك فى المانيا ؟ .

وقال شيخ الأزهر :

– هذه مسائل داخلية تختص بها الدولة الألمانية ولاشأن لنا بها .

وطلب القسس الألمان شرحا عن الأزهر وجامعته ومعاهده ونوع التعليم فيه ، وهل ممنوع دخول الفتيات جامعة الأزهر ؟

وسأل أحد القسس :

– هل يشعر شيخ الأزهر بالإحباط لأنه يدعو إلى السماحة والابتعاد عن الإرهاب ومع ذلك مازال الإرهاب موجودا ؟

وقال شيخ الأزهر :

– لا أشعر بالإحباط أبدا .. مهمتى أن أدعو إلى سبيل ربى بالحكمة والموعظة الحسنة وأن أجادل بالمنطق والعقل .. وأرى أن مساحة العقل تزداد ، وأن العقول الضيقة يقل عددها .. والإرهاب ينحسر .. ومن ينكر الحق اليوم لابد سيعترف به غدا .. والإرهاب إلى زوال .

وسؤال : ألا ترى أن الفقر هو سبب الإرهاب ..

والاجابة : هناك فقراء ليسوا إرهابيين .. وهناك إرهابيون ليسوا فقراء ..

الإرهاب تجارة لها معسكرات فى الخارج .. وهذا معلوم ولو أن هناك من يطلب حقا فليفعل ذلك دون عدوان على الآخرين .

وسؤال :

– هل الإرهابيون هم الأسرع وأكثر تقديما للخدمات للفقراء فى مصر ؟

– وأجاب شيخ الأزهر :

– من قال هذا .. إن الدولة تقدم خدمات لا حصر لها فى التعليم والعلاج والتأمينات والمعاشات والاسكان .. وهناك جمعيات تقدم مساعدات .. وليس معقولا أن يقدم الخدمات للفقراء من يقتل الآخرين غدرا ..

وسؤال : لماذا يوجه الإرهابيون أسلحتهم للأقباط فقط ؟

وأجاب شيخ الأزهر :

– إن الإرهاب يقتل غدرا المسلمين والأقباط .. وكما قال قداسة البابا شنودة فإن ضحايا الإرهاب من المسلمين أكثر من الأقباط ..

وسؤال : هل هناك خلافات بين شيخ الأزهر ووزير الأوقاف والمفتى فى مصر .

وأجاب شيخ الأزهر :

– هذه الخلافات لا وجود لها على الإطلاق .. نحن جميعا نعمل من أجل هدف واحد .. وتربطنا صداقات شخصية .. ولا أعرف من أين يأتى الإعلام فى الغرب بهذه الأكاذيب .

واستمر الحوار ساخنا .

وشيخ الأزهر يجيب برحابة صدر .

إلى أن دق جرس ..

لم يبق على موعد الطائرة إلا ساعة ..

وصفق الجميع لشيخ الأزهر .

وكان وداعا مؤثرا ..

بالعناق والقبلات .. ودعوات للحضور لندوات ومحاضرات ولقاءات وجولات ..

وسار الإمام الأكبر فى مظاهرة حب فى طريقه إلى المطار ليعود إلى القاهرة .

* * *

ويبقى أن أقول :

● إن هذه الزيارة حققت أهدافا تفوق بكثير كل ما كان متوقعا .

● وإن العلماء والمستشرقين ورجال الدين الألمان كانوا فعلا راغبين فى إقامة حوار لتفهم حقائق الإسلام .

● وإن الحكومة الإسلامية تسعى إلى التفاهم مع المسلمين الذين يعيشون فى ألمانيا بعد أن تفاقمت المشاكل نتيجة سوء الفهم وسوء المعاملة ، وتوصلت إلى حقيقة أن استيعاب المسلمين فى المجتمع الألمانى ، وقبول وجود دين آخر فى أوروبا عموما هو الحل لإعادة السلام والاستقرار فى المجتمعات الأوروبية .

● إن قضية الحوار بين الأزهر والديانات الأخرى أصبحت لها الأولوية .

وإن الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى يمثل وجها مشرقا للإسلام ، بالمنطق الذى يتحدث به . والذى يخاطب به العقل الأوروبى ويقنعه ، ولابد من أن يسعى الأزهر إلى تكوين جيل من هذا الطراز الرفيع من رجال الدين الإسلامى ، لأن رجلا واحدا لا يكفى .

ونحتاج إلى رحلات كثيرة كهذه يقوم بها شيخ الأزهر كى يصحح صورة الإسلام فى الغرب فى مواجهة حملة شرسة للتشويه .

القسم الثانى

الغـرب والإسلام

- فى بريطانيا : صورتان للإسلام
  ١ – مسلمون بلا مشاكل .
  ٢ – سلمان رشدى نموذج لحملات التشويه .
- نظرية استعمارية جديدة .
- أهداف سياسية وليست دينية .
- جذور وأصول .
- تزوير التاريخ والتضليل الإعلامى .
- أسطورة أم حقيقة .

فى بريطانيا

صورتان للإسلام

١ مسلمون بلا مشاكل

قضيت معظم أيام زيارتى لبريطانيا فى زيارات وحوارات بحثا عن حال المسلمين وصورة الإسلام فيها . ووصلت فى النهاية إلى أن صورة الإسلام فى بريطانيا أفضل بكثير عما هى فى أمريكا ودول أوربية أخرى . وإن كانت الحقيقة ليس فيها صورة واحدة عن الإسلام ، ولكن هناك صورتان مختلفتان . صورة إيجابية تعكس الإسلام على حقيقته ، وصورة أخرى مشوهة أو مزيفة يقدمها أحيانا من يجهلون حقيقة الإسلام ، وأحيانا أخرى يقدمها من يتعمد التشويه بسوء قصد لأغراض مشبوهة .

الصورة الأولى ، الإيجابية ، هى الأكثر انتشارا .. رأيتها فى المركز الإسلامى فى جامعة أكسفورد ، وفى سماح الحكومة البريطانية بتدريس الدين الإسلامى فى المدارس للتلاميذ المسلمين ، وفى المسجد القديم الذى أنشىء فى بريطانيا عام ١٨٩٠ ، وفى تجمعات المسلمين القادمين من باكستان ، وبنجلاديش ، وهم الأكثرية ، ومن البلاد العربية وتركيا ، ثم فى ازدياد حجم المسلمين البريطانيين الذين ولدوا فى بريطانيا من أبناء المهاجرين . كما رأيتها فى وجود ٦٠٠ مسجد فى بريطانيا لكل منها إمام متفرغ ، وهى منتشرة فى لندن وفى المدن الصناعية الكبرى ، أما فى لندن فإن المسجد الكبير فى ريجنت بارك ومعه المركز الثقافى الإسلامى فهما من أهم المراكز الإسلامية فى العالم الغربى .

ليست هناك إحصائية رسمية دقيقة عن عدد المسلمين فى بريطانيا ، ولكن الأرقام التى سمعتها تقول : إن أقلها مليون ، وأقصاها مليون ونصف مليون ، أكثرهم من السنة ، وأقلهم من الشيعة ، وفيهم بعض مجموعات من طائفة الإسماعيلية أو الصوفية .

وفى وزارة الخارجية وجدت من يحدثنى عن أهمية الروابط التجارية والسياسية بين بريطانيا والعالم الإسلامى ، وعن بدء استقرار أول جماعة من المسلمين فى بريطانيا بعد افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ ، وكان أول الوافدين من البحارة اليمنيين الذين أقاموا تجمعا لهم فى ساوث شيلدز على الشاطئ الشمالى الشرقى لإنجلترا ، وجاء بعدهم بحارة مسلمون ليستقروا فى الموانى الأخرى مثل ليفربول وكارديف وفى اسكتلندا .. ومنذ تلك الأيام تحولت بريطانيا إلى شعب متعدد الثقافات والأعراق ، يضم جالية من أكبر الجاليات الإسلامية فى أوربا الغربية ، فيهم الطلبة ، ورجال الأعمال ، والسياح .

* * *

وقال لى محدثى : إن الحكومة البريطانية تشدد على أهمية الاحترام والتفاهم بين بريطانيا والعالم الإسلامى ، وضرورة اعتراف الغرب بالقيم الدينية والثقافية والاجتماعية والإسلامية التقليدية ، وقال لى :

إن بريطانيا تحرص على الالتزام بمبدأ المساواة فى الفرص لجميع مواطنيها بصرف النظر عن ديانتهم ، أو لون بشرتهم ، أو أصولهم العرقية .. وليس هناك شكوى من التفرقة أو التمييز بين البريطانيين بسبب الدين . وقال أيضا : إن من بين المسلمين بريطانيين اعتنقوا الإسلام ، وقال لى : سوف تجد المسلمين فى كل المهن والقطاعات : منهم أصحاب متاجر ومعلمون ، وأطباء ، ومحامون ، ومهندسون ، وعلماء ، وهم مشاركون فى الحياة

السياسية وليسوا منعزلين ، ولهم دور فى المجالس البلدية كأعضاء منتخبين .. وفى لندن مصارف ومؤسسات تمويل يمتلكها عرب مسلمون .. وأرقام هيئة السياحة البريطانية تقول : إن أكثر من سبعة ملايين سائح من الشرق الأوسط يزورون بريطانيا سنويا ، بخلاف أعداد كبيرة من المسلمين فى الجامعات والمدارس .

وحدثنى ممثل الخارجية البريطانية عن الدكتور عبد الجليل ساجد من أشهر علماء المسلمين، حاصل على الدكتوراه فى العلوم السياسية وماجستير فى علوم القرآن وهو إمام مسجد ومركز برايتون الإسلامى فى جنوب شرق انجلترا ، وله دور ملحوظ فى المجتمع البريطانى ، وأنشأ مشروع المكتب الاستشارى للأقليات العرقية ، ومجلس تمثيل الأقليات العرقية الذى يضم ٥٨ مجموعة ثقافية ولغوية فى مقاطعة ساسكس ، بالإضافة إلى دوره البارز فى تأسيس المؤتمر الدائم لليهود والمسيحيين والمسلمين .

وقال لى ممثل الخارجية : إن حرية العبادة مكفولة في بريطانيا ، والمسلمون يؤدون شعائرهم فى كل مكان ، ويجد المسلمون فى بريطانيا فى المركز الثقافى الإسلامى فى لندن التعليم الدينى ، والخدمات الاجتماعية والفتوى فى مسائل الزواج ، ويصدر المركز « المجلة الإسلامية » التى تصدر ربع سنوية وفيها دراسات علمية متعمقة عن الإسلام .

وقال لى أحد الأصدقاء المصريين المقيمين فى لندن : إنه ليست هناك مشاكل بين المسلمين والسلطات البريطانية .. ففى سويسرا مثلا مشاكل لأنهم لا يسمحون للمسلمين بإقامة مدافن خاصة بهم تدفن فيها موتاهم بالطريقة الإسلامية ، أما فى بريطانيا فإن مراسم الدفن تتم بالطقوس الإسلامية وفى المدافن التابعة لمجالس البلدية ، وأصبح البريطانيون يعرفون أن المسلمين يرفضون دفن موتاهم فى صناديق ، ولا يمانعون فى ذلك ، وخصصوا أماكن

محددة لدفن المسلمين ، بل قامت لجنة المساواة العرقية بإصدار كتاب للمسلمين الذين عاشوا طويلا بعيدا عن بلاد المسلمين يتضمن إرشادات عن دفن الموتى بالطريقة الإسلامية .

هذه بعض ملامح صورة الإسلام فى بريطانيا ..

وفى مقر كبير أساقفة كانتربرى قابلت مساعده كانون كولين فلتشر المسئول عن الحوار بين الأديان ، وكان الحوار دافئا ، بدأ بالحديث عن زيارة فضيلة الإمام شيخ الأزهر لبريطانيا وآثارها ولقائه مع كبير الأساقفة واتفاقهما على إقامة حوار بين الإسلام والمسيحية .. وقال لى : إن هذا اللقاء كان مهما جدا ، وإن شخصية شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى تركت أثرا عميقا فى نفوس كل الذين قابلهم ، وتحدثت الصحف ومحطات التلفزيون عنه كثيرا ، لأنه قدم صورة جميلة عن سماحة الإسلام واحترامه للعقل وقدرته على التعامل مع كل العصور وكل المجتمعات ، وبراءته من الجمود والتطرف والعنف .

وقال لى مساعد كبير الأساقفة : كيف نبدأ الحوار بين الإسلام والمسيحية .. فى بريطانيا هناك اتصالات بين الأساقفة ورجال الدين الإسلامى ، واتصالات أخرى بين الكنيسة الانجيلية والكنائس الأخرى ، وصور التعاون بين المسلمين والمسيحيين كثيرة حتى أنهم اشتركوا فى إرسال مساعدات إلى مسلمى البوسنة .. فالتعاون موجود ، ولكن الحوار بين الإسلام والمسيحية على مستوى بريطانيا كيف يبدأ .. الكنيسة لها تنظيم ، وتتعامل مع الأديان التى لها تنظيم مماثل ، ولكن المسلمين فى بريطانيا ليس لهم تنظيم واحد يمثلهم حتى يمكن إقامة الحوار معه .. ويخشى كبير الأساقفة إذا بدأ الحوار مع ممثلى بعض الفئات الإسلامية أن يؤدى ذلك إلى غضب فئات إسلامية أخرى .. والفئات الإسلامية عندنا كثيرة فمع من نتحدث ؟ .. مع السنة أم الشيعة أم الصوفية .. مع الباكستانيين أم العرب ؟ ..

وقال لى مساعد كبير الأساقفة : لقد أقام كبير الأساقفة حفل عشاء تكريما لشيخ الأزهر حضره ٦٥ من أكبر الشخصيات السياسية ورجال الأعمال ورجال الدين المسلمين والمسيحيين ، ولفت نظرنا جدا روح المودة الحقيقية بين شيخ الأزهر ورجال الدين المسيحى المصريين الذين حضروا ، كانوا قريبين من بعضهم ، ولفت الانتباه أن شيخ الأزهر يعرفهم ويحمل لهم مشاعر محبة حقيقية وهم يبادلونه نفس الشعور .. وهذا يعنى أن المسلمين والمسيحيين فى مصر إخوة بالفعل .. وفى هذا الحفل طلب كبير الأساقفة من كل رجال الدين الحاضرين أن يشاركوا معه بالرأى فى كيفية بدء الحوار بين المسيحية والإسلام فى بريطانيا ، وبدأت تصل إليه آراء ومقترحات من بعضهم .. ولا نعرف هل من الأفضل أن يتم هذا الحوار بشكل رسمى أو غير رسمى ، وكبير الأساقفة مهتم بأن يركز الحوار على القضايا المشتركة ، وليس على نقاط الخلاف . وشاركه شيخ الأزهر فى هذا الرأى ، وقال له : إن مثل هذا الحوار ليس الهدف منه إقناع المسيحيين بالدخول فى الإسلام أو بيان أن الإسلام هو الأفضل أو العكس .. فمثل هذا الحوار لا يجدى ولا يفيد ، وكل أصحاب دين متمسكون بدينهم ، وهذا أمر طبيعى ، ومقتنعون بصحة ما فى دينهم وإلا ما اعتنقوه ، واعتناق الدين لا يتم بالإكراه ، ولا بالإغراء ، ولكن مسائل الاعتقاد تتصل بالوجدان والضمير واليقين ، ولذلك فإن الأزهر يرى أن يكون الحوار حول البحث عن أفضل الوسائل للتعاون بين أصحاب الديانات .. يجب أن يتعاون المؤمنون بالله فى مواجهة موجات الإلحاد ومحاولات تخريب الأديان بدس الإرهاب والعنف بين المؤمنين بها ، لأن رسالات السماء لا يمكن أن تقوم على القتل والإرهاب أبدا ..

* * *

وقال لى مساعد كبير الأساقفة : إنه سيتم عقد مؤتمر كبير فى بريطانيا

فى العام القادم يحضره جميع أساقفة الكنيسة الإنجيلية فى جميع أنحاء العالم وسيحضره ممثلون عن الكنيسة المصرية ، وموضوع المؤتمر هو بحث زيادة التعاون بين الإسلام والمسيحية على المستوى العالمى .

وقال لى : نعم .. ما تقوله صحيح .. كانت هناك صراعات بين الأديان .. وكانت الحملات الصليبية من أهم حلقات هذا الصراع .. ولكن فى التاريخ فترات طويلة عاش فيها المسلمون والمسيحيون معا فى سلام .. واستفاد الجميع من فترات التعاون وأدركوا أن الصراع لا يفيد .. ولكن لابد أن نضع فى اعتبارنا أنه ستبقى هناك دائما عناصر مسيحية وإسلامية سوف تنظر إلى العلاقات من زاوية عدائية لأسباب متعددة .. هناك صراعات ليست دينية ولكنهم يعطونها صبغة دينية لإثارة مشاعر الناس وكسب تأييدهم ..

وحين سألته كيف تنظر الكنيسة البريطانية إلى نظرية هنتنجتون عن صراع الحضارات وحتمية الصراع بين الإسلام والغرب قال : إن هذا التفسير للصراع الدولى مبسط جدا .. لقد أشار كبير الأساقفة فى لقائه مع شيخ الأزهر إلى نظرية هنتنجتون وقال : إن هذا الصراع ليس حتميا ، ويمكن تفاديه .. ونحن نقول : إن هناك بعض أمثلة لوجود توتر على الجانبين ، وظهور مشاعر عدائية هنا وهناك ، ولكن ذلك لا يعنى أن الصراع بين الإسلام والغرب حتمى ولا مفر منه كما يقول هنتنجتون .. بل إن ما نراه هو ما يجعل الحوار ، والتعايش ، والتفاهم ، مهما جدا فى هذه المرحلة من التطور السياسى الدولى .

وقال لى أيضا : إن كبير الأساقفة يدعو فى بريطانيا إلى معاملة الأقلية المسلمة معاملة حسنة ، ويركز على أهمية بناء الثقة بين المسلمين والمسيحيين فى العالم .. والحقيقة أن وسائل الإعلام تساهم فى إيجاد مناخ من عدم الثقة بين الجانبين .. حين تتحدث عن خطر الإسلام .. أو العداء للإسلام ..

أو معاداة المسلمين للمسيحية .. وهذا كلام سطحى وفيه مبالغات ، ولكنه يؤثر فى الناس ويخلق لديهم مشاعر سلبية .. أنا متأكد أن معظم الشعب البريطانى لا يخاف من الإسلام ولا من المسلمين ، ولا يشعر بمعاداة السامية ، ولكن الناس دائما لديها مخاوف من الأمور التى لا تفهمها ، ولذلك فإن التفاهم والمعرفة هما البداية لبناء جسور تعاون واحترام متبادل . الذين لا يعرفون الإسلام يشعرون بالخوف من هذا المجهول ، لذلك يجب أن يعرفوا الإسلام ليدركوا أنه ليس خطرا عليهم ، ويجب أن يقتربوا ويتعايشوا مع المسلمين ليتأكدوا أنهم بشر مثلهم ، ومؤمنون بالله ، وأن هذا الإيمان يمنعهم من إيذاء الغير ، أو الاعتداء على أرواح أو ممتلكات من يخالفهم فى الرأى أو العقيدة .. ولقد كان شيخ الأزهر رائعا فى توضيح هذه الحقائق .. ونحتاج إلى نشرها على أوسع نطاق ، لتصل إلى كل إنسان ، وبذلك لن يكون هناك تخوف ، وبالتالى لن يكون هناك صراع .

واستمر الحوار .. من جانبى وجانبه .. وقال مساعد كبير الأساقفة : لابد أن نعرف أنه من الطبيعى أن يشعر الإنسان بالتخوف من كل من يختلف عنه فى اللغة ، أو لون البشرة ، أو الأصل العرقى ، أو العقيدة .. وهناك من يتخوفون من كل ما هو أجنبى عموما .. ولكن بعد المعرفة .. وبعد التجربة .. وبعد التعايش .. تزول هذه المخاوف ، ويتعود الناس على الحياة المشتركة مع من يختلفون معهم دون توجس ..

وامتد الحوار مع حرارة المشاعر والقهوة الساخنة فى يوم أمطرت فيه السماء فى الصيف ، وتلبدت السماء بالغيوم ، ثم سطعت الشمس وكأن شيئا لم يكن ، وقال لى مساعد كبير الأساقفة الذى كان يستقبلنى تحت المظلة وثيابه وثيابى مبللة بالمطر ويودعنى مع الجو البديع .. هكذا لندن .. لعلك تحبها هكذا ..

وقد أحببت لندن هكذا .. !

* * *

وفى وزارة التعليم كان حوارى مع توم جينكين المسئول عن تعليم الديانات غير المسيحية فى مدارس بريطانيا ، وكنت أبحث .. هل يسمحون بتدريس الدين الإسلامى للتلاميذ المسلمين وهم أقلية ؟ .. وكيف ؟ .. ومن الذى يضع المنهج .. ومن الذى يقوم بالتدريس ؟ ..

وقال لى توم جينكين : إن الحقيقة التى نسلم بها هى أن بريطانيا متعددة الثقافات ، متعددة الأديان ، متعددة الأصول العرقية .. ونحن نتعامل مع هذه الحقيقة .. عندنا ثلاثة ملايين ونصف مليون بريطانى من أصول عرقية غير أوربية ، وكل الأطفال عندنا يجب أن يحصلوا على فرص متساوية فى التعليم . وسياسة المساواة فى التعليم بدأ تنفيذها منذ عام ١٩٨٨ ، وهى تراعى المتطلبات الخاصة لأبناء الأقليات .. مثل تعليمهم اللغة الإنجليزية لأن بعض الأطفال تعلموا لغة آبائهم غير الإنجليزية ، وتخصص الوزارة خمسة آلاف معلم لهؤلاء الأطفال لتحسين اللغة الإنجليزية ليتمكنوا من مواصلة الدراسة مع زملائهم ، ونراعى اختيار بعض هؤلاء المعلمين من أصول عرقية مختلفة ليكونوا نماذج لهؤلاء الأطفال ، ونراعى أيضا أن يعكس منهج الدراسة الثقافات المختلفة لكيلا يشعر التلاميذ أن المناهج وضعت للبيض فقط . والمدارس تشجع الآباء من أصول عرقية مختلفة للاشتراك فى مجالس الأمناء التى تتولى إدارتها وعدد التلاميذ المسلمين فى بريطانيا يمثلون ٣,٥٪ من جملة التلاميذ ، والوزارة تعقد اجتماعات من خلال لجان مشتركة مع الهيئات الإسلامية المختصة ، ووزير التعليم فى الحكومة الجديدة دعا إلى اجتماع مع المسلمين المسئولين عن تعليم الدين الإسلامى سيعقد فى الخريف القادم .

أما تعليم الدين الإسلامى فى المدارس فهذا موضوع حساس ، لذلك هناك لجان محلية تجتمع يشترك فيها المختصون فى كل دين لوضع مناهج تعليم الديانة مثل الإسلام ، والبوذية ، والهندوسية ، بحيث لا يعكس تعليم الدين ديانة واحدة ، ولكن يعكس مختلف الديانات .. يهمنا أن يعرف التلميذ شيئا عن الديانات الأخرى ليدرك أن هناك ديانات أخرى ..بالإضافة إلى التوسع فى تدريس الدين الخاص لكل مجموعة من التلاميذ ، وبعض المدارس التى تجد فيها مجموعة من التلاميذ المسلمين تخصص لهم مكانا للصلاة ، وتقدم وجبات خاصة للمسلمين ليس فيها لحم أو دهن الخنزير .. وفى أعياد المسلمين يمنحون التلاميذ المسلمين إجازة .. والوزارة تشجع المدارس على إعطاء حرية للتلاميذ بالنسبة للزى المدرسى .. بعض الفتيات لا يردن لبس الجونلات .. أو يفضلن وضع الحجاب .. والمدارس لا تمانع .. المشكلة أن بعض المدارس تأسست على أنها مدارس دينية مسيحية أو يهودية ، وهذه المدارس تستطيع أن تحصل من الدولة على معونة تصل إلى ٨٥٪ من مصروفاتها ، بينما تقدمت مدرستان إسلاميتان ولم توافق الوزارة على منحهما هذه المعونة ، وهذا أدى إلى شعور المجتمع الإسلامى فى بريطانيا بعدم الرضا ، واعتبروا قرار الوزارة بالرفض جاء بدون مبرر معقول ..ولكن هذا لا يمنع من أن تحصل مدارس إسلامية على معونة من الوزارة .. والآن هناك مدرسة أخرى تقدمت بطلب ..

* * *

كيف يُدرسّ الإسلام للتلاميذ ؟ ..

قال لى المسئول عن تعليم الأديان بوزارة التعليم البريطانية : إن هذا يتقرر إذا وجدت جالية إسلامية كافية فيكون لها الحق فى أن تمثل فى لجنة المناهج

وتقرر تعليم الدين الإسلامى ، ولا يتوافر معلمون مسلمون لذلك يمكن أن يقوم معلمون غير مسلمين بتعليم الإسلام للتلاميذ المسلمين .. وهذا طبعا موضوع حساس بالنسبة للمسلمين ، لأنهم يرون أن الإسلام يجب أن يعلمه مسلمون .. ولكن نحن نقول : إن التلميذ ليس مجبرا على حضور حصة الدين ، ويمكنه عدم حضور حصة الدين إذا شعر التلميذ أو ولى أمره بعدم الرضا عن أسلوب تعليم الدين .. فليس هناك امتحان فى مادة الدين .. وتعليم الدين مرن ، والمنهج يختلف من مكان لآخر لأنه يوضع محليا ولا تضعه الوزارة ، ونحن نلمس أن الآباء غير راضين عن المناهج ؛ لذلك نبحث كيفية تحسين منهج تدريس الأديان .. وليس فى بريطانيا كتاب لتدريس الدين .. وكل مدرسة حرة فى تحديد المواد التى تستعين بها فى التدريس ..

وهكذا فهمت أن هناك مشاكل فى تدريس الإسلام .. ولكنها ليست متفجرة .. والوزارة متفهمة ومستعدة للتفاهم .. وهذا شىء نادر فى أوربا .

هل معنى ذلك أن الإسلام بخير فى بريطانيا .. ؟

* * *

الإجابة نعم ولا ..

نعم الإسلام بخير نسبيا فى بريطانيا ؛ لأنها أفضل بكثير من غيرها .. والإسلام ليس بخير نسبيا ؛ لأن تيار العداء للإسلام موجود أيضا فى بريطانيا كما هو موجود فى كل دول الغرب وإن كان أقل حدة واتساعا .. والحكومة تتعامل مع الإسلام بمرونة وذكاء ..

وهناك دور كبير يقوم به الأمير تشارلز ولى العهد لوقف تيار العداء للإسلام ، وإيجاد تيار للتعاون والتفاهم ، وهو يتولى بنفسه إقامة جسور الفهم والتفاهم ..

في جامعة أكسفورد وقف ولى العهد البريطاني فى عام ١٩٩٣ ليدافع عن أهمية العلاقات بين الإسلام والغرب .. وبعد أن قام بزيارة إلى مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية القى محاضرة ركز فيها على نقاط تستطيع من خلالها أن تفهم طبيعة « الرسالة » التى أراد أن يوجهها .. وتدرك أن هذه المحاضرة لم تكن مجرد محاضرة فى جامعة ، ولا هى تحية لأصحاب دين ترى بريطانيا أهمية الحرص على العلاقات الطيبة معهم .. ولكن هناك ما هو أهم .. مثل قوله :

● أحدثكم عن موضوع الإسلام والغرب لأننى مؤمن بأن العلاقات بين هذين العالمين تتسم الآن بالأهمية أكثر من أى وقت مضى ..

● إن درجة سوء الفهم بين العالمين الإسلامى والغربى ماتزال عالية على نحو خطير .

● إن الحاجة إلى تعايش الجانبين أكبر من أى وقت مضى .

● أنا أدرك طبيعة حقول الألغام على الطريق بين الإسلام والغرب .

● سوء الفهم للإسلام بالنسبة للغرب لا يمكن أن يكون حصيلة الجهل ، فهناك الف مليون مسلم فى شتى أرجاء العالم ، ويعيش الملايين منهم فى دول الكومنولث ، وهناك عشرة ملايين مسلم أو أكثر فى الغرب ، ومنهم مليون فى بريطانيا ، والجالية الإسلامية تنمو .. والاهتمام الشعبى بالثقافة الإسلامية يتنامى . إن الإسلام يحيط بنا من كل جانب ، ومع ذلك يستمر الشك والخوف .

● من الغريب أن يستمر سوء الفهم بين الإسلام والغرب ، فالذى يربط بين العالمين أقوى مما يقسمهما ، فالمسلمون والمسيحيون واليهود جميعهم : « أهل الكتاب » والإسلام والمسيحية يشتركان فى النظرة الوحدانية : الإيمان بإله واحد ، وبأن الحياة الدنيا فانية ، وبالمسئولية عن أعمالنا ، والإيمان

بالآخرة .. إننا نشترك فى كثير من القيم : احترام المعرفة ، والعدل ، والرأفة بالفقراء ، وأهمية الأسرة ، واحترام الوالدين .

• معظم التاريخ تميز بالصراع بين العالمين المسيحى والإسلامى ، وكثيرا ما اتسمت فترة ١٤ قرنا بالعداء المتبادل ، وأدى ذلك إلى نشأة الخوف والشك .

• العالم الإسلامى والعالم الغربى ينظران إلى الماضى بمنظورين مختلفين : بالنسبة لتلاميذ المدارس الغربية تعتبر الحروب الصليبية التى استمرت ٢٠٠ عام سلسلة من الأعمال البطولية والمجيدة حاول خلالها الملوك والفرسان والأمراء الأوربيون تخليص القدس من أيدى « الكفار » المسلمين الأشرار .

• أما المسلمون فيعتبرون الحروب الصليبية حقبة من الوحشية وأعمال السلب والنهب قام بها المرتزقة الغربيون « الكفار » .. وكذلك الفضائح المرعبة من المذابح التى ارتكبها الصليبيون عندما استردوا القدس عام ١٠٩٩ ميلادية .. والقدس ثالثة المدن المقدسة عند المسلمين .

• وعام ١٤٩٢ م فى الغرب عام الآفاق الجديدة باكتشاف كولمبوس الأمريكتين ، وبالنسبة للمسلمين هو عام مأساة سقوط قرطبة فى أيدى فرديناند وازابيلا ، وانتهت بذلك ٨ قرون من الحضارة الإسلامية فى أوربا .

• المسألة ليست فى تحديد أى الصورتين أكثر صحة وأيهما تنكر الحقيقة .. المسألة هى سوء التفاهم والفشل فى معرفة رؤية الآخرين .

• نتيجة لنظرتنا إلى تاريخنا فى الغرب فإن الإسلام يعتبر تهديدا ، بالفتح العسكرى فى العصور الوسطى ، وبالتطرف والإرهاب وعدم التسامح فى العصر الحديث .

• كثيرون فى الغرب ينظرون إلى الإسلام بمنظار الحرب الأهلية المأساوية

فى لبنان ، والقتل والتفجير الذى تقوم به جماعات متطرفة فى الشرق الأوسط ، وبما يشار إليه عموما بعبارة « الأصولية الإسلامية » .

● لقد عانى حكمنا على الإسلام من التحريف الجسيم باعتبار التطرف هو القاعدة ، وهذا خطأ جسيم . مثل الحكم على نوعية الحياة فى بريطانيا من خلال جرائم القتل والاغتصاب والاعتداء على الأطفال وإدمان المخدرات .

● كثيرا ما يجادل الناس فى الغرب بأن قوانين الشريعة فى العالم الإسلامى قاسية ووحشية ومجحفة ، وتروّج صحفنا هذه الأفكار الظالمة .. واعتقادى أن روح الشريعة الإسلامية هى الإنصاف والرحمة . علينا أن ندرس التطبيق الفعلى للشريعة قبل أن نصدر أحكامنا .

علينا أن نميز بين أنظمة العدالة الحقة وأنظمة العـــدالة التى نراها فى التطبيق تُحَرِّفُ الشريعة لأغراض سياسية وتحولهـــا إلى شىء ليس إسلاميا .

● وعلينا أن نتذكر النقاش فى العالم الإسلامى حول تطور فهم وتطبيق القانون الإسلامى باستمرار .

● وعلينا أن نفرق بين ما هو « إسلام »وما هو « عادات » فى بعض البلاد الإسلامية .

● وتذكروا أن دولا إسلامية مثل مصر وسوريا منحت المرأة حق التصويت فى نفس الفترة التى منحت فيها أوربا المرأة هذا الحق ، وقبل سويسرا بفترة طويلة ، وفيها تتمتع المرأة بالمساواة فى الأجور والعمل . والقرآن نص منذ ١٤ قرنا على حق المرأة المسلمة فى التملك والإرث وبعض الحماية فى حالة الطلاق ، هذا يعنى أن الإسلام لا يظلم المرأة .. وبعض هذه الحقوق غريبة حتى على جيل جدتى فى بريطانيا .. بينظير بوتو والبيجوم خالدة ضياء أصبحتا رئيستين للوزراء عندما شهدت بريطانيا أول رئيسة وزراء فى

تاريخها .. ! فالنساء لسن من الدرجة الثانية فى المجتمعات الإسلامية .. ولا نأخذ أشد الدول الإسلامية تحفظا كمثال لتطبيق الإسلام .

● علينا أن نفهم نظرة العالم الإسلامى الينا والتخوف من المادية الغربية .

● علينا أن نحذر كلمة « الأصولية » تلك التسمية المثيرة للعواطف .

● وعلينا أن نفرق بين دعاة الصحوة الإسلامية الذين يدعون إلى التقوى ، وبين المتعصبين والمتطرفين الذين يستخدمون الدين لتحقيق أهداف سياسية .

● علينا ألا ننساق وراء الاعتقاد بأن التطرف هو سمة المسلم وجوهره ، فالتطرف ليس حكرا على الإسلام بل فى ديانات أخرى بما فيها المسيحية .

● الغالبية العظمى من المسلمين يتسمون بالاعتدال السياسى ودينهم هو « دين الاعتدال » والنبى محمد نفسه كان يمقت التطرف .

● علينا أن نتعلم التمييز بوضوح بين ما تؤمن به الغالبية العظمى من المسلمين ، وبين أعمال العنف التى تقوم بها أقلية صغيرة .

● إذا كان هناك قدر كبير من سوء الفهم فى الغرب لطبيعة الإسلام ، فإن هناك قدرا مساويا من الجهل بالفضل الذى تدين به ثقافتنا وحضارتنا للعالم الإسلامى ، فالعالم الإسلامى فى العصور الوسطى من آسيا الصغرى إلى شواطئ الأطلسى ، ازدهر فيه الباحثون المتخصصون ورجال العلم ، ولكن لأننا نميل إلى اعتبار الإسلام عدوا للغرب وغريبا عنا فى العقيدة والثقافة والنظام ، لذلك لجأنا إلى تجاهل أو محو أهميته فى تاريخنا . وعلى سبيل المثال قللنا من أهمية ٨٠٠ سنة من الثقافة الإسلامية فى أسبانيا بين القرنين الثامن والخامس عشر ، وكانت أسبانيا فى ذلك العصر وهى فى ظل الحكم الإسلامى هى التى حافظت على العلوم الكلاسيكية خلال عصور الظلام وهى التى وضعت اللبنات الأولى للنهضة الأوربية ، وقد ساهم ابن رشد ، وابن

زهر في الأندلس كما ساهم ابن سينا والرازى فى الشرق في دراسة الطب وممارسته واستفادت منهما أوربا لقرون عديدة .

● نحن نعرف عن وجود مكتبات عامة فى أسبانيا الإسلامية فى الوقت الذى كان فيه الملك الفريد يرتكب أخطاء جسيمة فى فنون الطبخ فى بريطانيا . وأساليب البحث العلمي وعلم الإنسان وآداب السلوك والطبّ البديل والمستشفيات جاء إلينا من أسبانيا الإسلامية .

● أن الإسلام فى العصور الوسطى اتسم بقدر كبير من التسامح ، فقد منح اليهود والمسيحيين حق ممارسة معتقداتهم ، وكان بذلك قدوة لم تحتذ بها دول كثيرة فى الغرب .

● إن الإسلام جزء من ماضى الغرب وحاضره فى جميع مجالات البحث الإنسانى ، وساهم فى إنشاء أوربا المعاصرة ، فالإسلام جزء من تراث الغرب وليس شيئا منفصلا عنه .

● والإسلام يمكن أن يعلم الغرب طريقة للتفاهم والتعايش مع العالم ، وهذا أمر فقدته الديانة المسيحية مما أدى إلى ضعفها .

● يشترك العالم الإسلامى والعالم الغربى فى مشكلات تمسنا جميعا .. التغير الاجتماعى .. اغتراب الشباب .. الإيدز .. المخدرات .. تفكك العائلة .. مشاكل البيئة .. وعلينا أن نعمل معا لحل هذه المشكلات التى تهدد مجتمعاتنا وحياتنا ، وأن مجرد تعرفنا على بعضنا البعض يمكن أن يحقق معجزات .

● علينا أن نتعلم أن نفهم بعضنا البعض . علينا أن نظهر الثقة والاحترام المتبادل بيننا .

● وعلينا أن نتفاهم .. ونتسامح .. ونبنى على أساس المبادئ الإيجابية التى تشترك فيها ثقافاتنا .

• إننى على قناعة تامة بأن العالمين : الإسلامى والغربى يمكن أن يتعلما من بعضهما البعض ، فكما أن مهندس البترول فى الخليج يمكن أن يكون أوربيا ، فإن جراح زراعة القلب فى بريطانيا يمكن أن يكون مصريا ..

• إن العالم الإسلامى والعالم الغربى وصلا الآن إلى مفترق طرق فى علاقاتهما ، ولا يجوز أن نجعلهما يفترقان .. !

• وأنا لا أوافق على أن العالم الإسلامى والعالم الغربى يتجهان نحو صدام ، وعهد جديد من الخصومة والعداء .. وهناك الكثير مما يجب أن نقوم به معا . وعلينا أن نقضى على شبح الشك والخوف .

* * *

هذا التحليل الذى قدمه الأمير تشارلز شاركت فى حوار طويل عنه وعما فيه من نضج يجعله بداية طيبة يجب أن يشارك المثقفون فى الغرب والمثقفون فى العالم الإسلامى فى البناء عليه . خاصة إذا أضيف إليه الجهد الذى يبذله الإمام الأكبر شيخ الأزهر فى جولاته الأوربية وحرصه على إعادة الثقة بين الجانبين ، وتوضيح حقيقة الإسلام فى الغرب .. وكان الحوار فى مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية .

فى هذا المركز التقيت بالدكتور باسل مصطفى والدكتور عاصم زوبسفيك ، وبعد جولة فى بعض كليات جامعة أكسفورد ، وفى المركز جلست أسأل وأناقش ..

أول كرسى جامعى كان فى جامعة كمبريدج كان فى القرن ١٧ عام ١٦٣٢ وفى جامعة أكسفورد بعد ذلك بأربع سنوات . وأول نسخة من القرآن مترجمة إلى الإنجليزية نشرها المحامى جورج سايل عام ١٧٣٤ ، والآن هناك ترجمات كثيرة للقرآن .

أما مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية فقد تأسس عام ١٩٨٥ مرتبطا بجامعة أكسفورد ، والهدف من إنشائه هو تعزيز فهم الإسلام ، والعالم الإسلامى ، والتراث الإسلامى .. وهو ينظم برامج للتدريس وندوات ثقافية ومؤتمرات ، ويشارك فى الأبحاث ، ويجد رعاية من الأمير تشارلز ، ومن خادم الحرمين ، ومن سلطان بروناى ، ويديره مجلس أمناء يضم نخبة من الشخصيات الإسلامية البارزة ، مع ممثلين عن جامعة أكسفورد ، ويتولى المركز تنفيذ مشروعين كبيرين : الأول هو مشروع الأطلس الإسلامى يسجل كل المعلومات عن المناطق الحضارية فى العالم الإسلامى ، والمجلد الأول على وشك الصدور وهو عن جنوب آسيا وشاركت فى تمويله بعض المؤسسات الأمريكية ، والثانى إعداد موسوعة عن تاريخ العالم الإسلامى من ١٢ مجلدا . فى نهاية عام ١٩٩١ زار المركز الأمير السعودى بندر بن سلطان وأعلن عن مساهمة خادم الحرمين فى بناء مقر خاص للمركز خصص له ٢٠ مليون جنيه استرلينى . ويصدر المركز مجلة دورية متخصصة ذات مستوى علمى رفيع عن كل قضايا وشئون العالم الإسلامى .

وبين المركز وجامعات الأزهر والقاهرة وعين شمس اتفاقات للتعاون وتبادل الأساتذة والمراجع ولم تنفذ هذه الاتفاقات .. !

وليس المركز الإسلامى فى جامعة أكسفورد هو الوحيد فى بريطانيا ..

وفى بريطانيا منظمات تشجع التربية الإسلامية مثل : المجلس الوطنى للتربية الإسلامية ، وأمانة التربية الإسلامية ، والاتحاد الفيدرالى لجمعيات الطلبة المسلمين فى الجامعات البريطانية ، وهناك فصول مسائية لتدريس الدين الإسلامى ، كما أن هناك ٢٢ مدرسة إسلامية مستقلة يدخلها التلاميذ الذين يريدون تعليما إسلاميا خالصا ، ولا يمنع القانون البريطانى تأسيس مدارس مستقلة ..

هكذا يفاخرون في بريطانيا وهم يتحدثون عن الحريات الدينية وعدم وجود اضطهاد دينى أو حساسية دينية كما يحدث فى بعض بلاد الغرب الأخرى .

ويفاخرون أيضا بمحاضرة ثانية القاها الأمير تشارلز فى العام الماضى فى مركز أكسفورد للدراسات الإسلامية باعتباره الراعى الفخرى لهذا المركز وقال فيها : إن النزعة المادية الحديثة غير متوازنة وضارة ، وقد أصبح الدين والعلم منفصلين ، والآن فقط بدأنا فى إدراك النتائج المدمرة لهذه النظرة .. ويستشهد الأمير تشارلز بالآية الكريمة :﴿ فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ ليدلل على الربط بين ما هو مادى وما هو إلهى ، وقال الأمير تشارلز فى محاضرته تلك بأن هناك كلية الدراسات الشرقية أسستها جامعة لندن عام ١٩١٦ وهى أكبر مركز بريطانى للدراسات المتعلقة بالعالم الإسلامى .

وفى جامعة كمبريدج قسم خاص للدراسات الإسلامية والشرق أوسطية وكذلك فى جامعة درم . وفى جامعة ادنبره كرسى للدراسات العربية والإسلامية بمنحة من جامعة بغداد . وهناك جامعات كثيرة جدا فى بريطانيا فيها دراسات إسلامية وعربية ، وآخرها معهد الدراسات الإسماعيلية فى لندن الذى أسسه عام ١٩٧٧ الأغاخان .

فى لندن مكتب لرابطة العالم الإسلامى منذ عام ١٩٨٤ .

واتحاد المنظمات الإسلامية فى بريطانيا تأسس عام ١٩٧٠ يضم منظمات إسلامية متعددة وينظم نشاطها .

وهناك « لجنة عمل الشئون الإسلامية » تأسست بعد صدور كتاب سلمان رشدى « آيات شيطانية » وما أثاره هذا الكتاب من ضجة عظمى .. وتطالب هذه اللجنة بإصدار تشريع يحظر التمييز الدينى والتحريضى على الكراهية الدينية .

والمؤسسات التربوية فى بريطانيا أصبحت ملزمة منذ عام ١٩٨٩ بقانون « العلاقات بين الأعراق » يمنع التمييز العرقى فى التعليم ، بإقامة صلات جديدة بين الحضارة الإسلامية والغرب ، وبأن يكون فى المدارس البريطانية أساتذة أكثر من المسلمين ، وتشجيع تبادل الأساتذة بين الجامعات البريطانية والجامعات الإسلامية وختم محاضرته بقوله : « إننا فى الغرب نحتاج إلى أن نتعلم على أيدى أساتذة مسلمين كيف نتعلم بقلوبنا وعقولنا معا » .

* * *

هذه بعض ملامح صورة من صورتين للإسلام فى بريطانيا .. صورة فيها احترام بدرجة معقولة ، ورغبة فى التفاهم ، واعتراف ببعض حقائق الإسلام ، ودفاع لا بأس به عن هذا الدين على أنه ليس دين الجهل ، والكراهية ، والتطرف ، وليس دين العداء للآخر ، ولكنه دين التسامح والتعاون ..

لكن ذلك كله ليس إلا جانبا من وجهى العملة فى بريطانيا ..

الوجه الآخر هو تكرار لما نراه فى الغرب عموما ..

وهناك من ينفخ فى النار ، ويثير مخاوف البريطانيين من الإسلام والمسلمين ،ويستغل جهل الناس العاديين فيقدم لهم مبادئ الإسلام مشوهة ، ويسئ إلى نبى الإسلام حتى يظهره فى أبشع صوره ، ويتعمد الخلط فى وقائع التاريخ الإسلامى ليحقق أهدافا خبيثة ، ويشوه نصوص القرآن الكريم وأحاديث الرسول ﷺ .

باختصار .. إن فى بريطانيا صورة أخرى تستحق أن نعرفها ..

٢ سلمان رشدى
نموذج لحملات التشويه

ساد التوتر فى كل أنحاء العالم الإسلامى بعد أن شاهد المسلمون على شاشات التليفزيون فى آخر أيام يونيو ٩٧ ملصقات بذيئة على جدران البيوت فى القدس تصور الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم فى صورة خنزير والقرآن ملقى تحت أقدامه . وقيل أن هذه المنشورات رسمتها امرأة اسرائيلية اسمها « تاتيانا » وإن المنظمات الصهيونية المتطرفة قامت بتوزيعها تحديا لمشاعر الفلسطينيين .

وبعد ساعات من ظهور هذه المنشورات فى محطات التليفزيون الأمريكية والأوربية أصبحت هذه المنشورات القصة الرئيسية فى كل صحف العالم ، وانتشر الغليان والتوتر فى أنحاء العالم الإسلامى .. فى القاهرة ، والسعودية ، والرباط ، وباكستان ، وإيران ، ثم فى كل الدول والمدن الإسلامية دون استثناء ..

وظهرت خطورة اللعبة .

إن الصراع العربى الإسرائيلى فى حقيقته صراع سياسى .. صراع على الأرض والحقوق والسيادة .. ولكن تبين أن هناك منظمات صهيونية تريد نقل الصراع من صراع سياسى إلى صراع دينى لكى يتحول من صراع يمكن حله إلى صدام أبدى لا يمكن حله .

وكشفت القصة فى نفس الوقت أن هناك من يحمل الكراهية والعداء للإسلام .. وليس ذلك جديدا ..

وسيظل العداء للإسلام قائما فى قلوب سوداء ، وسوف يموت هؤلاء بغيظهم كمدا ، ويبقى الإسلام حيا ، ليس لأن المسلمين مستعدون للاستشهاد دفاعا عنه ، ولكن لأن الله هو الذى يحمى دينه الحق ، وكتابه الكريم .. ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ ..

ولن تكون « تاتيانا » إلا فقاعة تافهة .. صناعة إسرائيلية ، مثل فقاعات كثيرة جدًا .. آلاف الفقاعات كانت أكبر وأضخم .. ظهرت فى الغرب .. لم يكن أولهم سلمان رشدى .. ولكن سبقه مئات ذهبوا جميعا إلى النسيان .. وأهملهم التاريخ .

وهذا يعيدنا إلى استكمال الحديث عن الصورتين اللتين رأيت عليهما الإسلام فى بريطانيا .

الصورة الثانية للإسلام فى بريطانيا ليست إلا تجسيدًا وتكرارًا لموقف الغرب من الإسلام عموما ..

وفى هذه الصورة تفاصيل كثيرة ..ولعل قصة سلمان رشدى « آيات شيطانية » وما أحاط بها تكفى لنعرف منها الكثير .. فقد تركزت عليها أضواء الإعلام بشكل مبالغ فيه جعلها تبدو كأنها أهم أحداث القرن العشرين .. وظلت الصحافة البريطانية تكتب عنها صفحات وصفحات .. ومحطات التليفزيون تقدم سلمان رشدى على أنه عبقرى هذا العصر وتنقل ندوات وأحاديث ولقاءات مع شخصيات مشهورة لتتحدث عن الرواية ومؤلفها .. وفى يوم وليلة حقق سلمان رشدى ثروة تقدر بملايين الجنيهات الاسترلينية .. وبعدها جاءت فتوى الخمينى فى إيران بإباحة قتله .. فكان هذا هو المطلوب للإساءة إلى الإسلام مرتين : مرة بإعادة عرض الرواية وما فيها من انحطاط فكرى وأخلاقى .. ومرة أخرى بتصوير أن الإسلام هو دين القتل وأن المسلمين لا يعرفون إلا الإرهاب وسيلة للتفاهم مع من يختلف معهم .

ودخل سلمان رشدى التاريخ دون مبرر هو وروايته « آيات شيطانية » .

والأمر الغريب أن سلمان رشدى ليس شكسبير ولا هيمنجواى ولا أندريه جيد .. بمعنى أنه ليس من عباقرة الكتاب والأدباء العالميين . ولكنه – باعتراف النقاد فى الغرب – كاتب من الدرجة الثانية .

والأغرب من ذلك أن الرواية – باعتراف النقاد الغربيين أيضًا – ليست إلا عملا من الدرجة الثالثة ، فالأسلوب ليس بليغا ولكنه معقد وسخيف .. !

والبناء الروائى ليس محكما .. ولا يمكن أن تكون هذه الرواية الركيكة من الأعمال الفنية التى تستحق كل هذا الصخب العالمى الذى حظيت به .

كل ما فى الأمر أن كاتب الرواية مسلم أعلن الردة ، وأطلق لقلمه ولسانه العنان فى سب الإسلام وشريعته وكتابه ورسوله وصحابته ، وأعلن أنه فخور لأنه تخلص من هذا الدين ومعتقداته ومن تخلف شعوب الشرق الإسلامى ، وجاءت روايته مليئة بالسب فى الإسلام وبيت النبوة بألفاظ بذيئة ، ومع أن الرواية ليست إلا هلوسة فنية وعقلية كما قال عنها النقاد إلا أن الصحافة ووسائل الإعلام الغربى تلقفت الرواية باهتمام غير عادى ، ودارت عجلة الدعاية تقدمها كأنها وثيقة عالمية لإدانة الإسلام وأهله .

وكما هى العادة جاءت الانفعالات المتوقعة من الجانب الإسلامى الذى كان فى انتظارها .. وصدرت فتوى الخمينى فى إيران بإهدار دم سلمان رشدى وإباحة قتله ، وعلى جميع المسلمين تنفيذ ذلك أينما وجدوا .. وكانت هذه هى الجائزة الكبرى التى حصل عليها الغرب من حملتهم لإثارة مشاعر المسلمين .. فامتلأت الصحف والإذاعات وقنوات التليفزيون بأحاديث عن الإسلام الذى لا يتعامل مع المختلفين معه فى الرأى إلا بالقتل ، وجاءت التحليلات الجاهزة بأن الإسلام دين عنف ، وقتل ، وسفك دماء ، وبأن

المسلمين لا يسمحون باختلاف الرأى ، وهدفهم دائما قتل كل من يخالفهم فى الرأى والعقيدة .

وكلما انطفأت جذوة الموضوع وجدت من ينفخ فيها لتشتعل من جديد ، حتى أن الرواية – وفتوى الخمينى – صدرتا عام ١٩٨٨ ولكن الحديث عنهما مازال مشتعلا حتى الآن ..

أذهب إلى الولايات المتحدة ، ثم إلى ألمانيا ، ثم إلى بريطانيا ، وأشارك فى حوارات وأحاديث مع جماعات مختلفة من أساتذة الجامعات ، ورجال الدين المسيحى واليهودى ، ورجال السياسة ، والصحفيين ، والمسئولين فى الحكومات ، فأجد أن قضية سلمان رشدى لابد أن تثار .. ولم يخلُ لقاء مع أى شخص غربى صاحب فكر أو حتى شخص عادى .. موظفا كان فى محل تجارى أو عاملا فى مطعم إلا ويسألنى : لماذا لا يحتمل المسلمون النقد .. ؟ لماذا يحرم الإسلام حرية التفكير .. ؟ لماذا تقتلون المختلفين معكم .. ؟

إما أن يرددوا ما تقولونَ وإما أن يفقدوا حياتهم .. ؟

سمعت هذه الأسئلة وأمثالها كثيرا بشكل جعلنى أرى أن هناك من يجعل من « الحبة قبة » كما يقول المثل الشعبى .

* * *

سلمان رشدى فى روايته لم يترك شخصية فى الإسلام إلا ووجه إليها السباب بألفاظ بذيئة ، ليست نقدا ، ولا تحليلا ، ولا تصويرا ، ولكنها شتائم وإهانات ..

ووجه هذه الشتائم إلى الصحابة بأسمائهم ، وأشار إلى الرسول صلى الله عليه وسلم باسم « ماهاوند » ليشير إلى أنه شرير ونبى مزيف مصاب بالصرع والهلوسة ولا يتورع عن أى عمل مهما يكن متعارضا مع المبادئ الأخلاقية

مادام يحقق له غرضه ، ويصور زوجات الرسول – أمهات المؤمنين – على أنهن مجموعة غانيات يعملن فى بيت للدعارة يحمل اسم « الحجاب » وكبيرتهن تروى كيف تزوجها النبى هى والسيدة عائشة فى يوم واحد ، ومكة المكرمة مدينة الجاهلية ، والرسول صلى الله عليه وسلم نبى الجاهلية ، ورئيس الملائكة من مؤيدى اللواط ، وجبريل مخلوق بذىء اللسان ، وأن الشيطان خدع الرسول صلى الله عليه وسلم وأجرى على لسانه آيات تجعل لأوثان الجاهلية : اللات والعزى ومناة شفاعة ترتجى (!) وأن الصحابى الجليل سلمان الفارسى رضى الله عنه قام بتزوير الوحى وخداع الرسول .

والمثير فى الموضوع أن مؤلفا هزيلا كهذا ، ورواية هزيلة كهذه ، سخيفة ، مليئة بالأكاذيب ، والعداء الصريح ، والاتهامات البذيئة ، ولا تستند إلى أى مصدر تاريخى ، كيف يمكن أن تنال كل هذا الاهتمام فى دول الغرب دون استثناء ، وهل كل هذه الضجة التى أثيرت حول فتوى الخمينى كان مقصودا بها تكريس حملة العداء للخمينى وإيران وتأكيد اتهام إيران بالإرهاب ، أو كان الهدف هو دفع كل غربى إلى قراءة هذه الأكاذيب والنظر إليها على أنها حقائق ، وبذلك تكون هذه الرواية ، والحملة على الإسلام على أنه دين العنف والإرهاب ، قد حققت هدفا كبيرا هو زيادة تشويه صورة الإسلام والمسلمين فى الغرب ؟

ولكى ندرك البعد الحقيقى لهذه المعركة المفتعلة علينا أن نتذرع بالصبر ، ونحتمل البذاءة ، لكى نعرف بالضبط من هو سلمان رشدى وما هى قضيته ، وهل هى قضية حرية رأى وحق فى الاختلاف كما يقال فى الغرب ؟ .

وسجل حياة سلمان رشدى يشير إلى كاتب عادى جدًا ليست لديه مواهب خارقة ، فهو أولا مولود فى بومباى بالهند فى عام ١٩٤٨ الذى تمت فيه عملية تقسيم الهند وإعلان قيام دولة باكستان ، وانتقلت أسرته إلى باكستان

باعتبارها أسرة مسلمة ، وأرسله أبوه للدراسة فى إنجلترا وهو مازال حدثا فى الثالثة عشرة من عمره ، فانبهر بالحضارة الغربية ،ودخل تجربة انسحاق الشخصية أمام ما رآه في جامعة اكسفورد حيث تعلم ، وارتضى أن يتخلى عن شخصيته وعقله وجنسيته ، ولا أحد يعرف كيف حصل على الجنسية البريطانية ، ثم عاد إلى باكستان ليعمل فى التليفزيون ولكنه فشل وفصل من عمله فعاد إلى إنجلترا وتزوج فتاة بريطانية قدمته إلى أصحاب دور النشر ، وكانت السلعة التى يعرضها هى كتاب لتشريح مجتمع بومباى وإظهار مفاسده وتناقضاته وتخلف المجتمع الهندى فى روايته « أطفال منتصف الليل » ، وحصل عنها على جائزة « بوكر » الأدبية عام ١٩٨١ ، وبعد عشر سنوات طلق زوجته البريطانية وتزوج أخرى أمريكية ، ونشر رواية بعنوان « العار » لم تلق اهتماما ، وأخيرا أصدر روايته « آيات شيطانية » التى جعلته أشهر كاتب فى بريطانيا وأوربا كلها وأمريكا ، وحققت له أرباحا بلغت ملايين الجنيهات الاسترلينية ، وانتقل إلى فيلا اشتراها فى أرقى حى فى لندن ، وجند لحراسته شركات وأفرادا مسلحين .. وأصبحت السلعة الرائجة التى تدر عليه الملايين هى فتوى الخمينى بإهدار دمه ..

* * *

ولو كان سلمان رشدى قد ترك للإهمال والنسيان من جانب العالم الإسلامى لكانت الضجة قد انتهت بعد فترة حين يصل المحرضون والمحركون الحقيقيون إلى اليأس من تحقيق أهدافهم .. ولكن الخمينى تعجل واندفع وقدم للغرب ما كان يريده .. لكى يستخدمه كدليل على أن الإسلام دين قتل وإرهاب .

* * *

ولابد أن نضع فى اعتبارنا أن دار النشر التى نشرت الرواية هى دار النشر البريطانية اليهودية « بنجوين » .

والرواية من ٩ فصول تحمل العناوين الآتية : الملاك جبريل – ماهاوند – اللوين ديونى – عائشة – مدينة مرئية لا يمكن مشاهدتها – العودة إلى الجاهلية – الملاك عزرائيل – مفارقة البحر العربى – المصباح المدهش .

يبدأ الفصل الأول بوصف حادث انفجار إحدى طائرات البوينج ٧٤٧ التى تحمل اسم « البستان » – وهو أحد أسماء الجنة الذى يرمز إلى البعث من جديد – أثناء عبورها فوق القنال الإنجليزى على أثر وقوعها فى أيدى المختطفين وسقوط اثنين من ركاب الطائرة – يرمز لهما المؤلف باسم جبريل فاريشتا النجم السينمائى الهندى الشهير وصلاح الدين تشامشا .. ويحتوى هذا الفصل على خواطر وهذيان الناجيين الوحيدين من الحادث أثناء هبوطهما وسط بقايا الطائرة المنكوبة وأشلاء الضحايا المتناثرة . ثم يصف المؤلف شغف جبريل بالتناسخ وولعه بالقصص التى رددتها له أمه عن النبى محمد ، ثم يعترف ببعض الخواطر التجديفية التى واتت جبريل حول النبى وكيف كان يقارن نفسه بالنبى فى تجربة يتمه المبكر ، وكيف نجح فى سنوات حياته الأولى مثلما نجح الرسول فى تجارته وفى الزواج من السيدة خديجة ذات الثراء العريض .

ثم يعود المؤلف إلى وصف حادث اختطاف الطائرة بواسطة ثلاثة رجال وامرأة وإجبارها على الهبوط فى مطار إحدى الواحات التى أطلق عليها المؤلف اسم « الزمزم » واحتجاز الرهائن لمدة ١١١ يوما رهن تحقيق مطالب المختطفين . وهى « وطن مستقل – حرية العقيدة وإطلاق سراح المسجونين السياسيين – العدالة – فدية مالية – التوجه الآمن إلى دولة يختارونها » .

لا يحدد المؤلف هوية المختطفين الأربعة ولكنه ينقل ما يرددونه من سباب

موجه ضد الكوماندوز الأمريكيين والبريطانيين المتوقع إرسالهم لاقتحام الطائرة ثم ينقل المؤلف عن الإرهابية قولها وهى تنفذ أول عملية قتل فى أحد الركاب :

« الشهادة تميز » – فلسوف تصبح مثل النجوم وسوف تصبح مثل الشمس ، ثم يختتم هذا الجزء بقيام الإرهابية عضو الجماعة التى اختطفت الطائرة بتفجير الطائرة فى الجو فوق القنال الإنجليزى .

* * *

فى الفصل الذى يحمل عنوان « ماهوند » يتحدث المؤلف عن حالات الهذيان التى تجتاح جبريل عندما يغرق فى رؤاه الذاتية عن تقمصاته الملائكية ، وكيف أن تلك الحالة العبورية تشبه نفس الحالة التى كان يتعرض لها الرسول الذى يصفه المؤلف على لسان جبريل « بطل القصة » بأنه التاجر أو رجل الأعمال ، ثم يتطرق المؤلف إلى الحديث عن اسم النبى قائلا « اسمه – اسم حلم – يتغير بالرؤية – ينطق بصورة صحيحة – أنه يعنى إلى من إليه يعود الحمد – ولكنه لن يستجيب لهذا الاسم فى هذا الموضع – إنه هنا ليس بمحمد وإنما يتبنى شعار الشيطان .. نبينا الذى اعتاد أن يتسلق الجبل – النبى الذى حفزه اعتزال البشر وأصبح عليه أن يتحول إلى مثير الرعب فى أطفال العصور الوسطى ، لقد أصبح اسمه ماهاوند – مرادف الشيطان .. إنه هو – ماهاوند التاجر .. الذى يتسلق جبل القائظ فى الحجاز وسراب مدينة يلمع أسفل منه بريق الشمس .

فى موقع آخر يتحدث المؤلف عن وفود السيدة هاجر وابنها إسماعيل إلى أرض الحجاز ويصف لحظة أن سألت السيدة هاجر زوجها سيدنا ابراهيم هل أمرك الله أن تتركنا هنا وحدنا – فيجيب عليها – نعم إنه كذلك – ثم يعلق

المؤلف على موقف ابراهيم « لقد تركها وذهب .. الوغد .. منذ البداية اعتاد الرجال أن يستغلوا اسم الله لكى يبرروا ما لا يمكن تبريره » .

ثم تحدث المؤلف عن سبب ورود الحجيج إلى نفس الموقع الذى ظهرت فيه بئر زمزم قائلا « ولكن لماذا يتوافد الحجيج إلى هذا المكان ؟ هل لكى يحتفوا بصمودها وتجاوزها المحنة وبقائها على قيد الحياة ؟ لا – لا – إنهم يحتفلون بشرف الزيارة التى قام بها .. لعلك خمنت من هو – قام بها إبراهيم .. إنهم يتجمعون باسم هذا الزوج المحب – يتعبدون وفوق كل شيء ينفقون أموالهم .

فى موقع آخر يتعرض المؤلف لموقف يصف فيه حوارا بين النبى من جانب وحمزة بن عبد المطلب وبلال بن رباح وخالد بن الوليد حول رغبة الرسول فى عقد صفقة مع أحد زعماء مدينة « جاهلية » التى يرمز بها إلى مكة ويدعى أبو سمبل بأن يقبل الاعتراف بألوهية ثلاثة من آلهة جاهلية وهى اللات وعزى ومناة فى مقابل صفح زعماء جاهلية عن اتباع ماهاوند والاعتراف بوجودهم رسميا فضلا عن اختيار ماهاوند لعضوية مجلس حكام المدينة .. ثم يستطرد المؤلف فى وصف سخرية حمزة من قول ماهاوند واعتراض بلال وخالد على اقتراح القبول بآلهة ثلاثة إلى جانب الله الواحد فى وجه محاولات ماهاوند اقناعهم باقتراحه . ثم يصور المؤلف بعد ذلك توجه ماهاوند إلى الغار أعلى الجبل للقاء ملاك الوحى . ولكنه هنا يلتقى بشخص جبريل فاريشنا بطل القصة الرئيسى مع مزج تصويرى بينه وبين ملاك الوحى جبريل تأكيدا لفكرة التجمد أو التخيل التى طرحها فى مقدمة الرواية .. وفى لقطة أخرى يصور ماهاوند بعد أن تلقى الوحى تتلى آيات يعترف فيها باللات والعزى ومناة كآلهة ترتجى شفاعتها . ثم يستطرد بقوله « تلكم هموا الغرانيق (الطيور) العلا وإن شفاعتهن لترتجى » فيهتز مجلس أبو سمبل وأتباعه بالسرور بينما ينطلق بلال وخالد وسلمان غاضبين لما أتى به ماهاوند بما يتناقض وفكرة التوحيد التى

بشر بها . ينتقل المؤلف إلى منزل هند زوجة أبو سمبل كبير الجاهلية وزعيمها وحيث تمكنت بواسطة أعوانها من اختطاف ماهاوند إلى منزلها وفى مواجهة لا تخلو من محاولات لفتنة ماهاوند تفاجئ هند النبى بأنها لن تقبل أن تكون اللات والعزى ومناة بنات للإله ولكن آلهة مثله يقفن منه موقف الندية . الأمر الذى يعنى أنها لا توافق على التسوية التى تم التوصل إليها بل ترى فى الحرب الملاذ الوحيد لحسم قضية الربوبية فى جاهلية .

ينتقل ماهاوند إلى الغار مرة أخرى لاستجلاب الوحى . وهنا يعود بنا المؤلف إلى شخصية جبريل فاريشتا الذى تجسد فى صلب الرواية شخص الملاك جبريل . ثم يبرز المؤلف ضجر جبريل من ماهاوند من الحاحه وقدرته على استنزال الوحى منه وهو الأمر الذى يؤدى إلى جولة من المصارعة بين جبريل وماهاوند – بين ملاك الوحى والنبى – تنتهى بقبول النبى بالهزيمة تحت أقدام جبريل . ثم يعلق المؤلف أن النتيجة هنا أمر منطقى لأنه لا يعقل أن يهزم كبير الملائكة ولأن الشيطان فقط هو الذى يهزم .

* * *

ثم يصور المؤلف صحوة النبى من غفوة الوحى لكى يكتشف من نفسه أن المعركة كانت بينه وبين الشيطان وأن الشيطان نفسه هو الذى سبق أن أوحى بآيات اللات والعزى ومناة وأنه لا مناص من تغيير النص ونسخ ما أنزل من آيات – هذا فى الوقت الذى يحلق فيه جبريل فى سماء جاهلية من وراء أعلى الكاميرات ارتفاعا – لكى يردد أن هناك أمرا واحدا يجب إيضاحه هو أنه كان الملاك والشيطان فى آن واحد – الله كان صوت الشيطان حينا وصوت الملاك حينا آخر . إنه هو الذى أوحى بالآيات وهو الذى أوحى بنسخها . إنه أوحى بالشىء وضده إنه أوحى بالأمر كله – هذا فى الوقت الذى انطلق فيه

النبى إلى ربوع جاهلية لكى يعلن فى الملأ أن الشيطان ألقى إليه السمع أول مرة - أما هذه المرة فقد أتاه الملاك الوحى وصرعه وأنه لا جدال فى ذلك ، ثم ينطلق ماهاوند إلى بيت الحجر الأسود حيث اللات وعزى ومناة لكى يعلن نسخ هذه الآيات الشيطانية من القرآن « هنا يذكر المؤلف كلمة القرآن صريحة » لكى يعلن « إنما هى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم » . ثم يعقب أن الرسول وجد عقوبته على ذلك فى انتظاره عند عودته إلى بيته . فقد وجد زوجته خديجة قد فارقت الحياة وقد صور موتها بصورة بغيضة خالية من أى تكريم حيث صور نهايتها وقد فارقت الحياة وهى جالسة وظهرها إلى حائط غرفتها تحت إحدى النوافذ دون أحد يعينها لحظة احتضارها أو يرعى موتها من أهل بيتها .

يستطرد المؤلف محللا موقف خالد من نكوص النبى حيث ينقل عنه قوله « أيها النبى - لقد ارتبت فيك ولكنك كنت أكثر حكمة مما نعرف لقد قلنا فى بادئ الأمر إن ماهاوند لن يقبل بالحل الوسط ولكنك قبلت به ثم قلنا إن ماهاوند قد خاننا ولكنك كنت تأتينا بحقيقة أعمق - لقد أتيت لنا بالشيطان نفسه حتى يتسنى لنا أن نشهد أعمال الشيطان ثم نشهد هزيمته بقول الحق - لقد أثريت إيماننا إنى لآسف لما ظننت فيك » .

ثم ينقل المؤلف تعليق النبى قائلا « نعم المرارة والشك - إنه لشيء عجيب ما فعلت - الحقيقة الأعمق أن آتيكم بالشيطان - نعم فإن ذلك الأمر يشبهنى » .

وينتقل المؤلف لتصوير استعار الحرب بين أهل جاهلية وأتباع النبى الأمر الذى يدفعهم إلى الهجرة إلى يثرب وفى أثرهم النبى هاربا على حد قوله .

ينتقل المؤلف فى فصل متأخر إلى وصف أحوال الدولة الجديدة فى يثرب حيث ينتقد ويشهر فى سخرية واضحة بحرص النبى على تنظيم حياة أتباعه

وفرض القوانين المنظمة لأموالهم وعلاقاتهم فيقول : فى يثرب وبين أشجار النخيل ظهر جبريل للنبى ووجد نفسه يصدر التشريع تلو الآخر .. تشريعات .. تشريعات .. تشريعات .. إلى الدرجة التى أصبح من النادر معها أن يتوقعوا المزيد من الوحى .. وفى هذا الصدد يذكر سلمان الفارسى أنه كان هناك قوانين حول كل شىء . فإذا أخرج رجل حاجة منه فليدر وجهه نحو النزع – وتشريع آخر حول اليد التى يستخدمها الإنسان فى نظافة مؤخرته وبدا الأمر كما لو كان كل شىء فى حياة البشر يتعين تنظيمه ، لقد أخبر الوحى والقرآن المؤمنين عن حجم ما يأكلون – وإلى أى حد يروحون فى غياهب النوم وأى الأوضاع الجنسية تتفق والتشريع إلى الدرجة التى علموا معها أن اللواط أمر مباح بينما الأوضاع غير المسموح بها تشمل كل الأوضاع التى تعلو فيها المرأة على الرجل .. كما حدد جبريل كل الموضوعات المسموح والممنوع مناقشتها .. لقد منع جبريل على المؤمنين أكل برغوث البحر وطلب أن تقتل الحيوانات ببطء بواسطة إدمائها حتى يمكن من خلال التعرف على تجربة موتها معرفة معنى حياتها لأنه فقط عند الموت يدرك البشر حقيقة الحياة وإنها ليست مجرد حلم .. كما حدد جبريل ملك الملائكة أسلوب دفن الإنسان وكيف تقسم تركته – هكذا كان الوحى إلى الدرجة التى جعلت سلمان الفارسى يتساءل أى نوع من الآلهة هذا الأقرب فى تكوينه إلى رجل الأعمال .. لقد حدث هذا عندما دمر سلمان عقيدته الذاتية لأنه تذكر أن ماهاوند نفسه كان رجل أعمال وأنه كان رجل أعمال ناجحا بلا غرو .

* * *

بعد ذلك بدأ سلمان يلاحظ إلى أى درجة كان وحى الملاك نافعا ومناسبا فى وقته تماما إلى درجة أنه عندما كان المؤمنون يجادلون آراء ماهاوند فى أى موضوع من احتمال غزو الفضاء إلى خلود الجحيم . فلقد كان الملاك الوحى

يأتي بالرد ويحسم بالاجابة وكان دائما في صف ماهاوند مؤكدا بما لا يدعو للشك إنه من المستحيل أن يفكر الإنسان في السير على القمر . كما جزم بأنه حتى بالنسبة لأكثر الناس ارتكابا للشر فلسوف يتم تطهيرهم في نار جهنم وسوف يجدون طريقهم فيما بعد إلى حدائق الجنة المعطرة .. وعليه شكا سلمان عما إذا كان ماهاوند يأخذ مواقفه بعد تلقى الوحى من جبريل .. ولكن لا .. إنه كان يضع القانون وكان الملاك يعتمده ويؤكده فيما بعد .. إن ذلك يجب أن يكون هو تلك الرائحة التي تحيط بهذه المخلوقات الاسطورية القذرة المسماة ببراغيث البحر .. هذه الرائحة العفنة بدأت تثير هواجس سلمان الذى كان يعد من أكثر أتباع ماهاوند علما ودراية نظرا للنظام العلمى الراقى المطبق فى بلاد فارس . وهو الأمر الذى أهله لكى يكون كاتب وحى الرسول . لقد أخبر سلمان صديقه بعل أن الأوضاع ازدادت سوءا مع الرسول مع مرور الأيام . فبرغم انه أنقذ يثرب من غزو أهل جاهلية باقتراحه حفر الخندق ومع كثرة التشريعات المنزلة فى كل كبيرة وصغيرة فإن اسمه لم يذكر فى آية واحدة ، بل أصبح موضع كراهية الكثيرين كما ألمح سلمان لصديقه عن القواعد والأوامر والنواهى التى نزلت فى النساء والتى جاءت لتطويع نساء المدينة ثم وصف الرسول بأنه كان ساحرا لأنه أخضع نساء يثرب برغم كل ماهو معروف عنهن من استقلال فى الرأى وحرية .

ثم نقل عن سلمان وهو فى جلسة يحتسى الخمر مع صديقه « بعل » كيف شرع فى اختبار صدق الرسول وكيف بدأ فى تغيير بعض الآيات : فحينما كان الرسول يقول السميع العليم كان يكتبها العليم الحكيم . وأن ماهاوند لم يلاحظ هذه التغييرات ؛ وهكذا كان سلمان — على حد قوله — يفسد كلمة الله بلغته المستهجنة . ثم يقول المؤلف على لسان سلمان الفارسى « لقد غيرت حياتى من أجل هذا الرجل » يقصد النبى » .. لقد تركت بلدى وعبرت العالم — وعاشرت صنفا من البشر كانوا يعتبروننى كما مهملا من

العجم .. لقد بدأت أغير فى كتابة ماكان يقوله النبى .. وكان النبى يعنفنى بقوله ماذا بك ياسلمان هل أنت أصم ؟ وكنت أعتذر عن سهوى ولكنى كنت أكتب ما أريد ولم يشعر أحد بشيء – وواصلت هذا العمل ولكنى قررت أن أجرى تغييرا أكبر فحينما قال النبى فى موضع « النصارى » كتبت بدلا منها « اليهود » لعله لاحظ ذلك ولكنى عندما أعدت القراءة عليه على الوضع الجديد أومأ بالموافقة وشكرنى على ذلك بأدب جم .. لقد أيقنت أن أيامى أصبحت معدودة فى يثرب ولكن ما بيدى – لقد كان علىّ أن أستمر فيما بدأته .. لعله ليس هناك ما هو أشد مرارة من رجل يكتشف أنه كان يؤمن بشبح .. إنى أدرك أنى سأسقط ولكنه سيسقط معى ولذلك آثرت أن أواصل عملى الشيطانى مغيرا الآيات حتى جاء يوم قرأت على النبى ماكتبته ورأيت وجهه مقطبا وقد بدأ يهز رأسه كما لو كان يريد أن يستجلى ماذكره ثم أومأ بالموافقة ببطء ولكن بقدر من الشك فيما سمع ثم استطرد سلمان لصديقه بعل إنه قرر الهرب إلى جاهلية ولكنه يعرف أن النبى يطلب دمه .

يصور المؤلف دخول الرسول إلى مكة وإعلان عهد الأمان لأهلها ، ثم ينقل صورة فاضحة لإعلان هند زوجة أبوسمبل زعيم جاهلية « رمز مكة » إسلامها أمام الرسول وكيف القت بنفسها على أقدام الرسول تقبل أصابع قدمه وتلعقها وهو يدفعها عنه دون أن يعرف هويتها وعندما تكشف عن وجهها أمامه قال إنى لم أنس ياهند « إيماء إلى أول لقاء معها فى بيتها » لقد أعلنت خضوعك ياهند ومرحبا بك فى خيامى .

* * *

ينتقل المؤلف ليصور رواج الدعارة فى جاهلية بعد عودة الرسول وزوجاته إلى يثرب ثم يتمادى فى التشهير بنساء النبى بقوله : إن عاهرات جاهلية يقصد « مكة » اعتدن أن ينسبن إلى أنفسهن اسماء زوجات النبى . ثم ينقل عن إحدى

العاهرات قولها « عن هذا الحريم – تقصد نساء الرسول – لا يتحدث الرجال عن أى شيء آخر هذه الأيام .. ولا عجب أن ماهاوند قد عزلهن ولكن هذا الاجراء جعل الأمور تزداد سوءا .. فالناس تهيم بخيالات أكثر مما لا يستطيعون رؤيته » .

وحول معالجة البقاء في مكة يقول المؤلف : إن النبى أمر خالد بن الوليد ألا يتشدد ثم نسب للنبى أنه قال « إن سكان جاهلية مؤمنون جدد وعليك أن تأخذ الأمور بتؤدة لأن معظم الأنبياء السابقين اتفقوا على فترة انتقالية « ثم يستطرد المؤلف إنه فى غياب النبى توافد رجال جاهلية إلى بيوت الدعارة فيها أفواجا وزادت نسبة ترددهم ٣٠٠٪ ثم أضاف : إن العاهرة ذات الخمس عشرة سنة التى أطلق عليها اسم « عائشة » كانت أكثر العاهرات شعبية بين رواد هذه الأماكن .. وعلى غرار « عائشة » التى تعيش فى مقر الحريم الملحق بالمسجد الكبير – غدت عائشة التى تقطن جاهلية أكثر غيرة على موقعها المتميز بين قريناتها . أما أكبر العاهرات وأكثرهن سمنة والتى كانت قد أخذت اسم « سودة » فكم كانت تقص على روادها كيف أن ماهاوند تزوجها هى وعائشة فى نفس اليوم عندما كانت عائشة مجرد طفلة صغيرة – فقد كان مما يثير الرجال أن أذكر أنه وجد النصفين في زوجته الأولى – الطفلة والأم أيضا . كما أشار المؤلف إلى عاهرات تسمين بأسماء لزوجات النبى على شاكلة حفصة وأم سلمة وزينب بنت جحش وجويرية وصفية وميمونة وماريا القبطية ثم يتطرق المؤلف إلى خلاف طرأ بين النبى وزوجته عائشة التى دأبت – على حد قول سلمان الفارسي – على الشكوى من رغبة النبى فى المزيد من الزوجات بدعوى عقد مصاهرات وكسب المزيد من التأييد السياسى . وكيف أن الوحى ساند موقف الرسول وأباح له نكاح – استعمل لفظا خارجا – أى عدد من النساء . ثم يتطرق سلمان إلى قصة تخلف عائشة وما أثير حولها من شائعات تطعن فى شرفها وعفتها فيقول « إن عائشة وصفوان كانا وحيدين

فى الصحراء لعدة ساعات وقد ألمح إلى ذلك غير ذات مرة وبصوت مسموع أن صفوان كان شابا فى شرخ الصبا وكان النبى أكبر سنا من عائشة – على أى حال – ربما انجذبت عائشة إلى شخص ما أشد قربا من سنها – إنها فضيحة » هكذا علق سلمان ضاحكا .

ثم يستطرد سلمان – أن النبى ذهب كالعادة إلى ملاك وحيه ثم أبلغ عن جبريل إنه برّأ عائشة ثم عقب قائلا : إن سلمان مد ذراعيه فى استسلام متواضع « هذه المرة لم تشك السيدة حول غبن التشريعات السماوية » .

* * *

هكذا تمضى الرواية ..

وأرجو أن يغفر لى القارئ ما فى هذا التلخيص من بذاءة وإسفاف وتطاول على مقام الرسول وأهل بيته ، وعلى الوحى والكتاب ، بل على الله سبحانه وتعالى .. ولكن لابد من معرفة ماقاله هذا الكذاب المدعى لكى نحكم عليه حكما صحيحا ونعرف كيف أنه أراد عن قصد استفزاز مشاعر المسلمين فى العالم كله ، وأراد أن يدفعهم دفعا إلى الهجوم عليه .

ومع ذلك فقد سئل فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر عن موقفه من سلمان رشدى فقال : إنه يحتقر هذه الرواية وكاتبها ، وإنه يستنكر القتل وإهدار الدم فى نفس الوقت ، فليست هذه هى الوسيلة التى تناسب الإسلام للدفاع عنه ، ولكنه فقط يطلب شيئا واحدا ، أن تؤلف لجنة من ثلاثة من أكبر علماء الأديان فى العالم : أحدهم عن الدين المسيحى ، والثانى عن الدين اليهودى ، والثالث عن الدين الإسلامى ، وتكون مهمة هذه اللجنة التحقيق فى الوقائع التى جاءت فى هذه الرواية ، وتسأل مؤلفها : من أين أتى بها ؟ .. هل لديه مصادر تاريخية محترمة أو غير محترمة

استقى منها هذه المعلومات ؟ ، فإذا تبين لهذه اللجنة أن الوقائع التى جاءت فى الرواية كذب وافتراء فعليها أن تعلن ذلك وتقول للعالم إن سلمان رشدى كاذب اخترع هذه الإساءات من عنده وإن الإسلام برىء من كل ماجاء فى هذه الرواية .

* * *

ولابد أن نضع فى اعتبارنا أن سلمان رشدى ليس أول ولا آخر من يتهجم على الإسلام .

وكما فى الغرب كتاب أنصفوا الإسلام مثل ليسنج فى ألمانيا الذى كتب فى القرن الثامن عشر يقول : إن المعلومات التى كانت رائجة فى القرن السادس عشر عن محمد وتعاليمه كانت أخبارا مختلطة بالكثير من الأكاذيب التى كان المجادلون المسيحيون يقومون بترويجها على أنها حقائق .. وإن أول معرفة أمينة عن محمد وتعاليمه جاءت عن طريق مؤلفات ريلاند المستشرق الهولندى الذى توفى عام ١٧١٨ وجورج سيل المستشرق الإنجليزى الذى توفى عام ١٧٠٣ وترجم معانى القرآن .. وقد أظهرت مؤلفات هذين المستشرقين أن محمدا ليس دجالا كما روج السابقون ، وإن دينه ليس مجرد نسيج من الأباطيل والمتناقضات كما قالوا .

ولكن سلمان رشدى جاء ليعيد صفحات سوداء من المغالطات والأكاذيب الغربية تعبيرا عن العداء للإسلام .

ومهما كانت سفالة سلمان رشدى فقد كان فولتير أديب فرنسا الكبير أكثر سفالة منه .. حين كتب فى عام ١٧٤١ مسرحيته « التعصب : أو النبى محمد » وهاجم فى شخص الرسول ﷺ كل الأنبياء ، وأهدى مسرحيته إلى البابا ، وحين عرضت هذه المسرحية فى باريس عام ١٧٤٢ احتج عليها السفير

العثمانى لدى فرنسا وعقد مؤتمرا لكُتاب فرنسا الأحرار فأوقفت الحكومة عرضها .

وكان فولتير يقول فى مسرحيته إن محمدا ﷺ منافق ، دجال ، عديم الحياء ، مستبد ، تحركه النوازع الحسية ، ويدفعه التعطش للدماء .. الخ . ويعلق الدكتور محمود حمدى زقزوق على ذلك بأن فولتير كان يعلم تمام العلم أن ذلك كله غير صحيح ولا يتفق مع الحقيقة التاريخية ..

ومن الغريب أن فولتير له مقالة عن الأخلاق يصف فيها محمدا بأنه « رجل عظيم جمع فى شخصه بين الفاتح ، والمشرع ، والواعظ ، والحاكم ، والذى قام بأعظم الأدوار التى يمكن أن يقوم بها إنسان على ظهر الأرض » ويعلق الدكتور زقزوق أيضا بأن التناقض فى موقف فولتير من الإسلام يشير إلى أن رأيه الأخير هو الرأى الذى كان مقتنعا به فى حقيقة الأمر . وقد ذاع هذا الرأى الأخير وانتشر فى الأوساط الثقافية فى فرنسا فى ذلك الزمن ، وأصبح محمد موضوعا للحديث فى صالونات ذلك العصر ، وتأثرت الأكاديميات العلمية بذلك وأعلنت عن مسابقات وجوائز لموضوعات عن محمد وتعاليمه وتأثيره .

* * *

هكذا نرى أن سلمان رشدى ليس أول من هاجم الإسلام ولن يكون آخرهم .. ولم يستطع أحد أن ينال من هذا الدين العظيم .. وإذن فلا خوف على الإسلام ، ولاخطر من سلمان رشدى ، ولا من مئات من أمثاله .

وكان الأجدر أن نقول لأنفسنا وللعالم : الكلاب تنبح ، والقافلة تسير .. والإسلام أقوى وأعظم من أن ينال منه هذا القزم الذى لم يكتب عن إيمان أو عقيدة أو اقتناع بما يكتب ، ولكنه قدم سلعة فى سوق وهو يعرف أنها

سلعة مطلوبة ، وأن هناك من ينتظرها ويدفع فيها الملايين ، وقد كسب الملايين فعلا ، وانتقل من السكن فى شقة متواضعة فى أحد أحياء لندن إلى قصر تحيط به الأسلاك الشائكة والحراس وأجهزة الإنذار الالكترونية فى أرقى الأحياء ، وتضخم رصيده فى البنوك ، ولكنه فى النهاية سيذهب إلى مزبلة التاريخ . ولن يذكره أحد بعد سنوات قليلة .. وسيلقى فى جب النسيان مع مئات من أمثاله حاولوا هدم الإسلام وفشلوا .. وسيحاول غيرهم كثير وسيفشلون أيضا .

فلا خوف على الإسلام ..

وما يعنينا هو أن نرى ، وأن نفهم ، ماذا يجرى هناك ، ونعلم ما فى القلوب والضمائر .. ونلمس أن أعداء الإسلام يجندون المرتزقة فى كل عصر ، ويجذبون ضعاف النفوس ، ويدفعون لهم بسخاء لمجرد الإساءة إلى الإسلام والمسلمين .

* * *

ولم يكن موقف الإمام الأكبر تعبيرا عن رأى شخصى ، ولكنه كان موقف الأزهر ، قلعة الإسلام المستنير ..

وأفتى فيه فضيلة الدكتور عبد الله المشد رئيس لجنة الفتوى بالأزهر وأعلن أن قرار الخمينى بإهدار دم سلمان رشدى مخالف للقواعد والأصول الإسلامية ، لأنه لا يجوز إصدار حكم على إنسان فى غيبته ودون مواجهته بما هو منسوب إليه واعطائه فرصة للدفاع عن نفسه .

وأعلن الدكتور عبد الجليل شلبى الأمين العام السابق لمجمع البحوث الإسلامية أنه لابد من مناقشة سلمان رشدى فيما كتب ومن أين استقى هذه المعلومات الكاذبة ، واعطائه فرصة للتوبة .

وكذلك أعلن مفتى تونس الشيخ مختار سلامى أن رواية سلمان رشدى تتجاوز مجال ممارسة الحرية الفردية إلى مجال الإهانة للإسلام والمسلمين وهى تعبر عن الكراهية والتعصب ضد الإسلام .

وهكذا كان الرأى فى كل العواصم الإسلامية ..

واعتقد أن رأى الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى يعبر عن موقف المسلمين جميعا .

فقد قال إن سلمان رشدى استهزأ واستخف بكل ما يجب احترامه وتوقيره فى شريعة الإسلام . استهزأ واستخف بالقرآن الكريم ، وبالملائكة ، وبالرسل ، وعلى رأسهم سيدنا محمد ﷺ ، وبالصحابة ، وبأمهات المؤمنين ، وبشرائع الإسلام وأحكامه وآدابه ..

وفى هذا الكتاب ما ينفر كل عقل سليم ، فقد انحدر المؤلف فى بذاءاته وخرافاته وافتراءاته إلى أسفل الدركات .

وتساءل الإمام الأكبر : هل الذى يكتب هذه السفاهات فى مئات الصفحات ، بالرمز والتصريح ، أيكون جاهلا بأحكام شريعة الإسلام ؟

وأجاب : إن الذى نرجحه – بل نؤكده – أن هذا الكاتب كان فاهما لكل ماتفوه به من أكاذيب ، وإنه كتب ماكتب من خرافات عن عمد وسوء نية ، وإنه كان عارفا لما هو حلال وما هو حرام فى شريعة الإسلام .

ما العمل مع سلمان رشدى ؟

يجيب الإمام الأكبر : نطالب بمقولة أمام لجنة علمية عادلة تعلن على العالم أنه كاذب .. وعلى كل مسلم عاقل أن يواجه هذا الفكر الفاسق بالإهمال والمقاطعة ، حتى يدركه مصيره المحتوم .. ومن أراد أن يعرف شرائع الإسلام فليأخذها من أهل العلم بالاسلام لا من غيرهم من أهل الفسق .. والله تعالى

الذى يعلم السر والخفى سيجازى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى ..

وهذا ماكنت أقوله فى محاوراتى فى بريطانيا كلما وجدت سائلا يسألنى : لماذا تحاربون سلمان رشدى وتمارسون عليه الإرهاب وتحاولون قتله ؟ .. ولماذا يضيق المسلمون دائما بمن يختلف معهم ؟ .

أقول لهم ما قاله الإمام الأكبر وأضيف إليه : اقرأوا ما قاله ولى عهد بريطانيا الأمير تشارلز عن الإسلام لتعرفوا بعض الحقائق عن هذا الدين العظيم على لسان مسئول غربى غير مسلم .

نظرية استعمارية جديدة !

فى المانيا رأيت .. وسمعت .. ولمست .. ما لم أكن أتصور . !

لم أكن أتصور أن تخوف الغرب من الإسلام والمسلمين قد وصل إلى هذا الحد ..

ولم أكن أتصور أن كبار المفكرين ورجال السياسة فى أوربا يأخذون مأخذ الجد النظرية التى تقول : إن الإسلام هو العدو القادم للحضارة الغربية .. وإنه العدو الأكبر .. وإنه دين يحمل فى داخله عوامل التخلف .. والعنف .. والجهل .. !

وعندما حضرت اللقاءات التى تحدث فيها فضيلة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى وهو يشارك فى حوارات طويلة ومتشعبة مع أكبرالعقول الألمانية ..كنت أشعر أن كثيرًا مما يقوله المفكرون الألمان ليس إلا نوعا من الوهم .. أو الخيال .. أو هو - فى أحسن الأحوال - جهل شديد بالإسلام .. ولاشك أن حكمة الإمام الأكبر .. وصبره .. وبمنطقه الهادئ الذى يخاطب العقول .. استطاع أن يقدم صورة حقيقية عن الإسلام ومبادئه وشريعته فى سماحتها .. وإنسانيتها .. واتفاقها مع حقائق العلم والعقل .. ومسايرتها لتطور الحضارة الإنسانية فى كل عصورها .. ولكن الإمام الأكبر لم يزر الا عددا محدودا من بلاد الغرب .. ولم تصل كلمته إلى بقية دول القارة .. ومازالت الأفكار السامة المسمومة منتشرة وتلقى من يروّج لها كل يوم إلى أن يأتى يوم وتصبح حقيقة من حقائق الحياة المعاصرة لا تقبل الجدل ولا النقاش ..

والانطباع الشخصى الذى خرجت به من هذه اللقاءات أن النظرية

الجديدة التى تنتشر فى الغرب هى نظرية غاية فى الخطورة .. وأنها مقدمة لما هو أشد خطرا مما سيجئ به المستقبل ..

* * *

والحكاية بدأت بمقال نشر فى أمريكا ..

مجرد مقال كتبه أستاذ مجهول اسمه فرانسيس فوكوياما ، كان يعمل نائبا لمدير مجموعة السياسة بوزارة الخارجية الأمريكية ، أى أنه أحد المسئولين عن التخطيط السياسى للولايات المتحدة .. وإن كان مستواه أقل كثيرا من أن يكون قادرا على إدارة دفة السياسة الأمريكية إلا أنه – بالتأكيد – على علم ببعض أسرار وخفايا ونوايا السياسة الأمريكية .. وترك منصبه فى وزارة الخارجية ليصبح مستشارا لمؤسسة راند كوربوريشن فى واشنطن .. ومن يعرف أسرار المجتمع الأمريكى يعرف أن المؤسسات الاقتصادية والمالية والشركات الكبرى .. مع الإدارة الأمريكية ..مع المخابرات المركزية .. بينها تنسيق بحيث تتبادل المعلومات ويتم توزيع الأدوار بينها ..

المقال الغريب ظهر فى عام ١٩٨٩ بعنوان « هل هى نهاية التاريخ » نشره فى مجلة « ناشونال انترست » .. قال فيه : إن الحضارة الإنسانية ظلت تاريخها كله فى صراع مستمر .. وكل حلقة من حلقات الصراع تنتهى بهزيمة نظام وانتصار نظام .. لحقت الهزيمة بالنظام الملكى الوراثى .. وبالفاشية .. وأخيرا بالشيوعية .. وانتصر أخيرا النظام الليبرالى الغربى .. وكانت نظرية ماركس ولينين ترى أن الصراع الأخير بين الرأسمالية والشيوعية سينتهى بانتصار الشيوعية فتسود العالم كله ، وتختفى الرأسمالية من الوجود ، فينتهى الصراع ، وتصل البشرية إلى مرحلة أسماها ماركس ولينين « نهاية التاريخ » أى نهاية الصراع بين النظم السياسية والاقتصادية وسيطرة نظام

واحد على العالم كله هو الشيوعية .. ثم ثبت خطأ ماركس ولينين لأن العكس هو الذى حدث .. انهزمت الشيوعية وانتصرت الرأسمالية وحسم الصراع بينهما .. وقد تكون هذه هى نقطة النهاية فى التطور الايديولوجى للإنسانية .. والصورة النهائية لنظام الحكم البشرى وبالتالى فهى تمثل « نهاية التاريخ » .. فالنظم السابقة كانت فيها عيوب خطيرة أدت إلى سقوطها ، أما الليبرالية الغربية فهى خالية من العيوب والتناقضات .

إلى هنا والمسألة فكر فى فكر .. رجل أراد أن يقول : إن النظام الليبرالى الغربى هو آخر وأكمل ما وصلت إليه البشرية وليس بعده صراع ولا تطور .. فهو آخر حلقة من حلقات تطور الفكر الإنسانى والنظم السياسية والاقتصادية .. وهو حر فى أن يقول ما يريد .. ولكنه بعد ذلك قال : إن هناك عدوا قادما للحضارة الغربية هو الإسلام .. لأنه نظام قائم على عقيدة .. فهو ايديولوجية ستصبح هى النقيض للايديولوجية الغربية .. وبالتالى لابد أن ينتصر أحدهما وينهزم الآخر لأن العالم لن يستمر فى حالة صراع بين العقيدتين : الغربية والإسلام .. ثم أضاف — ربما على سبيل التمويه — إن حضارة الغرب سيكون عليها كذلك أن تخوض صراعا مع الحضارة الآسيوية عموما ومع اليابان على وجه الخصوص .. !

إلى هنا والمسألة أصبحت تخصنا ..

أصبحنا طرفا فى الموضوع دون أن ندرى ..

والغريب أن هذه النظرية الضعيفة فى بنائها الفكرى وفى مقدماتها ونتائجها وجدت من ينشرها .. ومن يشرحها .. ومن يروّج لها .. ومن ينفخ فيها .. وأصبح الرجل المجهول فرانسيس فوكوياما من أعلام القرن العشرين .. كل جامعة تدعوه ليشرح نظريته .. وكل مجلة وصحيفة تذهب إليه ليتحدث إلى ملايين القراء عن هذا الفتح المبين .. وعلماء ومفكرو فرنسا

والمانيا وبريطانيا وسويسرا يلتقون مع هذا العبقرى المجهول ليناقشوا معه هذه النظرية .. وليذهبوا إلى جامعاتهم ومراكز أبحاثهم لينشروا الفكرة ..

ونحن - طبعا - فى حالة النوم العميق التى اعتدنا عليها ..

قرأنا نظرية فوكوياما واكتفينا بالابتسام على سذاجة وسطحية هذا الرجل .. وعلمنا أن نظريته تنتشر فى الغرب وتصل إلى طلبة الجامعات وأهل الفكر والرأى ولم يزعجنا ذلك .. تصورنا - كالعادة - أن مثل هذا الكلام ليس إلا من قبيل الرياضة العقلية التى يسلى المثقفون بها أنفسهم ..

والحقيقة كانت غير ذلك ..

الحقيقة أن كثيرا من المفكرين فى الغرب صدّقوا هذه النظرية .

واستقر فى أذهانهم أن « الإسلام » هو العدو القادم الذى يهدد حضارة الغرب وثروته وعلومه وتقدمه .. !

ولم نتحرك نحن ..

كالعادة كان لابد أن يحدث زلزال وتنهدم البيوت فوق رؤوسنا لكى نفيق ونفكر فى حماية أنفسنا .. بعد فوات الأوان طبعا .. !

* * *

وبعد سنوات ظهر مفكر آخر .. فى أمريكا أيضا .. ونشر أيضا مقالا صغيرا فى مجلة « فورن افيرز » بعنوان : « صراع الحضارات » .. الرجل اسمه صمويل هنتنجتون .. وملخص نظريته أن تاريخ الحياة على الكرة الأرضية هو تاريخ الصراع بين حضارات .. وكان الصراع الأخير بين الحضارة الغربية التى تمثلها أمريكا وأوربا بنظامها الليبرالى .. وبين الحضارة الشيوعية التى كانت تقودها روسيا ودول « الاتحاد السوفيتى » السابق وأوربا الشرقية .. وانتهى هذا الصراع بهزيمة الشيوعية وانتصار الحضارة الغربية .. ولم يعد

للحضارة الغربية إلا عدو واحد فى العالم هو : « الإسلام » . فهو دين وحضارة وثقافة .. وهناك حوالى الف مليون مسلم يعتنقون هذا الدين .. لهم أفكار ومعتقدات وميراث ثقافى وحضارى مختلف تماما عن الغرب .. وهم يريدون أن يفرضوا عقيدتهم بالقوة .. بالعنف .. بالإرهاب .. بتدمير الحضارة الغربية .. المسلمون هم التهديد الأخير .. وهم الخطر الماثل أمام الغرب كله .. وإما أن يقضى الإسلام على الغرب .. وإما أن يقضى الغرب على الإسلام .

نظرية غريبة جدا ..

لم تخطر على بال أحد فى العالم الإسلامى ..

ولكن هنتنجتون .. وقبله فوكوياما .. كان هدفهما استغلال ظاهرة العنف والإرهاب فى إيران مثلا أو فى أفغانستان أو الجزائر ليقول : إن هذا هو الإسلام .. والمسلمون متشددون .. عصبيون .. لديهم هوس دينى .. عقولهم مغلقة .. يريدون العودة إلى عصر السلف الصالح بأن يعيشوا فى الخيام ويأكلوا من لبن الأغنام ويهدموا كل إنجازات العلم والحضارة فى الغرب .. ووسيلتهم التفجير .. والقتل غدرا .. وتكفير الناس .. وإهدار دم من يخالفهم فى الرأى أو العقيدة ..

ثم حدث شىء غريب ..

المقال الصغير الذى نشر فى مجلة أمريكية متخصصة فى السياسة الخارجية أصبح مشهورا ومنتشرا فى كل المؤسسات العلمية فى كل دول الغرب ..

وأصبحت أفكار هنتنجتون تتردد على أنها حقيقة ثابتة غير قابلة للجدل ..

الإسلام هو العدو الجديد للغرب ..

والصراع بين الإسلام والغرب صراع حتمى لا مهرب ولا مفر منه ..

ولابد أن يستعد الغرب لهذا الصراع ..

ولابد أن يعد الغرب نفسه لكى ينتصر على الإسلام أو ينهزم الغرب إلى الأبد ويعود إلى القرون الوسطى المظلمة .. !

كل هذا ونحن – كالعادة – نيام .. !

لا نعلم .. وإذا علمنا لا نصدق أن هذه الأفكار الغربية يمكن أن تكون محركا لسياسات ..

* * *

والقضية إذا ظهرت أمامنا وكأنها هزل .. أو من قبيل التخاريف ..فإن المفكرين فى الغرب يأخذونها مأخذ الجد .. وهنا أساتذة .. ومعاهد .. ومؤسسات .. وجهات ظاهرة وخفية تخطط على أساسها .. !

الفكرة ليست وليدة اليوم .. ولكنها قديمة ..

الفكرة أن الغرب له مصالح فى العالم الإسلامى .. العالم الإسلامى هو أرض البترول الذى تعتمد عليه الحضارة الغربية .. والسوق الواسعة للمنتجات الغربية التى تنقل ثروات العالم الإسلامى إلى الغرب ..والتاريخ القديم والحديث هو حلقات من تاريخ الصراع بين الغرب والعالم الإسلامى ..ليس صراع عقائد .. وليس صراع ديانات .. وليس صراع حضارات ولا ثقافات .. ولكنه صراع مصالح .. مصالح الغرب مرتبطة ببقاء العالم الإسلامى منقسما وجاهلا ومتخلفا ومنشغلا بصراعاته الداخلية ..صراعات بين بلاد إسلامية وبلاد إسلامية أخرى تنهزم فيها دولة إسلامية وتنتصر فيها دولة إسلامية أخرى لتنهزم فى صراع آخر .. ! صراعات داخل كل بلد مسلم .. مجموعة تحكم على مجموعة أخرى بأنها كافرة وتتربص بها

لتقتلها .. والمجموعة الأخرى تحشد قوتها وتبدد ثروتها فى أسلحة للدفاع عن نفسها .. صراعات بين مسلمين وأقباط .. وبين المسلمين والهندوس .. وبين السنة والشيعة .. ليس مهما موضوع الصراع .. المهم أن يظل العالم الإسلامى .. وتظل الشعوب الإسلامية مشغولة وخائفة ومتربصة .. وبذلك تبقى سوقا مفتوحة للغرب ..

تاريخ طويل .. منذ الحروب الصليبية حتى اليوم ..

وفى كل مرحلة تظهر أساليب جديدة وشعارات جديدة لتحقيق نفس الهدف .. انتهت الشعارات القديمة مثل نشر المسيحية ، وحرية التجارة ، والقضاء على نظام الرق والعبيد ، وحماية الأقليات الدينية والقومية ، وانتهى عصر تجمع جيوش فرنسا وإيطاليا وانجلترا والمانيا لغزو العالم الإسلامى تحت شعار « تحرير أورشليم » و « قبر المسيح » من السيادة الإسلامية منذ أكثر من ٩٠٠ سنة .. وانتهى عصر الاحتلال العسكرى بجيوش بريطانيا وفرنسا ..

فى القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر .. وخلال ١٧٥ سنة قامت ثمانى حملات صليبية كبرى .. فى الحملة الأولى (١٠٩٦ — ١٠٩٩) اشترك أكثر من ١٠٠ الف مقاتل استولوا على فلسطين بما فيها القدس وعلى جزء من الأردن ولبنان وسوريا وتركيا وأسسوا مملكة القدس ودويلات إقطاعية تابعة لها فى طرابلس ، وانطاكية ، والرها ، وقتلوا عشرات الآلاف من المسلمين .. حتى أن جامع عمر فى القدس — كما يقول مؤرخو هذه الحملة — كان غارقا فى دماء المسلمين .. وظل هذا الوضع قائما إلى أن ظهر صلاح الدين الأيوبى ووحد أهل سوريا وفلسطين ومصر والعراق ولبنان واستطاع أن يسحق قوات الصليبيين عام ١١٨٧ وحرر القدس وفلسطين وقسما كبيرا من لبنان وسوريا وكانت موقعة « حطين » هى الفاصلة .. ثم ظهر « مشروع » غربى آخر لغزوة قادها امبراطور المانيا فريدريك الأول فى

يونية ١١٩٠ ولكنه غرق وانهزم جيشه ومزق صلاح الدين جيش الغزاة مرة أخرى .. وفى القرن الثالث عشر حاول الصليبيون مرة أخرى ولكنهم كانوا ينهزمون حين يتوحد المسلمون ، وينتصرون حين يختلف قادة المسلمين بعد رحيل صلاح الدين .. وفى سنة ١٢٩١ سقطت قلعتهم الأخيرة فى فلسطين .. قلعة عكا ..

ذلك تاريخ قديم مضى .. وانتهى .. لا نذكره لإحيائه مرة أخرى .. ولكن فقط لنقول : إن الغرب فى مرحلة كان يعبر عن صراع المصالح بينه وبين العالم الإسلامى بالغزو الصريح المباشر ..

وفى التاريخ الحديث ..

حين أراد مصدق وهو رئيس وزراء إيران تأميم البترول الإيرانى كان مصيره القتل والفشل ..

وحين أراد عبد الناصر بناء حضارة حديثة كان مصيره هزيمة ٦٧ ..

والمسألة لم تكن أبدًا صراعا بين الغرب والإسلام .. ولكنها كانت صراعا على ثروة العالم الإسلامى ..

* * *

الإسلام فى ذاته كدين ليس دين إرهاب .. ولا عنف .. ولا قتل .. ولا تخريب ..

وأى طفل يقرأ القرآن .. أو الأحاديث الصحيحة .. أو كتب التفسير المعتمدة التى لم تدخلها الإسرائيليات والتحريفات .. سوف يرى أن الإسلام دين رحمة .. وتعاون .. ودعوة للتفكير والعلم والتقدم .. لكن هذه الحقيقة البسيطة غائبة فى مراكز البحث وفى الإعلام الغربى بشكل عام ..

فى الغرب الآن خوف وقلق من الإسلام .. بل هناك حالة حساسية مرضية

من الإسلام والمسلمين .. ويجب ألا ننسى أننا نعيش فى عصر القوى الدولية غير الحكومية .. والعلاقات الدولية ليست فقط علاقات وتفاعل دول وحكومات .. هناك قوى غير حكومية قد لا تقل قوة وفاعلية عن كثير من الحكومات .. والإرهاب الدولى أصبح أحد العناصر المتحكمة فى السياسة الخارجية لكثير من الدول .. ويجب أيضا ألا ننسى أن الحضارة الغربية قائمة على شعور بالتفوق .. وإسقاط عيوب الغرب على الغير .. ولذلك نجد صورة العالم الإسلامى على أنه قائم على حضارة أساسها النفاق : فالمسلم ليس صريحا ولا واضحا ولا مباشرا .. المسلم محتال كذاب يظهر شيئا ويبطن شيئا آخر .. المسلم لا يؤتمن .. المسلم ليس له عهد ولا وعد .. المسلم ليس له فى الدنيا إلا الطعام والجنس .. المسلم مهمل فى عمله ..كسول .. وليس فى العالم الإسلامى ما يسمونه « الأصالة الحضارية » .. والإسلام لا يصلح لإقامة حياة مدنية ديمقراطية .. الإسلام دين يؤمن بحكم الفرد .. الخليفة أو الحاكم وليس أمام المسلمين إلا السمع والطاعة لولى الأمر مهما يكن فاسدا .. وكل من أراد أن يستخدم عقله ويفكر اتهموه بالكفر .. طه حسين .. على عبد الرازق .. وطابور طويل من المفكرين أرادوا تحرير عقول المسلمين فاتهمهم المسلمون بالكفر .. آخرهم نصر أبو زيد .. !

الإسلام يرفض التجديد .. يرفض التطور ، يرفض التعايش أو التعامل مع الديانات الأخرى ، اتهامات كثيرة .. كثيرة جدا .. كلها قائمة على أكاذيب .. ولكن علماء ومفكرى الغرب يصدقونها ، أو على الأقل يرددونها ، وتتفشى حتى تدخل عقل المواطن الغربى العادى الذى لا يستطيع دراسة الإسلام فيصدقها ويعتبرها حقيقة مفروغا منها ..

وهذه هى المصيبة .. !

* * *

المصيبة أن أفكار الباحثين الذين نظن أنها محصورة فى نطاق ضيق داخل الجامعات ومراكز البحوث لها تأثير كبير فى رسم السياسات فى الغرب ..

نحن عادة نفصل بين الفكر النظرى والسياسات العملية ..

نحن عادة نضع سياسات غير قائمة على فلسفة .. أو على نظرية .. أو على أساس فكرى .. العمل أولا ثم الفكر .. فى الغرب العكس .. الفكر أولا ثم توضع السياسات بناء على هذا الفكر ..

والدليل على ذلك أن ما يقال عن العداء المحتوم بين الإسلام والغرب يتردد صداه فى مواقف كبار القادة وأصحاب القرار فى الغرب ..

مثلا .. ريتشارد نيكسون .. أهم الرؤساء الأمريكيين الذين تميزوا برؤية سياسية واضحة وعقلية مبدعة ..

نيكسون له كتاب مشهور عنوانه « الفرصة السانحة » فيه فصل كامل عن « العالم الإسلامى » يقول فيه : إن كثيرا من الأمريكيين يتصورون أن المسلمين شعوب غير متحضرة .. وأن المسلمين دمويون ، وغير منطقيين ، ويحذر بعض المراقبين من أن الإسلام سوف يصبح قوة جيوبوليتيكية متطرفة ، وأنه مع التزايد السكانى ، والإمكانات المادية الكبيرة ، سوف يشكل المسلمون خطرا كبيرا سوف يضطر الغرب إلى مواجهة هذا الخطر العدوانى للعالم الإسلامى ، ويزيد هذا الرأى بأن الإسلام والغرب متضادان ، وأن نظرة الإسلام للعالم تقسمه إلى قسمين : دار الإسلام ودار الحرب حيث يجب أن تتغلب الأولى على الثانية ، وأن المسلمين يوحدون صفوفهم للقيام بثورة ضد الغرب ، وعلى الغرب أن يواجه هذا الخطر الداهم .. !

وبعد أن يسرد نيكسون هذه المخاوف الغربية وأسبابها يطمئن الغرب إلى أن هذا « الكابوس » لن يتحقق ، لأن المسلمين كثرة ولكنهم مختلفون ، ولن يصبحوا كتلة واحدة .. فالمسلمون سدس سكان العالم .. يعيشون فى ٣٧

دولة وينتمون إلى ١٩٠ جنسية .. ويتكلمون مئات اللغات واللهجات .. وهم ينقسمون إلى ثلاث طوائف : السنة .. والشيعة .. والصوفية .. ويتفرع من هذه الطوائف جماعات وعشرات الطوائف .. ويعيشون فى أرض يبلغ طول أضلاعها عشرة آلاف ميل تمتد من مراكش إلى يوجسلافيا ، ومن تركيا إلى باكستان ، ومن آسيا الوسطى إلى اندونيسيا ، وفى الصين مسلمون أكثر من المسلمين فى شبه الجزيرة العربية ، وتعداد أندونيسيا وحدها من المسلمين أكبر من تعداد المسلمين فى الشرق الأوسط كله ، وتعداد المسلمين فى الاتحاد السوفيتى السابق حوالى ٥٠ مليون مسلم ، أكبر من عدد أى دولة إسلامية ماعدا تركيا ..

هذا ما يقوله نيكسون ..ولكى يطمئن الغرب من هذا « الخطر الداهم » يقول أيضا : إن هناك صفتين أساسيتين يشترك فيهما جميع المسلمين فى العالم الإسلامى : إيمانهم بالدين الإسلامى .. وعدم الاستقرار السياسى .. والإسلام ليس مجرد دين ولكنه أساس لحضارة كبرى .. والتنافس بين دول العالم الإسلامى جعله بؤرة للصراعات .. فعلى سبيل المثال - كما يقول نيكسون - فإن المغرب ضد الجزائر .. وليبيا ضد الجزائر .. وليبيا ضد تشاد .. والعالم العربى ضد إسرائيل .. وسوريا ضد الأردن .. وسوريا ضد لبنان .. والعراق ضد سوريا .. والعراق ضد الكويت والسعودية .. والعراق ضد إيران .. وإيران ضد دول الخليج .. وباكستان ضد أفغانستان .. والهند ضد باكستان وبنجلاديش .. وأندونيسيا ضد ماليزيا وغينيا .. وربما يحدث فى كثير من الدول الإسلامية مستقبلا ما حدث فى لبنان .. ! ومع تزايد السكان سوف يهبط مستوى المعيشة ولا تقدر سلطة الدولة على السيطرة على الأمن والاستقرار . وتمثل الموارد الرئيسية - مثل المياه - نقصا شديدا يهدد بمشاكل وربما حروب .. وأغلب خطوط الحدود بين الدول الإسلامية رسمتها قوى الاستعمار الأوربية فى الماضى ، وهى تمثل نقطة رئيسية أخرى للنزاع

بين الدول الإسلامية .. أو بين الدولة والأقليات التى تعيش فيها ..كل هذه الصراعات والمشاكل ظهرت فى المنطقة التى يتجمع بها أكبر كم من السلاح فى دول متخلفة .. لقد أنفقت الدول الإسلامية ٨٪ من دخلها القومى على التسلح فى حين كان إنفاق الدول الغربية أقل من ٥٪ ..

هذا ما يقوله نيكسون .. ويقول أيضا : إن الأمريكيين أصبحوا ينظرون إلى كل المسلمين كأعداء .. وإن العالم الإسلامى عالم ثورى بطبيعته ، فهو يضم ٦٠٪ من سكان عمرهم أقل من ٢٥ عاما .. وهم فقراء .. فدخلهم القومى – بما فيهم دول البترول يبلغ متوسط دخل الفرد فيه ١٦٠٠ دولار فى السنة بينما متوسط دخل الفرد فى أمريكا ٢١ الف دولار فى السنة .. وزعماء الأصوليين ليس لديهم إلا الرفض ، وليس لديهم تصور للمستقبل ..

يقول نيكسون أيضا : إن مفتاح السياسة الأمريكية هو التعاون مع المسلمين التقدميين .. أما التعاون مع المسلمين المتطرفين والرجعيين فهو تعاون مرحلى ونعمل معهم مادامو فى السلطة ! ..

ويقول نيكسون : أن صديقنا اليوم يمكن أن يكون عدونا غدا ..

ويقول : علينا إن نتقبل فى بعض الأحيان رفض أصدقائنا فى العالم الإسلامى لبعض تصرفاتنا التى تسبب لهم حرجا سياسيا فى بلادهم ، فعندما القت الولايات المتحدة القنابل على ليبيا انتقاما منها لمهاجمتها بعض الجنود الأمريكيين قام كثير من الزعماء فى المنطقة بانتقادنا ولعننا فى العلن ،وبالثناء علينا فى سرهم .. فيجب ألا يزعجنا أن تضطر الظروف أصدقاءنا أن يتفوهوا ببعض السباب ضدنا إرضاء لأعدائنا .. !

ويقول ما هو أكثر .. يقول : إن العالم الإسلامى يشكل أكبر التحديات لسياسة الولايات المتحدة الخارجية فى القرن الحادى والعشرين ، ومع انتهاء الحرب الباردة بدأت النزاعات التقليدية ، التى كانت نائمة طوال خمسة

وأربعين عاما ، تستيقظ .. ولما كانت منطقة الخليج فيها ٦٥٪ من احتياطى البترول العالمى ، وسوف تظل قابلة للاستغلال ربع قرن قادم فلا مناص من أن نظل مرتبطين بالبترول وبهذه المنطقة ..

ويقول نيكسون : إن أكثر ما يهمنا فى الشرق الأوسط هو البترول وإسرائيل ..

هل ترون كيف تفكر أمريكا وكيف يفكر الغرب .. ؟

مصالح ..والغطاء الظاهر هو المبادئ ..

المسألة إذن ليست الدين الإسلامى ..

* * *

حتى نيكسون يتحدث أيضا فى كتاب آخر عنوانه « ما بعد السلام » ترجمة المشير محمد عبد الحليم أبو غزالة عن نظرية هنتنجتون .. ويقول : إنه إذا اساء الغرب معالجة علاقاته مع العالم الإسلامى فإن الصدام بين الحضارات قد يضع الغرب فى مواجهة ضد الإسلام .. ويجب على الولايات المتحدة ألا تسمح لصدام الحضارات بأن يتحول إلى الخاصية السائدة لعصر ما بعد الحرب الباردة .. وكما لاحظ هنتنجتون أن الخطر الحقيقى ليس فى حتمية هذا الصدام ، ولكن فى عدم القيام بأى عمل من جانبنا وهو الذى سيحقق هذه النبوءة ، إذا ما استمر سلوك أمريكا إهمال الصدامات التى يكون المسلمون فيها هم الضحية .. فإننا ندعو بذلك إلى صدام بين العالم الغربى والعالم الإسلامى .. وصدام واحد من هذا النوع يمثل فشلا للسياسة الخارجية الأمريكية هو المذبحة فى يوغسلافيا سابقا .. إن الولايات المتحدة والأمم المتحدة والمجتمع الأوربى ترددت .. وراوغت .. ولم تفعل شيئا لمواجهة المذبحة التى

تعرض لها المسلمون من الصرب .. ولو كان غالبية سكان سراييفو من اليهود أو المسيحيين لما سمح العالم بحصار المدينة ..

ويقول نيكسون ليطمئن الغرب : إن السيناريو المزعج الذى يراه البعض أن الإسلام المتطرف فى طريقه للصدام مع الغرب سيتحقق فقط إذا وصلت القوى المتطرفة إلى السلطة فى العالم الإسلامى ، ولكن معظم مسلمى العالم لا يرقصون على طبول المتطرفين ، والنظم المتطرفة مازالت أقلية وتمثل ١٠٪ فقط من إجمالى سكان العالم الإسلامى .

ويقول أيضا : فى صدام الحضارات توجد حقيقة واضحة .. هى أننا (أى الغرب) الأمة الأقوى والأغنى فى التاريخ ، وهذا ليس كافيا ، والعامل الذى سيكون حاسما هو قوة المبادئ العظيمة ، الدينية والعلمانية ، التى تجعل أمتنا أمة عظيمة ، وعلى الرغم من أن الغرب والمسلمين بينهم خلافات حقيقية فى الثقافة والتطور التاريخى فمن الممكن أن يتعلم كل جانب من الآخر ، وأن ندرس أسباب نجاحنا وفشلنا السابقة .

ثم يقول نيكسون : لقد كان القرن العشرون فترة صدام بين الغرب والعالم الإسلامى ، وإذا ما عملنا معا ، يمكننا أن نجعل القرن الحادى والعشرين ليس فقط قرن سلام فى الشرق الأوسط والخليج ، وإنما أيضا قرنا فيه ما وراء السلام : حضارتان عظيمتان تثريان بعضهما البعض وتثريان العالم .. ليس بالأسلحة والثروات ولكن بالقيم والمثل العليا ..

مثل هذه الأفكار مهمة جدا ..

لأن نيكسون رجل دولة .. عاش فى البيت الأبيض ..صانع سياسات .. وصاحب قرار .. ويمسك بيده مقاليد العالم ..

ولأنه – فوق ذلك – مثقف .. يعرف كثيرا عن النظريات والفلسفات ..

فهو ليس مجرد حاكم سياسى .. ولكنه أحد حكماء الغرب ..

فإذا كان يتحدث عن صراع الحضارات وعن هنتنجتون وعن حتمية الصراع بين الغرب والإسلام وأسبابه وكيفية تفاديه .. فالمسألة إذن فى منتهى الجدية ..

ولابد أن نشغل أنفسنا بهذا الموضوع ..

وفكرتى الشخصية أن الغرب ينسج نظرية جديدة لكى يحدد العدو الجديد .. بعد انتهاء الاتحاد السوفيتى كعدو .. لابد من وجود عدو لكى يحتفظ الغرب بتماسكه .. وبإرادة القتال والنصر .. ليس أمام الغرب الا الإسلام .. ولحسن حظ الغرب أن الإسلام فى بلاد فيها البترول وإسرائيل .. ولكى يمهد لاستمرار بقائه لا يستطيع أن يقول الحقيقة .. ولكنه يؤلف نظرية تعطيه الفرصة للتدخل فى شئون الدول الإسلامية ، وفى اللعب المكشوف والخفى لإشعال نار الخلافات بين الدول الإسلامية وإشعال الخلافات أيضا داخل كل بلد إسلامى ،والغطاء الفكرى الجاهز الآن لكل ذلك هو نظرية صراع الحضارات وأن الإسلام هو العدو القادم ..

لذلك أقول .. وأكرر .. على العالم الإسلامى أن يتنبه .. احذروا .. !

هناك خطر قادم .. من الخارج ومن الداخل والفاعل واحد ..

فى الظاهر العدو هو الإسلام وفى الباطن الهدف هو السيطرة على الأرض والثروة ..والبداية السيطرة على العقول وعلى الإرادة ..

هناك من ينكر ذلك ويقول أنتم واهمون ترون خيالكم فتشعرون بالخوف ..

لا بأس .. بعضهم طيبون .. وبعضهم له مصالح تربطه بالغرب ويرى فيه مستقبله ..

وبعضهم يحمل فعلا جنسية دولة من دول الغرب ويحمل جواز السفر الخاص بها وحاجز للإقلاع فى أى لحظة بعد أن يجمع كل ما يستطيع ..

أما نحن .. فسنعيش هنا .. وسنموت هنا .. مستقبلنا كله .. ومستقبل أولادنا على هذه الأرض ..

ومن هنا أدركت أهمية الجولات التى يقوم بها شيخ الأزهر الدكتور محمد سيد طنطاوى فى دول الغرب ..

إن هذه الجولات جهاد فى سبيل الله وسوف تكتب فى ميزان حسناته ..

فهو وحده الذى يستطيع أن يتحدث بلغة يفهمها الغرب وتخاطب عقله ..

وهو وحده الذى يستطيع أن يشرح مبادئ وشريعة الإسلام بسهولة وبساطة ويصل إلى العقول ..

وهو وحده الذى يستطيع أن يواجه النظرية التى تقول : إن الإسلام هو العدو المحتوم للغرب ..

وهو وحده الذى يستطيع أن يصل بمنطقه الهادئ وأدلته المقنعة إلى قطاعات واسعة من المفكرين والباحثين والمثقفين وأهل الرأى فى دول الغرب .. ليشرح لهم أن الإسلام ليس دين إرهاب .. وليس عدوا للديانات أو الحضارات الأخرى .. وأنه دين يدعو إلى تعاون البشر جميعا .. لأنهم جميعا من أب واحد وأم واحدة .. وأن مسائل العقيدة وأيها صواب فإن الذى يحكم فى ذلك هو الله وحده .. ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ..

والموضوع كبير .. ومهم .. ويستحق أن أعود إليه ..لمن يهمه الأمر ..

أهداف سياسية .. وليست دينية !

أختلف مع الذين يقولون : إن ميراث العداوة الذى يحمله الغرب للإسلام منذ الحروب الصليبية حتى اليوم يرجع إلى أسباب دينية .. أو إنه تعبير عن صراع الديانات .. أو صراع الحضارات .. وأرى أن القضية كلها سياسية .. العداء سياسى .. والكراهية لأسباب سياسية .. والمخاوف سياسية .. وإن ظهرت فى ثوب دينى .. !

تخوف الغرب من الإسلام والمسلمين حقيقة مؤثرة هناك .. والمسلمون لا يأخذون المسألة مأخذ الجد ، يتصورون أنها ليست إلا تعبيرا عن أفكار شاذة لبعض مفكرين غربيين يبحثون عن موضوع يشغلون به الناس ..

ليس فى المسلمين من يفسر سلوك القادة السياسيين والكتاب والمفكرين فى الغرب ، على أنه تعبير عن هذه الفكرة المسيطرة على الغرب ، وهى أن الإسلام هو الخطر الوحيد على الغرب وعلى الحضارة الغربية ، وأن المسلمين يريدون السيطرة على العالم الغربى ليقضوا على تقدمه العلمى ويعيدوه إلى عصور الجهل والتخلف والظلام ، وأن كل ما وصل إليه الغرب من تقدم فى علوم الكمبيوتر والليزر والهندسة الوراثية والمواد الجديدة وتكنولوجيا الفضاء والذكاء الاصطناعى ، مهدد بالزوال إذا ساد الإسلام العالم ليحل محلها الإيمان بالسحر والخرافات والأحلام ، وسوف تطوى مرحلة الحياة الإنسانية المليئة بالعمل والإنتاج لتحل محلها مرحلة مليئة بالجنس والنفاق .. ويعود العالم كله إلى حكم هارون الرشيد وألف ليلة وليلة والندماء والجوارى .. ! .

هذه الأفكار الغريبة ليست منتشرة بين الجهلاء وعامة الناس فى الغرب .. بل إنها منتشرة – مع الأسف – بين المثقفين .. وما كان يقال منذ

ثلاثة أو أربعة قرون مازال مؤثرا فى العقل الغربى إلى اليوم .. وهى فى الأصل ذات أهداف سياسية ولكنها تكتسب كل يوم قوة دينية وتمتد لها جذور عقائدية .. وهذا هو الخطر ..

* * *

منذ مائة عام ، وبالتحديد فى عام ١٨٩٦ صدر كتاب من تأليف مفكر فرنسى مشهور هو الكونت « هنرى دى كاسترو » يقول فيه : « إن جميع أغانينا التى ظهرت قبل القرن الثانى عشر صدرت عن فكر واحد ، كان المحرض على الحروب الصليبية ، وكلها محشوة بالحقد على المسلمين ، للجهل بديانتهم ، ولايزال بعضها راسخا إلى هذه الأيام .. وكذلك المؤرخون مؤلفاتهم مملوءة بالطعن فى نبى المسلمين .. » ولأهمية هذا الكتاب ترجمه أحمد فتحى زغلول باشا شقيق الزعيم سعد زغلول ..

وحتى الآن كلما أجلس مع بعض الرجال المسيحيين ينتهى حديث المجاملات إلى سؤال مثل : أليس الإسلام دينا يبيح الرق ، ويسمح للإنسان أن يمتلك إنسانا آخر ويبيعه أيضا ، وإن كانت فتاة فهى ملك يمينه .. ؟

طبعا لا تستطيع أن تجيب عن السؤال بأن تقول له : إن أمريكا كان فيها أحياء للسود وكانوا إلى عهد قريب جدا يعاملون معاملة الكلاب .. ! أو أن تقول له : إن الاستعمار الغربى فى أفريقيا كان يبيع الأفارقة فى الأسواق ، وكذلك لا تستطيع أن تشرح له وضع الرق فى إطاره التاريخى .. كأن تقول له : إن الرق كان نظاما سائدا فى العالم كله منذ ١٤٠٠ عام .. وفى أوربا كان أسرى الحرب يؤخذون أرقاء .. وكان الأوربيون يخطفون أبناء أفريقيا وينقلونهم بالسفن إلى أمريكا وأوربا للبيع ، وكان المدين المعسر إذا لم يستطع

أن يسدد دينه يتحول إلى رقيق لدائنه ، وكان الرق مفروضا كعقوبة على من يرتكب جرائم معينة ، ولا تستطيع أن تقول له : أن التوراة تقول فى العهد القديم فى الإصحاح العشرين : « حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك بالتسخير ويستعبد .. » .. ولا تستطيع أن تقول له : اقرأ وصايا بولس الرسول فى الإنجيل ويأمر فيها العبيد بإطاعة أسيادهم كما يطيعون السيد المسيح .. وقوله إلى أهل افسوس : « أيها العبيد أطيعوا سادتكم حسب الجسد ، بخوف ورعدة ، فى بساطة قلوبكم كما للمسيح .. » أو تقول له : اقرأ وصايا بطرس الرسول .. أو قل لى : هل كان يمكن أن تقوم الحضارة اليونانية أو الرومانية بغير العبيد الذين كانوا يمثلون أدوات الانتاج فى تلك العصور ؟

ولكنك تستطيع أن تقول له : إن الإسلام هو الدين الذى وضع نظاما للقضاء على الرق .. بدأ بإلغاء كل أنواع الاسترقاق إلا حالة واحدة هى حالة أسرى الحرب .. أما الصور الأخرى التى كانت سائدة فى أوربا فقد حرمها .. منع الإسلام الاسترقاق نتيجة الخطف والإغارة .. أو وفاء لدين .. أو لعقوبة على جريمة .. أو بيع الإنسان نفسه لفقره .. وليست كل الحروب .. بل حرب واحدة : إذا كانت حربا دفاعية .. وكانت دفاعا عن الدين أو الوطن .. أما الحرب الهجومية العدوانية فلا يحل استرقاق أسراها ..

هذا التعديل – كما قال أستاذنا الدكتور عبد المنعم النمر ضيق منبع الرق .. ثم جاءت الخطوة الثانية وهى إظهار كراهة الإسلام للرق بدليل أنك لا تجد نصا فى القرآن أو السنة يأمر بالاسترقاق أو يستحسنه .. بل إن الآية التى حددت كيفية التصرف فى أسرى الحرب حددت سبيلين : المن أو الفداء .. ﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ﴾ .. (أى قيدوا الأسرى)

ثم جاءت الخطوة الثالثة بدفع المسلمين إلى تحرير الرقيق .. اقتحام العقبة التى تحول بين المسلم والجنة يكون بعتق رقبة .. والقتل الخطأ لمؤمن أو ذمى أو معاهد فالكفارة عتق رقبة : ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ ، ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا ، فإن كان من قوم عدو لكم ، وهو مؤمن ، فتحرير رقبة مؤمنة ، وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة﴾ .. وكفارة الحنث باليمين عتق رقبة .. وكفارة الذين يظاهرون من نسائهم عتق رقبة كأن يقول الرجل لزوجته « أنت محرمة على كأمى أو أختى » .. وإذا قال الرجل لعبده وهو يمزح : أنت حر فقد أصبح حرا .. وإذا ضرب الرجل عبده فإن عقابه شديد عند الله ولا يكفر عنه إلا أن يعتقه .. وأحد مصارف الزكاة .. عتق الرقاب .. وهكذا توسع فى العتق حتى انتهى نظام الرق الذى كان مستحكما فى العالم كله ..

كان نظام الرق فى الإسلام مساويا لنظام الرق فى كل النظم التى كانت سائدة فى العالم .. ولكنه امتاز بأن ضيّق مصادر الرق فى حالة واحدة هى الحرب الدفاعية وتوسع فى العتق .. لماذا أبقى الإسلام على الرق .. لأنه كان نوعا من المعاملة بالمثل .. لأن المسلمين إذا انهزموا كان الآخرون يأخذونهم رقيقا أيضا ..

الرق كان نظاما مستقرا فى أوربا حتى زمن قريب .. ولكنهم عادة لا يذكرون ذلك .. مع أن الكتب والروايات والقصص مليئة ..

ولكنه موقف من الإسلام بالذات يريد أن يجمع أى اتهام ويلصقه به وحده ..

* * *

وتقول لمن يسألك هذا السؤال الخبيث : إن موقف الإسلام من اسرى الحرب لا يختلف عن موقف القانون الدولى فى العصر الحديث ..

هذه قضية يكررها كل من يقابلك فى الغرب إذا عرف أنك مسلم .. وربما يكون معذورا لأنه يقرأ لعلماء ومؤرخين معروفين سخروا علمهم لترويج الأكاذيب للاساءة إلى الإسلام ..

وما أكثر الكتب والدراسات المليئة بالأكاذيب عن الإسلام والخصومة له ..

* * *

ويقولون لك : إن الإسلام يفرض الجزية على غير المسلمين الذين يعيشون فى بلد مسلم .. ؟

ولا تستطيع أن تقول له : إن الجزية كانت نظاما معمولا به عند اليونان والرومان والفرس .. وأول من فرضها كان كسرى ملك الفرس وفرضها على البلاد العربية الواقعة تحت حكمه فى شرق الجزيرة العربية فنقلها العرب .. وفى الإسلام – كما يقول الشيخ رشيد رضا – أمر بالقتال فى حالة واحدة هى وقوع اعتداء أو اضطهاد على المسلمين أو تهديد لأمنهم وسلامتهم كما فعل الروم وكان سببا فى غزوة تبوك . فالقتال فى الإسلام للدفاع ليس للعدوان ، وحين ينتصر المسلمون ويدخلون بلدا فإنهم يأخذون من أهله الجزية ضريبة مقابل حمايتهم وتوفير الحماية والأمن لهم .. ولم يحدد القرآن مقدار الجزية .. ولم تكن تفرض على أشخاص ، ولكن تفرض على القرية كلها أو المدينة ويتولى حاكمها توزيعها على القادرين .. والذى نظمها هو عمر بن الخطاب وحددها على أساس الحالة المالية لأفرادها .. ولا تفرض إلا على الذكور البالغين الأصحاء القادرين على دفعها .. ولا يدفعها الشيوخ ولا النساء ولا أصحاب العاهات .

والجزية هى « ضريبة الدفاع » كما يقول شيخنا الدكتور عبد المنعم النمر .

وكل من كان يقدم عونا للمسلمين من أى نوع يعفى من الجزية .. وفى العصر الحديث ليس هناك حالة واحدة فى العالم تنطبق عليها الجزية .. ليست هناك حروب يتولى المسلمون بعدها حماية من انهزم فيها .. وغير المسلمين فى العالم الإسلامى هم مواطنون يشاركون فى الجيش وفى المجهود الحربى ويقدمون دماءهم فداء لأوطانهم .. فكيف تنطبق عليهم شروط الجزية ؟

كل هذه قضايا تُطرح طرحا مغلوطا .. وهذا مقصود .. وعن عمد .. وليس بحسن نية .

لأن كل من كان حسن النية من مفكرى الغرب قال كلمة الحق .. فهذا « ول ديورانت » أكبر مؤرخ فى العصر الحديث يقول فى كتابه الكبير : « قصة الحضارة » : « إن أهل الذمة من المسيحيين والزرادشتيين واليهود والصابئين كانوا يستمتعون بدرجة من التسامح فى عهد الخلافة الإسلامية لانجد له نظيرا فى البلاد المسيحية فى هذه الأيام .. كانوا أحرارا فى ممارسة شعائرهم الدينية ، واحتفظوا بكنائسهم ومعابدهم .. وأصبح المسيحيون الخارجون على كنيسة الدولة البيزنطية أحرارا ، وهم – الذين كانوا يلاقون منها الاضطهاد على يد بطارقة القسطنطينية ، وأورشليم والإسكندرية ، وأنطاكيا – وأصبحوا آمنين تحت حكم المسلمين ، بل إن والى أنطاكيا المسلم عين حارسا خاصا ليمنع الطوائف المسيحية من أن يقتل بعضها بعضا » .

ويقول ديورانت أيضا : « كان المسلمون مثالا للرقة والإنسانية والتسامح ، وكان المسيحيون يحتلون أرقى المناصب فى الدولة الإسلامية ، بينما نجد النورمان عندما فتحوا صقلية سنة ١٠٦٠ – ١٠٩١ كانوا يفخرون بأنهم سووا الأرض بالمدائن والقصور العربية التى أقامها المسلمون بأرقى الفنون » ! .

وهناك كتاب معروف للمستشرقين الغربيين جميعا ولكنهم يخفونه ولا يشيرون إليه ، لأن مؤلف الكتاب ، توماس أرنولد يقول الحق ويسرد وقائع تدل على سماحة الإسلام والمسلمين .. الكتاب بعنوان « الدعوة » ويذكر فيه قصة كتبها القسيس الخاص للويس السابع وكان يصحبه فى حملته على بيت المقدس ، فيذكر القسيس ما أصاب جيشهم من كوارث على يد المسيحيين الاغريق ، ثم يذكر موقف المسلمين بعد أن هزموهم فواسوا مرضى الحملة الصليبية المهزومين ، وأطعموا الجائع ، فكان البون شاسعا بين المعاملة الرحيمة التى لقيها المسيحيون الغزاة من « الكفار » يقصد المسلمين ! وبين القسوة التى عاملهم بها إخوانهم المسيحيون من الإغريق !

ويقول توماس أرنولد : إن المسلمين حين دخلوا اسبانيا وجدوا أهلها يعانون من ظلم الكنيسة الكاثوليكية ، وكان اليهود والمسيحيون من المذاهب الأخرى يقاسون الويل مما جعلهم يرحبون بالحكم الإسلامى لأنهم وجدوا فيه العدل والتسامح فلم يتعرض المسلمون للمسيحيين فى أدائهم لشعائرهم ، بل قربوا كثيرا منهم إلى بلاطهم .

من ناحية أخرى يصف ول ديورانت وحشية الحروب الصليبية « بعد حصار دام أكثر من شهر استولت قوة بقيادة جود فرى على مدينة القدس وكانت المذبحة رهيبة وكان دم المسلمين يجرى فى الشوارع » ..

ومع ذلك فقليل هم المنصفون للإسلام والمسلمين فى الغرب .

لماذا العداء فى الغرب للإسلام والمسلمين ؟

هناك تفسير لأستاذنا الراحل أحمد أمين فى كتابه المشهور « يوم الإسلام » يقول : إن مستر جلادستون كان يعلن وجوب إعدام القرآن وتطهير أوروبا من المسلمين ، وزعيم حزب الأحرار البريطانى المشهور « جلاد ستون » الذى توفى عام ١٨٩٨ . واللورد سالسبرى من زعماء بريطانيا فى القرن الماضى

وغيرهم أعلنوا العداء للإسلام والمسلمين .. والسبب أن الغرب أخذ أصول ثقافته من الثقافة اليونانية .. وكانت الفكرة اليونانية الأساسية هي تقسيم العالم إلى يونانيين وبرابرة ، فاعتقد الغربيون أيضا أن العالم ينقسم إلى سادة أوربيين وعبيد من العالم الآخر .

ويذكر شيخنا الدكتور عبد المنعم النمر لحظة أن دخل القائد الانجليزى اللورد اللنبى القدس فى الحرب العالمية الأولى بعد انتصاره على العثمانيين فقال بصوت عال : « الآن انتهت الحروب الصليبية » وأراد بذلك أن يقول : إن استيلاء الغرب على بيت المقدس هو الانتقام من صلاح الدين الذى طرد الصليبيين ..

هل معقول أن الحروب الصليبية كانت – إلى هذا الحد – تعبيرا عن دوافع عميقة فى الغرب .. ؟

دائرة المعارف البريطانية ذاتها تعترف بأن المشرق العربى الإسلامى – وقت الحروب الصليبية – لم يكن يعرف التعصب ضد أى دين .. قبل أن تداهمه أوربا بهذه الحروب وتنكيلها الوحشى بالمسلمين واليهود وأحيانا بالمسيحيين العرب !

ودائرة المعارف البريطانية لم تستطع أن تنكر أن أوربا أخذت من العالم الإسلامى العلوم والصناعات المتقدمة والفنون التى كانت تجهلها ولم تقدم أوربا للشرق العربى الإسلامى أى شىء له قيمة حضارية .. لأن أوربا لم يكن لديها فى ذلك العصر ما تقدمه .. وقد دهش الصليبيون الذين جاءوا من أوربا وهم معتقدون أن المسلمين برابرة ، فوجدوا لديهم كل هذه المظاهر للحضارة والتقدم والنظم التى لاتعرفها أوربا !

لكل من يسألنى : لماذا ينطوى الاسلام على العدوان ؟ .. ولماذا المسلمون لديهم نوايا وسلوك عدوانى أقول : إن المسلمين كانوا على مر التاريخ ضحايا

عدوان من أوربا .. فى عام ١٠٨٥ جاءت أوربا لهزيمة المسلمين فى الأندلس .. وفى عام ١٠٨٧ احتل الإيطاليون مدينة « المهدية » فى تونس .. وفى عام ١٠٩١ قام الأوربيون بطرد المسلمين العرب من جزيرة صقلية .. وبدأت أول حملة صليبية لغزو العالم الإسلامى فى عام ١٠٩٥ ، وبلغ عدد الحروب الأوربية الصليبية للعالم العربى الإسلامى ٨ حملات .. وكانوا غاية فى القسوة والوحشية فى معاملة المسلمين حين هزموهم .. أما حين انتصر صلاح الدين على الصليبيين فقد عامل المسيحيين واليهود بسماحة وترحاب ..

فى الغرب الآن جامعات وأساتذة ومفكرون ومثقفون رسالتهم فى الحياة أن ينشروا بكل طريقة فكرة أن المسلمين متعصبون .. وأن الإسلام ينطوى على كراهية الآخر .. ويحرض على العدوان على غير المسلمين ..

بينما لا يقول أهل الغرب شيئا عن تعصب اليهود .. ولا يذكرون مثلا أن الحاخام الأكبر فى إسرائيل منع زواج بنت رئيس الوزراء بن جوريون من ضابط يهودى لأن أمها كانت مسيحية واعتنقت اليهودية ! وقدم بن جوريون (وهو رئيس الوزراء) شهادات تثبت أن زوجته كانت يهودية صالحة منذ زواجه بها فى بريطانيا واستمرت مخلصة لليهودية طول حياتها ، ولكن الحاخام لم يعترف بذلك ، ولم يجد بن جوريون وزوجته وابنته بدا من أن تقدم زوجته طلبا جديدا إلى الحاخام الأكبر لاعتناق اليهودية لينظر فى قبوله أو رفضه !

ويقولون : إن المتعصبين هم المسلمون !

ويقولون : الإسلام دين رجعية وجمود وتوقف عند مرحلة نشأته الأولى لا يغادرها ولا يساير تطور الزمن .

ونقول : إن المسلمين أضافوا الكثير لعلوم الطبيعة والكيمياء والطب

والفلك والرياضة ، وإن الغرب أقام نهضته وخرج من عصور الظلام بفضل نقل العلم والحضارة والفكر عن العرب .

ولكن أكثرهم لا يحب أن يستمع إلى هذه الحقائق ..

الحاخام الأكبر فى إسرائيل أصدر منذ أكثر من عشر سنوات فتوى تقول إن كل يهودى يقبل إخلاء أرض يسيطر عليها اليهود يعتبر كافرا ..

ويقولون : إن المسلمين هم المتعصبون !

وتقول إحدى الأساطير اليهودية القديمة إن السيف والتوراة نزلا من السماء معا ملفوفين فى لفافة واحدة .. وتقول إحدى الصلوات اليهودية : « فلتحل البركة على إله القوة الذى يدرب يدىَّ على الحرب وأصابعى على القتال » .

ويقولون أن الإسلام دين عدوان ! شىء لا يصدقه عقل ..

أكاذيب .. وتلفيق .. وتزوير الحقائق .. وقلب وقائع التاريخ .. كل ذلك لكى يجدوا الأساس الفكرى والعقائدى لكراهية الإسلام والمسلمين ..

وأغرب ما يقال : إن المسلمين يعادون السامية ويكرهون اليهود واليهودية ..

مع أن العرب ساميون فكيف يعادون السامية .. واليهودية دين منزل من عند الله ، والمسلم الذى لا يؤمن بذلك لا يعتبر مسلما ، وقد أمر الله بذلك ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله .. ﴾

فإذا كان قرآن ربنا يؤكد أن الرسول آمن بالديانات السابقة .. وأن المسلم الحق لا يفرق بين أحد من الرسل .. فكيف يقولون : إن الإسلام دين تعصب

وكراهية للأديان الأخرى .. والأديان الأخرى جزء لا يتجزأ من عقيدة المسلم .. إذا أنكرها أصبح إسلامه ناقصا ؟

ولوزير الأوقاف الدكتور محمود حمدى زقزوق ثلاثة كتب مهمة عن الإسلام والغرب .. بحكم احتكاكه بالغرب عندما كان يدرس للدكتوراه فى المانيا .. ثم عاد إلى الغرب أستاذا محاضرا ودارسا للفكر الغربى ..

وهو ينقل فى كتابه « الإسلام فى مرآة الفكر الغربى » عن عميد المستشرقين الألمان البروفيسور فريتس اشتبات قوله : إننا نشهد .. فى الوقت الحاضر إعادة نشأة صورة العدو المتمثلة فى الإسلام .. وهناك خبراء مزعومون فى وسائل الإعلام يتحدثون عن الحركات الإسلامية على أنها تثير الكراهية ضد الغرب ، وتهدد العالم غير الإسلامى بعاصفة تتارية جديدة ، وينظر أحيانا إلى المسلمين الذين يعيشون بيننا (فى المانيا) على أنهم يمثلون « الطابور الخامس » .. وهذه الأحكام تمثل من جانبنا عقبة أمام التعايش السلمى مع المسلمين فى بلادنا ومع جيراننا ، وتثير الكراهية .

والدكتور زقزوق – الأستاذ الجامعى قبل أن يكون وزير الأوقاف – يقول فى كتابه : إن وسائل الإعلام الغربية مستمرة فى خطتها لتشويه صورة الإسلام ، وتصويره بأنه دين عدوانى ، معاد لحقوق الإنسان ، والديمقراطية ، والعلم ، والحضارة ، حتى أصبح مصطلح « الخطر الإسلامى » الذى يهدد الحضارة الغربية من المصطلحات السائدة فى الغرب ، وأصبح الإسلام لدى ساسة الغرب هو البديل بعد انهيار الشيوعية وتفكك الاتحاد السوفيتى .

والدكتور زقزوق معه حق ، لأن مفكرا أمريكيا مثل فرانسيس فوكوياما يقول فى كتابه « نهاية التاريخ » : إن الإسلام يشكل ايديولوجية متسقة ومتماسكة مثل الليبرالية والشيوعية .. وله معاييره الأخلاقية الخاصة به ونظريته المتصلة بالعدالة السياسية والاجتماعية ، كذلك فإن الإسلام له جاذبية

يمكن أن تكون عالمية ، وهو يدعو إليه البشر كافة ، وقد تمكن الإسلام من الانتصار على الليبرالية فى أنحاء كثيرة من العالم الإسلامى ، وأصبح خطرا كبيرا على الممارسات الليبرالية ، وظهر ذلك بعد نهاية الحرب الباردة فورا فى تحدى العراق الغرب ، وقيل : إن الإسلام كان أحد عناصر هذا التحدى !

هذا ما يقوله فوكوياما فى كتابه الذى لم يقرأه المسلمون .. « نهاية التاريخ » .

وقال فيه أيضا : إنه مع القوة التى أبداها الإسلام فى صحوته الحالية فليست له جاذبية خارج المناطق التى كانت إسلامية فى الأصل ، وهذا يعنى أن زمن التوسع الإسلامى قد ولّى ، وإن كان الإسلام قادرا على استعادة الخارجين عليه إلا أنه لا يصادف هوى فى قلوب الشباب فى برلين أو طوكيو أو موسكو ، ورغم أن خُمس تعداد سكان العالم مسلمون ، فليس بوسعهم تحدى الديمقراطية الليبرالية فى أرضها ، بل إن العالم الإسلامى هو الأكثر تعرضا للتأثر بالأفكار الليبرالية ، ولاشك أن أحد أسباب الصحوة الأصولية الراهنة هو قوة الخطر الذى تشعر به المجتمعات الإسلامية التقليدية من القيم الغربية الليبرالية .

وهو يقول أيضا : إن الاقطار الإسلامية لم تحقق نجاحا سياسيا أو اقتصاديا . كما كان يأمل دعاة الإصلاح فى القرن ١٩ و٢٠ وظلت المجتمعات الإسلامية تابعة للاستعمار الغربى خلال الحرب العالمية الثانية ، كما تحطم مشروع الوحدة العربية بعد هزيمة مصر عام ١٩٦٧ ، وكان قد سبق خلال المائة عام الماضية هزيمة القيم (الإسلامية) العفنة المتهاونة ، ونرى تشابها بين الأصولية الإسلامية والنازية الأوربية ، ولا يمكن إدراك قوة الإحياء الإسلامى إلا إذا أدركنا عمق الجرح الذى أصاب كبرياء المجتمع الإسلامى بسبب

فشله المزدوج فى الحفاظ على تماسك المجتمع الإسلامى التقليدى ، والتمكن من القيم والتكنولوجيا الغربية ؟

هكذا يعلن فيلسوف الغرب الجديد فرانسيس فوكوياما أن الإسلام يحمل نفس القيم الفاشية .. وأن الإسلام له جاذبية واسعة فى أرضه فقط ، ولكنه لا يجذب عقول الغربيين .. وأن الإسلام هو السبب فى تخلف المسلمين .. وأنه وراء فشل المسلمين فى التفوق علميا أو اقتصاديا أو صناعيا .. وإنه لم يبق للإسلام والمسلمين إلا استخدام أسلحة الفاشلين وهى العنف ، وقد يكون التعبير عنها بتوجيه هذا العنف إلى مظاهر التقدم والتفوق فى الغرب .

كلام فارغ .. ! ولكنه يجد من يصدقه ويستجيب له ..

وأخطر من ذلك أن هذه الأفكار تؤثر فى القادة والمؤسسات الغربية وتؤثر فى السياسات والقرارات .

وإذن فالتخوف من الإسلام ليس أمرا عارضا أو عابرا فى الغرب ..

وما دام الغرب يرى أن الإسلام خطر عليه فلابد أنه سيخطط ويعمل على ضرب الإسلام وأهله ضربات إجهاض مبكرة .. ولن ينتظر إلى أن تظهر قوة العالم الإسلامى .

والمهم فى الموضوع أن القضية ليست قضية فكرية أو دينية .. ليس الموضوع الإسلام كدين فى مواجهة دين آخر مثل المسيحية أو اليهودية .. ولكن القضية ذات بعد سياسى فى المقام الأول .. والكلام عن العقيدة ليس إلا وسيلة لإثارة الكراهية والمخاوف من الإسلام .

* * *

وكل فكر معاد للإسلام فى الغرب هو مقدمة للسياسة وليس العكس .

ووزير الأوقاف الدكتور زقزوق يقول لنا بعد دراسة موقف الفكر الغربى

من الإسلام استغرقت أكثر من ثلاثين عاما : إن الصورة السلبية السائدة اليوم عن الإسلام فى الغرب ليست صورة وقتية عارضة ، وإنما هى صورة قديمة صاغتها قرون طويلة من الصراع الحضارى بين الإسلام والغرب ، وإن الغرب يسعى إلى تعميق عقدة التخلف ومركبات النقص فى ذهن المسلمين ، والمستشرقون يختارون من التاريخ الإسلامى مواقف الضعف وفترات الانحلال ، ويختارون من الأحاديث النبوية الأحاديث الموضوعة والإسرائيليات ، ويختارون من بين التفسيرات الكثيرة للنصوص التفسيرات المتأخرة المليئة بالخرافات .. والدكتور زقزوق يشير إلى كتاب المستشرق الألمانى المشهور اشتيجليكر وكتابه « عقائد الإسلام » وكيف وقف عند حديث يقول : « أتانى جبريل بقدر فأكلت منها فأعطيت قوة أربعين رجلا فى الجماع » ليتحدث طويلا عن القوة الجنسية عند الرسول ، والدكتور زقزوق يقدم الأدلة العلمية على أن هذا الحديث مكذوب وموضوع ، ويضيف الدكتور زقزوق أن المستشرق الألمانى الكبير يذكر حديثا للرسول يقول : « إنما حبب إلى من دنياكم الطيب والنساء » ولا يشير إطلاقا إلى تكملة هذا الحديث ، وهى قوله ﷺ : « وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .. فالمستشرق الكبير يريد فقط أن يظهر نبى الإسلام لقرائه الأوروبيين على إنه شخصية شغوفة بأمور الدنيا ومتاعها ، وإن الروحانيات لم تكن تلعب فى نفس محمد إلا دورا ثانويا .. بل إن هذا المفكر الألمانى يعرض عرضا كاريكاتيريا قصة زواج الرسول ﷺ بالسيدة عائشة عندما كانت طفلة فيقول : إن النبى تزوجها وعمرها ست سنين ، ويضيف أن الرسول كان يغير فى القرآن لإرضاء أهل قريش ! وأكثر من ذلك يخصص المفكر الألمانى فصلا فى كتابه بعنوان « هل كان محمد قاسيا وخائنا ؟ » وقال فيه « لقد وجهت إلى محمد باستمرار اتهامات عظيمة تتمثل فى أنه فى سبيل الانتصار لدعوته قام بمعاملة خصومه بقسوة ووحشية لا ترعى شيئا ، ولم يثنه عن ذلك خشيته من نقضه للعهود والأيمان ،

وفى النهاية جعل معارضيه يُجبرون على الدخول فى دينه عن طريق حرب لا إنسانية » ! ويقول أيضا إن انتشار الإسلام فى آسيا وافريقيا كان بسبب جيوش المسلمين الزاحفة التى كانت تنشر الخوف والفزع والرعب فى كل مكان ! ومع أنه ألمانى ويكتب باللغة الألمانية للشعب الألمانى إلا أنه أعطى نفسه الحق في الحديث عن لغة القرآن ليقول : إن لغة القرآن لغة عادية لاتزيد عما فى كتب الأدب !

ثم إن هذا المستشرق يجهد نفسه فى البحث فى كتب مجهولة ومشكوك فيها بحثا عن كل ما هو غريب وشاذ من الأحاديث والأخبار والأقوال التى ثبت للباحثين منذ قرون عدم صحتها ، ولكنه يحرص على إحياء كل مادسه اليهود فى التراث الإسلامى ، حتى أن الدكتور زقزوق يعلق على بحث هذا المستشرق : إنه قد يكون أقل من غيره من المستشرقين تعصبا وتحيزا ضد الإسلام ، ولكنه لم يحقق وعوده فى مقدمة الكتاب بأن يكون موضوعيا ، واختار المراجع المشكوك فيها والضعيفة ، وترك المراجع المعتمدة الأصلية رغم إنه يعرفها جيدا ، وهو متخصص فى الدراسات الإسلامية لأكثر من ثلاثين عاما .. وهو ينطبق عليه ما كان يقول مكسيم رودنسون — المستشرق الفرنسى — من أن المستشرقين لم يروا فى الشرق إلا ما يريدون رؤيته ، واهتموا بالأشياء الصغيرة والغريبة ، ولم يكونوا يريدون أن يتطور الشرق ليبلغ المرحلة التى بلغتها أوربا ، وكانوا يكرهون النهضة فى الشرق » .. هذا ما قاله المستشرق الفرنسى عن المستشرقين الغربيين .. قال ذلك فى محاضرة القاها فى عام ١٩٦٩ بالقاهرة بعنوان « رؤية أوربا للعالم الإسلامى » .

هذا ما قاله .. مستشرق عن المستشرقين .. فماذا نقول نحن ؟ !

* * *

كتاب آخر يعرضه لنا الدكتور حمدى زقزوق بعنوان « محمد والقرآن » ومؤلفه هو المستشرق الألمانى رودى بارت الذى كان يعمل أستاذا لعلوم الاستشراق فى جامعة توبنجن بالمانيا الغربية ، وله ترجمة المانية للقرآن ، وله مؤلفات عن الثقافة الإسلامية وصلة الإسلام بالثقافة اليونانية ، ومحور الكتاب هو الادعاء بأن الإسلام أخذ الكثير من اليهودية والمسيحية ، وهو يسمى المدينة المنورة بمدينة اليهود ! وهو ينكر – بشكل مباشر أن يكون القرآن من عند الله ، ويؤكد أن العبادات فى الإسلام بما فيها الصلاة مأخوذة من المسيحية واليهودية حيث كان النموذج المسيحى واليهودى فى الصلاة المشتمل على الركوع والسجود وقراءة نصوص مقدسة ، معروفا لدى العرب ..

ويقول الدكتور زقزوق : إنه سمع محاضرة فى جامعة ميونخ فى أواسط الستينات القاها المستشرق المعروف الدكتور كيسلنج على الطلبة ، أكد فيها أن الإسلام أخذ من اليهودية والمسيحية وتساءل : إذا كان محمد قد أخذ دينه عن اليهودية والمسيحية فلماذا لم يأخذ بنظرية التثليث المسيحية التى تعتبر الأساس الراسخ فى العقيدة المسيحية ؟ إما أنه لم يستطع فهمها ، وإما أن بحيرى الراهب الذى كان يشرح المسيحية لمحمد لم يكن هو نفسه يفهمها ؟ !

لا أستطيع أن ألخص الآن ما فى الكتاب المهم الذى قدم فيه الدكتور زقزوق « الإسلام فى مرآة الفكر الغربى » ولكنى اكتفى بالوصول إلى حقائق لابد أن نضعها أمامنا :

الحقيقة الأولى : أن الإسلام له أعداء .. طبعا له أعداء فى العقيدة ولكن هؤلاء مؤمنون بالله ، ويمكنهم التعايش مع كل من يؤمن بالله مهما يكن مخالفا لهم فى العقيدة . فالمسيحية فى ذاتها ليست عدوا للإسلام فى ذاته . والإسلام أيضا ليس عدوا للدين المسيحى أو الدين اليهودى . بل العكس ، فالمسلم مأمور من الله بأن يؤمن بكل الأنبياء والرسل ، وبكل الكتب والديانات

السماوية ، وبألا يفرق بين أحد من رسله .. ومن هذه الزاوية لا يمكن أن تكون اختلافات العقائد سببا للعداء .

والحقيقة الثانية : أن الغرب له مواقف سياسية قديمة وحديثة من هذه المنطقة الاستراتيجية من العالم التى يسكنها المسلمون .. والاستعمار الغربى له فيها تاريخ طويل .. والمصالح الاستعمارية والتوسعية والهيمنة الاقتصادية الغربية .. كل ذلك مازال قائما لا يمكن إنكاره .. ولا يستطيع الغرب أن يعلن عن أطماعه صراحة ، ولذلك يلجأ إلى إعلان أسباب غير حقيقية لتكون هى الستار الظاهر .. فيوجه العداوة إلى الإسلام ذاته .. ويركز على ظواهر سلبية فى المجتمعات الإسلامية وينسبها إلى العقيدة الإسلامية .. ففى أمريكا عصابات تقتل وتسرق فى الشوارع والمدن الكبرى ومع ذلك لا يقول أحد : إن هذه هى الأصولية المسيحية .. وفى أمريكا فرق شاذة لها عقائد دينية تشوه المسيحية وتدعو إلى الجرائم أو إلى الانتحار الجماعى أو الفردى ، أو تدعو إلى قتل المخالفين لها ، أو إلى الجنس الجماعى ، ولا يستطيع أحد أن يقول : إن هذه الجماعات تعبر عن الأصولية المسيحية .. فلماذا إذا ظهرت فى العالم الإسلامى جماعات إجرام ترتكب جرائم القتل والسرقة ولها سلوك شاذ يتفق أهل الغرب جميعا على أن هذه الجماعات هى المعبرة عن روح وعقيدة وحقيقة الإسلام !

قد يكون هناك خطأ غير مقصود من البعض .

ولكن انتشار الخطأ وتكراره .. ووصوله إلى المفكرين واساتذة الجامعات ورجال الإعلام والقادة السياسيين لابد أن يلفت النظر .

لذلك أقول : إن موضوع صورة الإسلام فى الغرب يحتاج إلى وقفة .. وقفة من رجال الفكر والدين أولا .. ومن الدول الإسلامية ثانيا .. ومن المؤسسات والمنظمات والجامعات فى الدول الإسلامية ثالثا .. ولابد من عمل

منظم .. يعتمد على العلم والعقل .. ويتعقب بصبر شديد كل ما يكتب وما يقال ويتولى الرد عليه بالتفصيل .

وأقول لابد أن يقوم القادرون على شرح حقائق الإسلام بجولات فى كل أنحاء الغرب ليواجهوا هذه الحملة الضارية ..

ولابد من مؤسسة علمية قوية تتولى ترجمة الكتب الإسلامية الأصلية إلى كل اللغات بدلا من ترك هذه المهمة للمستشرقين الذين يختارون أسوأ كتب التراث التى تسيء إلى الإسلام ولا تشرح حقائقه .

وأقول : إن الأزهر الشريف عليه مسئولية كبرى لابد أن يقوم بها ..

وهذا يقتضى إعادة بناء الأزهر من جديد ..

وما يقوم به فضيلة الإمام الأكبر من جولات لتوضيح حقائق الإسلام هو فى ذاته عمل كبير جدا .

ولابد أن تتنبه وزارة التعليم إلى هذه القضية وتحصن أبناءنا منذ البداية وتبصرهم بالفخ المنصوب للإسلام والمسلمين وحملة التشويه الضارية فى الغرب .. واعتقد أن الدكتور حسين كامل بهاء الدين سيكون أول من يقدر هذه المعركة .

وهذا موضوع آخر .

جذور .. وأصول .. !

لم أكن أظن أن العداوة فى الغرب للإسلام يمكن أن تصل إلى هذا الحد .. وحين كنت أقرأ ما يكتب حول هذا الموضوع كنت أعتقد أنها أوهام ، أو تعبير عن عقدة نفسية من جانب المسلمين لأنهم يشعرون بأنهم متخلفون علميا وحضاريا وتكنولوجيا ، وأنهم محتاجون للغرب للحصول على كل وسائل الحياة الحديثة وكل وسائل المعرفة .. وعندما تحدث أحد كبار شيوخنا الأجلاء فقال : إن الله سبحانه وتعالى قسم الأرزاق بين عباده ، فجعل أهل الغرب يتعبون ويسهرون الليالى ليبتكروا ويخترعوا .. وجعل المسلمين يستفيدون من هذه الاختراعات دون جهد .. لكى يتفرغوا لعبادة الله .. لتكون لهم الجنة وللآخرين النار .. !

فأهل الغرب تعبوا كثيرا ليصلوا إلى اختراع الطائرة .. ونحن نستمتع بركوبها دون تعب .. وأهل الغرب اخترعوا التليفزيون والفيديو والميكروسكوب والأشعة والأدوية والأمصال والسيارة والأقمار الصناعية والكمبيوتر .. هم اخترعوا .. وهم بذلوا الجهد والعرق لصناعة كل هذه الاختراعات .. ونحن نأخذها منهم ونستفيد بها .. فالله سبحانه وتعالى سخر الغرب للمسلمين .. وهذا هو التفوق الحقيقى .. !

عندما كنت أسمع مثل هذا الكلام من شيخنا الجليل كنت أقول لنفسى يا سبحان الله .. هل وصلت بنا عقدة الشعور بالنقص إلى هذا الحد .. إلى حد أننا لم نعد ندرك أننا لسنا فى موقع القيادة أو التأثير .. وأننا محتاجون للغرب لكى نعيش .. وأننا فى الحقيقة سوق يبيع فيه الغرب منتجاته ومواد خامًا وبترولاً يعتمد عليها الغرب فى تقدمه .. وبدلا من الاعتراف بهذه

الحقيقة نتجاهلها .. وبدلا من دعوة الأمة إلى الاستيقاظ وإدراك أن التقدم ليس له إلا طريق واحد هو : العلم .. وأن المسلمين يجب أن يشاركوا فى الحضارة الحديثة بالإضافة وليس بمجرد شراء الاختراعات واستخدامها ..

ومثل أقوال شيخنا الجليل هذه تصل إلى الغرب بمنتهى السرعة .. ويهتمون بتحليل الفكر والعقلية التى تتعامل مع حقائق الحياة الحديثة بمثل هذا المنطق .. وأذكر أيضا أن شيخنا الجليل قال مرة : إن الغرب اخترع الصواريخ والأقمار الصناعية التى تدور فى الفضاء .. ما فائدة هذه الأقمار الصناعية .. ؟ تذهب إلى القمر .. ؟ أو إلى المريخ .. ؟ أو إلى كوكب الزهرة .. ماذا استفدت من ذلك ..؟ منديل الورق الكلينكس هذا أكثر فائدة لى من كل الأقمار الصناعية .. ! وبعد أيام قليلة وجدت مجلة « الاكسبريس » الفرنسية تنشر هذا الحديث على صفحة كاملة لكى « يتفرج » الغربيون على المسلمين وكيف يفكرون .. ؟

فالغرب يبحث فى العالم الإسلامى عن أى شىء يدعم به نظريته القديمة التى تقوم على أن المسلمين متخلفون ؛ لأن الدين الإسلامى ذاته دين تخلف .. وهذه النظرية فى حقيقتها نظرية سياسية وليست نظرية دينية .. لأنها لا تدخل فى العقائد أو الإلهيات إلا عند قلة من المفكرين ، وأكثرها يبحث عن الإسلام لكى يتوصل إلى ما يخدم السياسة والأهداف والمصالح الاقتصادية الغربية .

* * *

صمويل هنتنجتون الأستاذ بجامعة هارفارد الأمريكية كتب مقالا مشهورا لخص فيه نتائج مشروع لمعهد أولين حول بيئة الأمن المتغيرة والمصالح الوطنية الأمريكية ، والفكرة الأساسية فى هذا المقال أن النزاع فى العالم الجديد لن يكون الأيدلوجيا أو الاقتصاد فى المقام الأول ، ولكن الانقسامات

الكبرى بين البشر ستكون انقسامات ثقافية ، والمصدر المسيطر على نزعات العالم سيكون مصدرا ثقافيا ، وستكون الصراعات بين أمم لها حضارات مختلفة بعد أن كان الصراع فى الماضى قائما بين الأمراء والأباطرة والملوك وبعد أن أصبح الصراع بين الأمم – وليس بين الملوك – أى « انتهت حروب الملوك وبدأت حروب الشعوب » واستمر الأمر كذلك فى القرن ١٩ حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، وبعد ذلك أدى الصراع بين الأمم – نتيجة للثورة الروسية ورد الفعل تجاهها – إلى نزاع بين الأيديولوجيات .. بين الشيوعية والنازية والفاشية من ناحية ، وبين الديمقراطية الليبرالية من ناحية أخرى .. وبعد هزيمة النازية والفاشية أصبح الصراع بين الشيوعية والديمقراطية الليبرالية .. لم يكن الصراع بين أوربا وأمريكا ضد روسيا كدولة .. ولكن كان الصراع بين أيديولوجيا الغرب وأيديولوجيا العالم الشيوعى .. وبعد انتهاء الحرب الباردة يتحرك الصراع ناحية أخرى .. ليصبح صراعا بين الحضارة الغربية والحضارات غير الغربية ..

وأثناء الحرب الباردة كان العالم منقسما إلى العالم الأول ، والعالم الثانى ، والعالم الثالث .. والآن لم تعد هذه الانقسامات موجودة .. ولم تعد الدول تتجمع على أساس اعتناقها لنظم سياسية أو اقتصادية واحدة .. ولكنها تتجمع الآن على أساس اتفاقها فى ثقافة وحضارة واحدة ..

ماذا يعنى « هنتنجتون » بكلمة « الحضارة » .. ؟

يقول : إن الدول والمجموعات العرقية والقوميات والمجموعات الدينية لها ثقافات متميزة .. وهناك اختلافات فرعية مثل الاختلافات الثقافية بين ايطاليا وألمانيا وبريطانيا وأمريكا .. ولكن هناك إطار ثقافى يجمع الغرب ويجعل المجتمعات الغربية تربطها ملامح ثقافة تميزها بوضوح عن المجتمعات العربية أو الصينية .. وليس هناك إطار ثقافى واحد يجمع الأوربيين والعرب

والصينيين فى كيان ثقافى أوسع .. فهم إذن ليسوا حضارة واحدة .. ولكنهم حضارات مختلفة ومستقلة .. الحضارة هى التى تميز مجموعة من البشر عن غيرها .. تقوم على اللغة ؛ والدين ، والتاريخ ، والعادات ، والمؤسسات .. وقد تكون الحضارة دولة واحدة مثل الصين واليابان .. وقد تكون عدة دول وأمم مثل الحضارة الغربية .. ومثل الحضارة العربية .. وللحضارة الغربية صورتان : أوربية ، وأمريكية . أما الإسلام فإن أقسامه الفرعية عربية ، وتركية ، وماليزية .. الخ .. والحضارات تصعد وتنهار .. وتنقسم وتندمج .. وكما حدث فى التاريخ فإن الحضارات يمكن أن تندثر وتدفن فى الرمال .. !

* * *

وخلال الفترة القصيرة القادمة سيتم تشكيل العالم فى ضوء نتائج الصراع بين حضارات كبيرة تشمل الحضارة الغربية والحضارة الإسلامية والحضارة الهندوسية والحضارة اليابانية .. وربما الحضارة الأفريقية .. وستكون المنازعات فى المستقبل على خطوط التقسيم الثقافى التى تفصل هذه الحضارات الواحدة عن الأخرى ..

ومهما فعلنا سيحدث هذا الصراع بين هذه الحضارات .. لأن الفروق بين الحضارات واسعة وحقيقية ولا يمكن تجاوزها .. وكل حضارة تتمايز عن غيرها بالتاريخ واللغة والثقافة والتقاليد .. وأهم من كل ذلك « الدين » .. كل حضارة تختلف عن غيرها فى تحديد علاقة الإنسان بالله .. وعلاقة الفرد بالمجموعة .. وعلاقة المواطن بالدولة .. وعلاقة الآباء بالأبناء .. وعلاقة الأزواج بالزوجات .. كل حضارة لها رؤية مختلفة عن غيرها من الحضارات فى النظر إلى الحقوق والواجبات .. والحرية والسلطة .. والمساواة والتفاوت الطبقى .. وهذه الفروق ليست سطحية .. ولكنها تجعل كل أهل حضارة مختلفين من حيث الكيان .. ومن حيث الجوهر .. عن غيرهم من أهل

الحضارات الأخرى .. هى فروق أساسية نتاج قرون .. ولن تختفى سريعا .. الخلافات بين الحضارات أكبر وأعمق من الخلافات بين الأيديولوجيات والنظم السياسية ..

* * *

والعالم يتقارب الآن .. والتفاعلات بين شعوب الحضارات المختلفة تتزايد .. والتفاعلات تزيد وعى الحضارات بنفسها وإدراكها للفروق بينها وبين الحضارات الأخرى .. والفروق بين الناس هنا وهناك .. ونرى الآن حساسية الأمريكيين من الاستثمار اليابانى فى أمريكا ، ولا نجد هذه الحساسية من استثمار الأوربيين أو الكنديين فى أمريكا .. ! وهكذا يمكن أن نفهم الحساسية فى الغرب من العرب والمسلمين .. !

والاتجاه السائد فى التغيير الاقتصادى والاجتماعى فى العالم الآن تقارب الفروق بين الدول .. بحيث إن الدولة ليست هى مصدر الهوية ولكن « الدين » هو الذى يملأ الفجوة الآن ويصبح مصدر الهوية .. ولذلك بدأت تظهر حركات توصف بأنها « أصولية » .. وتوجد هذه الحركات فى المسيحية الغربية .. وفى اليهودية .. وفى الإسلام .. وأيضا فى البوذية والهندوسية .. ومعظم هذه الحركات قائمة على الشباب الحاصل على التعليم الجامعى .. والفنيين من الطبقة الوسطى والمهنيين ورجال الأعمال ، ويرى فلاسفة الغرب الآن أن إحياء الدين يوفر الأساس الجديد للهوية ويجعل الالتزام يتجاوز حدود الوطن الصغير ..

* * *

والآن : الغرب فى أوج قوته ، ونتيجة لذلك يحدث ارتداد فى الحضارات غير الغربية .. مثل إعادة الأسلمة إلى الشرق الأوسط .. وإعادة الطابع

الهندوسى إلى الهند ، وإعادة الروح الآسيوية إلى اليابان .. وفى الماضى كانت الصفوة فى كل المجتمعات غير الغربية تقلد الغرب وتتعلم فى جامعات اكسفورد والسوربون وساند هيرست ، وتعتنق القيم الغربية وتلتزم بالسلوك الغربى .. بينما يظل « عامة الناس » متشبثين بثقافة بلدهم .. الآن يحدث العكس .. يحدث « انتزاع » للطابع الغربى .. وغرس الطابع المحلى الأصلى فى الصفوة .. بينما تنتشر الثقافة والأساليب والسلوك والعادات الغربية - الأمريكية بين جماهير الناس ..

ومن الممكن أن نتصور التغير فى الناس من الناحية السياسية أو الاقتصادية ، ولكن الصعب جدا أن تتغير الخصائص والفروق الثقافية .. فى الاتحاد السوفيتى السابق مثلا تغيرت الأحوال الاقتصادية والسياسية .. أصبح الشيوعيون ديمقراطيين .. وأصبح الأغنياء فقراء ، والفقراء أغنياء .. ولكن لا يمكن أن يصبح الروس إذربيجان أو أرمن .. فى الصراع الأيديولوجى كان السؤال : إلى أى جانب نقف .. مع الفقراء أم مع الأغنياء .. وتستطيع أن تغير موقفك بإرادتك .. أما فى الصراع بين الحضارات فإن السؤال هو : « من أنت » ؟ .. وقد يكون ثمن الإجابة رصاصة فى الرأس .. ! والدين يفصل بين الناس بصورة أكثر حدة .. فالإنسان يمكن أن يكون نصف فرنسى ، نصف عربى ، أو لديه جنسية مزدوجة ، ولكن لا يمكن أن يكون نصف كاثوليكى ونصف مسلم .. !

* * *

وأخيرا فإن النزعة الاقليمية الاقتصادية تزداد يوما بعد يوم ، فقد ارتفعت نسبة التجارة داخل دول أوربا ، وكذلك ارتفعت نسبة التجارة بين دول شرق آسيا ، وفى داخل أمريكا .. وتزداد أهمية الكتل الاقتصادية الاقليمية .. وكلما ازدادت النزعة الاقليمية الاقتصادية ازداد الوعى بالحضارة .. فالجماعة

الأوربية تقوم على أساس مشترك للثقافة الأوربية والمسيحية الغربية ، وعلى النقيض من ذلك تجد اليابان صعوبة فى إقامة كيان اقتصادى مماثل فى شرق آسيا ، لأن اليابان حضارة فريدة بذاتها ، ومهما تكن قوة الروابط التجارية والاستثمارية التى تقيمها اليابان مع دول شرق آسيا فإن الخلافات الحضارية تعرقل .. بل تستبعد .. قيام تكامل اقتصادى اقليمى مثل الاتحاد الاقليمى فى أوربا وأمريكا الشمالية ..

أما بالنسبة للإسلام والمسلمين فإن الثقافة والدين هما أساس منظمة التعاون الاقتصادى التى تضم الدول الإسلامية غير العربية مثل إيران ، وباكستان ، وتركيا ، واذربيجان ، وكازاخستان ، وتركمستان ، وطاجيكستان ، وأزوبكستان ، وأفغانستان .

والخلافات في الثقافة والدين تخلق خلافات حول قضايا سياسية مثل حقوق الإنسان ، أو الهجرة ، أو التجارة ، أو البيئة .

أهم من ذلك – يقول هنتنجتون – إن جهود الغرب لدعم القيم الغربية مثل الديمقراطية والليبرالية ليجعلهما قيما عالمية .. وجهود الغرب للحفاظ على هيمنته العسكرية ودعم مصالحه الاقتصادية .. تولد ردود أفعال مضادة من الحضارات الأخرى .. وإذا كانت الحكومات غير قادرة على حشد الناس على أساس الأيديولوجية فليس أمامها إلا حشدهم باستغلال الدين والهوية الحضارية المشتركة .

هكذا يصل هنتنجتون إلى أن صدام الحضارات يحدث على مستويين .. على المستوى الجزئى تتصارع المجموعات المتجاورة على خطوط التقسيم بين الحضارات لكى يسيطر بعضها على أراضى الآخر .. وعلى المستوى الكلى تتنافس دول من حضارات مختلفة لامتلاك القوتين : العسكرية والاقتصادية ،

وتتصارع ثانيا على السيطرة على المؤسسات الدولية ، وتسعى إلى ترويج الدين الذى تعتنقه وقيم هذا الدين .

خطوط التقسيم بين الحضارات الآن هى البديل للحدود السياسية والأيديولوجية التى كانت أيام الحرب الباردة .

وبصراحة .. وبوضوح .. يقول هنتنجتون : إن التفاعل بين الإسلام والغرب هو صدام حضارات .. ويستشهد هنتنجتون بمؤلف هندى مسلم هو م . ج . أكبر لكى يتوارى خلفه ، قال : « إن المواجهة التالية ستأتى حتما من العالم الإسلامى ، وستبدأ الموجة الكاسحة التى تمتد عبر الأمم الإسلامية من المغرب إلى باكستان » ويستشهد أيضا بمؤلف غربى هو برنارد لويس قال : « إننا نواجه حركة تعبر عن صدام حضارات .. وربما يكون هذا الصدام غير رشيد ، إلا أنه رد فعل تاريخى لخصم تاريخى لميراثنا اليهودى المسيحى ، ولحاضرنا العلمانى ، وخصم للتوسع العالمى للمسيحية والعلمانية معا .. هو الحضارة الإسلامية . وتاريخيا كان العداء بين الحضارة العربية الإسلامية وبين عبدة الأوثان ، وحاليا الصراع بين الإسلام والغرب المسيحى .. ومما يعكس احتدام هذا النزاع خطاب البابا يوحنا بولس الثانى فى الخرطوم فى فبراير ١٩٩٣ الذى هاجم فيه حكومة السودان ووصفها بأنها حكومة إسلامية ضد الأقلية المسيحية . وتفجر النزاع بين الإسلام والغرب فى البوسنة .. وفى أرمينيا ، وبين الروس والمسلمين فى آسيا الوسطى ، والقوقاز ، والصدام بين المسلمين والهندوس فى شبه القارة الهندية هو صراع حضارات .

ويقول هنتنجتون : إن المسلمين يقارنون أعمال الغرب ضد العراق بتخاذل الغرب عن حماية المسلمين فى البوسنة وعدم فرض عقوبات على إسرائيل لانتهاكها قرارات الأمم المتحدة ، ويفهمون من ذلك أن الغرب يكيل

بمكيالين ، مع أنه من المحتم أن يكون عالم الحضارات المتصادمة هو عالم الكيل بمكيالين .. !

* * *

حقا إن الغرب الآن فى أوج قوته بالنسبة للحضارات الأخرى وخاصة الإسلام .. اختفت الدول العظمى التى كانت تقف ضد الغرب .. القوة العسكرية للغرب بلا منافس .. فيما عدا اليابان لا يواجه الغرب أى تحديات اقتصادية .. والغرب يهيمن على المؤسسات السياسية والأمنية الدولية .. ويهيمن مع اليابان على المؤسسات الاقتصادية الدولية .. وتسوية القضايا السياسية والأمنية العالمية تتم بيد الغرب وليس للدول غير الغربية دور .. والقرارات التى يصدرها مجلس الأمن وصندوق النقد الدولى لا تعكس إلا مصالح الغرب وتقدم على أنها تعكس إرادة دولية .. واسم « المجتمع الدولى » أصبح تسمية ملطفة لمصالح الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى .. ويفرض الغرب من خلال صندوق النقد الدولى السياسات الاقتصادية التى تناسبه .. والمفاهيم الغربية تنتشر فى العالم تحت مسميات : الفردية ، والليبرالية ، وحقوق الإنسان ، والديمقراطية ، وآليات السوق ، ولكن هذه المفاهيم تجد مقاومة فى العالم الإسلامى ، وهناك من يرى أنها تعبر عن امبريالية جديدة هى امبريالية حقوق الإنسان .. وفى العالم الإسلامى رد فعل عكسى يقاوم ويدعو إلى إعادة تأكيد الهوية والقيم الأصلية ..

وبذلك فإن إمكان قيام « حضارة عالمية » غربية بعيدة عن التحقق .. هكذا يقول هنتنجتون .. ويقول أيضا : إن هناك دولا ستنقسم .. تركيا أبرز وأوضح بلد ممزق .. تحالفت مع الغرب وطلبت عضوية الجماعة الأوربية بينما فيها عنصر يرفض الارتماء فى أحضان الغرب ، ويطلب إحياء الإسلام ويرى أن تركيا مجتمع إسلامى .. النخبة فى تركيا تعتبر تركيا مجتمعا غربيا

بينما النخبة فى الغرب ترفض قبول تركيا كجزء من الغرب .. وقال أوزال - الرئيس التركى السابق - إن السبب فى رفض عضوية تركيا للجماعة الأوربية « أننا مسلمون » وهم مسيحيون وهم لا يقولون ذلك .

وأخيرا يرى هنتنجتون أن هناك تحالفا بين حضارتين هما الحضارة الإسلامية والحضارة الكونفوشية ضد الحضارة الغربية .. وبدأت الدول الإسلامية تسعى إلى الحصول على الأسلحة النووية والأسلحة الكيماوية والأسلحة المتطورة من الدول الكونفوشية (الصين - اليابان - كوريا الشمالية) تطبيقا لنظرية تقول : لا تحاربوا الغرب إلا إذا كانت لديكم القنبلة الذرية ..

إلى هذا الحد وصل الفكر الغربى فى فهم العلاقة بين الإسلام والغرب .. ونظرية هنتنجتون بالذات لها الآن جاذبية وتأثير كبيران فى الولايات المتحدة وكل دول أوربا ، وإن كانت تبدو لنا نوعا من الرياضة الفكرية أو البحث النظرى الذى لا يمكن أن يترتب عليه عمل ، فإن ما يحدث هو العكس ، فهذه النظرية مؤثرة فى مراكز صنع القرار ، ومراكز البحث ، والمشتغلين بالثقافة والسياسة على حد سواء ..

ولم ينبهنا أحد إلى ذلك رغم أن هذا الجمر مشتعل تحت الرماد منذ سنوات طويلة .

وهذه النظرية هى التى يعتمد عليها التخطيط الاستراتيجى فى الغرب على المدى الطويل .. والنظرية تقول أيضا : إن من مصلحة الغرب على المدى القصير أن يكون هناك تعاون مع الحضارة الإسلامية والكونفوشية ، والعمل فى نفس الوقت على ألا تمتلك الدول الإسلامية قوة عسكرية والحفاظ على التفوق العسكرى الغربى الساحق ، وأكثر من ذلك تدعو هذه النظرية إلى إثارة المنازعات بين الدول الإسلامية والدول الكونفوشية ، ودعم المجموعات

الحضارية المتعاطفة مع القيم والمصالح الغربية ، وتقوية المؤسسات الدولية التى تعكس المصالح والقيم الغربية ، وإذا كانت الدول الإسلامية تسعى إلى امتلاك مصادر القوة الاقتصادية والعسكرية فإن على الغرب أن يحتفظ بالقوة الأكبر ..

والخلاصة التى تصل إليها هذه النظرية الخَطيرة هى أن على الغرب أن يبحث عن عناصر مشتركة تجعله قادرا على أن يقترب وأن يخترق الحضارات الأخرى ، والحضارة الإسلامية بالذات .. لأنه فى المستقبل لن تكون هناك حضارة عالمية واحدة ، بل ستكون هناك حضارات مختلفة .. وستظل مختلفة ..

* * *

ولو حللنا مضمون الكتابات الغربية فى الصحف أو الدراسات الجامعية السياسية والاستراتيجية فسوف نجد روحا تعكس هذا العداء بصورة أو بأخرى .. وبعضهم يصرح بأن الصراع بين الغرب والإسلام تمتد جذوره فى الزمان إلى ١٣٠٠ عام .. وبعضهم الآخر يعترف بأن هناك جهودا غربية لتشويه التاريخ القديم والواقع الحالى للعالم الإسلامى ، وإنكار ما قدمه العرب والمسلمون للحضارة البشرية ، وكيف كانت العلوم التى ازدهرت فى الحضارة الإسلامية هى الأساس الذى قامت عليه الحضارة الغربية الحديثة حين ترجمت هذه العلوم إلى اللغة اللاتينية .. وبعض الكتاب الغربيين يقولون : إن الحضارة الإسلامية تمثل الآن تهديدا لحضارة الغرب .. فالمسلمون « يخرجون الآن من بين الأنقاض .. ويريدون أن يلعبوا فى ملعب ظل قرونا للغرب وحده ! كما كتب مفكر آخر هو وليام لسيند فى مجلة السياسة الخارجية فى مقال بعنوان « دفاع عن الحضارة الغربية » .

ويردد مفكرو الغرب أفكارا تبدو غريبة علينا ، مثل حملة تشويه التاريخ

بإظهار المسلمين كقوة عدوانية تهدد الغرب كلما امتلكت القوة ، ويصوورون المسلمين كغزاة : المغاربة البربر الذين غزوا اسبانيا .. العرب المسلمون الذين أغاروا على فرنسا وايطاليا ، الأتراك الذين وصلت جيوشهم إلى النمسا ، التتار الذين هزموا موسكو ، ولا يذكرون كثيرا أن الغرب استعمر العالم الإسلامى ثلاثة قرون .. ونجد من يثير حملة مبالغا فيها حول امتلاك بلاد إسلامية لبرامج نووية مثل باكستان وايران والعراق دون ذكر لامتلاك إسرائيل لترسانة نووية ورفضها الانضمام إلى معاهدة حظر التجارب النووية ورفض التفتيش الدولى على منشآتها النووية .. ويتحدثون كثيرا عن الخطر الذى تمثله الجاليات الإسلامية فى دول أوربا مثل ألمانيا وفرنسا وبريطانيا ..

ومفكر غربى مثل المستشرق الفرنسى المعروف جاك بيرك يقول : إن الغرب يصر على إلصاق صفة التطرف بالمسلمين والعرب على وجه الخصوص ، لأن العرب تجمعهم مع الغربيين صفة الجوار والعداوة أيضا .. كما لا يخفى الغربيون خوفهم الدائم من الإسلام لأن المجتمعات الإسلامية هى العقبة الكبيرة فى طريق أى محاولة غربية لاستقطاب العالم .. فالولايات المتحدة وصديقتها إسرائيل تريدان السيطرة على العالم ، وإخضاع كل مناطقه لنفوذهما المباشر ، وليس خافيا لأحد أن الشعوب الإسلامية هى التى تقف فى طريق هذه الإرادة ..

هذا ما يقوله جاك بيرك وما نشر فى صحيفة الأهرام فى عدد ٢٢ أبريل ٩٤ .. ويقول أيضا : « إن خوف الغرب من الإسلام يأتى من جوانب ثلاثة : الأول أن العرب والمسلمين هم الأكثر قربا من حيث الجوار الجغرافى ، والثانى أنهم الأكثر عداوة بسبب ذكريات الماضى الاستعمارى ، والثالث أنهم العقبة أمام السيطرة الغربية على العالم .

وإسرائيل لها أصابع تتحرك وراء هذه المخاوف والعداوة يجب ألا نغفل الإشارة إليها . !

* * *

إسرائيل فيها مراكز أبحاث متخصصة تروِّج لدراسات تثير مخاوف الغرب من الإسلام والمسلمين باعتبار أن أكثرهم إرهابيون ومتعصبون ويكرسون جهدهم لتدمير الحضارة الغربية ، وإسرائيل هى أول من دعا إلى تحالف دولى ضد « الأصولية الإسلامية » .. وفى كل يوم تنشر الصحف الإسرائيلية مقالات وأخبارا تثير وتعمق المخاوف الغربية من الإسلام عموما ، ومن الحركات الإسلامية على أنها تمثل حقيقة الإسلام والمسلمين وهى الخطر الأول على استقرار الشرق الأوسط واستقرار العالم .. !

ويستغل الكتاب حركات التطرف والإرهاب ليصوروا للغرب أن هذا هو الإسلام ، وأن هؤلاء الإرهابيين هم الممثلون لحقيقة الإسلام ، وأن العالم سيصير إلى خراب ودمار وفوضى لا مثيل لها إذا ترك الإسلام وشأنه ..

الحماقات والأخطاء على الجانب الإسلامى تجد دائما من يركز عليها الأضواء فى العالم الغربى ، ويهول من شأنها ، ويقدمها بصورة مكبرة أكبر من حجمها الأصلى ألف مرة ..

والأمثلة كثيرة .

* * *

فى كتاب « الغرب والإسلام » ترجمت الأستاذة منى ياسين مقالا مهما كتبته صحفية معروفة فى جريدة نيويورك تاميز المعروفة بعدائها للعرب والإسلام وانحيازها الكامل لإسرائيل ، وهذا المقال يستحق الوقوف عنده فهى

تقول : إن العاصمة السودانية الخرطوم شهدت اجتماعا لمدة أربعة أيام فى أبريل ١٩٩١ جمع سياسيين ومثقفين إسلاميين قياديين من ٥٥ دولة من ثلاث قارات لوضع استراتيجية مشتركة لإقامة دول إسلامية فى بلادهم ، وكان من المشتركين راشد الغنوشى القائد المنفى من تونس ، وإبراهيم شكرى رئيس حزب العمل فى مصر ، وقلب الدين حكمتيار القائد الراديكالى المتشدد فى أفغانستان ، وعباس مدنى زعيم التيار الأصولى فى الجزائر ، ووفد عالى المستوى من إيران ، وغيرهم كثير ، وكان المضيف هو حسن الترابى الزعيم الروحى والعقل المفكر للحكومة العسكرية الإسلامية السودانية الذى أشرف على محاولة وضع مشروع خطة عمل لتحدى « طغيان الغرب » ، وأقرت المجموعة فى النهاية « مانفستو » من ست نقط يرمى إلى بيان أنه مهما كانت قوة أمريكا والغرب فى أعقاب حرب الخليج فإن « الله أكبر » وقراءة البيان فى مجموعه تجعل الرسالة الكامنة وراءه واضحة فى حرب الإسلام ضد الغرب .. وإن مؤتمر الخرطوم هذا هو مجرد مثال للقوة الصاعدة للإسلام النضالى ، بعد ثورة الخمينى فى إيران عام ١٩٧٩ ثم قيام الحكم الذى يعلن أنه « إسلامى » فى السودان ، وهناك من يرى الإسلام باعتباره « التهديد الأخضر » ..

وتتساءل جوديث ميلر : كيف ينبغى أن يكون رد فعل الأمريكيين .. ؟ وهى ترى أن « الإسلام السياسى » خلق مزيجا قابلا للاشتعال .. وتضرب مثلا من الجزائر لتدلل على خطورة المسلمين لأنهم يظهرون بوجه طيب ويخفون الوجه الحقيقى ، وتقول : إن قادة جبهة الإنقاذ الإسلامية فى الجزائر كانوا يحيون حياة تسودها لغتان .. فقد قدموا لفقراء الجزائر شعارات غامضة عن الخلاص الروحى ، والخلاص الاقتصادى من خلال الإسلام ، بينما قدموا للصحفيين وللطبقة الوسطى الأكثر فرنسة والمحبطة سياسيا تأكيدات بإيمانهم بالديمقراطية وحقوق الإنسان ، ولكن نغمتهم ورسالتهم تغيرتا فجأة

بعد نجاحهم فى الجولة الأولى فأعلنوا « لا قانون ولا دستور وإنما قوانين الله والقرآن فقط » .. وفى السودان وصل الإسلام إلى السلطة بانقلاب عسكرى ، ويكرر قادة السودان الآن كالببغاوات المبادئ التى صاغها حسن الترابى ، ومنذ وصلت الحكومة الإسلامية إلى الحكم ألغت حرية الصحافة ، وحظرت قيام الأحزاب ، وأجبرت المرأة على النقاب ، وعذبت المعارضين لها فى « بيوت الأشباح » المنتشرة حول الخرطوم .. وكان حظ الأقليات أسوأ كثيرا .. فقد اتهم الأساقفة الكاثوليك الحكومة السودانية بشن حرب مقدسة ضد المسيحيين فى الدولة وهم ١٠٪ من السكان .

وتضرب مثالا آخر من إيران وهى الآن معادية للغرب والولايات المتحدة بالذات ، وفيها إهدار كامل لحقوق الإنسان ..

وتنتهى جوديث ميلر -- مثل غيرها من كتاب الغرب -- إلى أن الإسلام ذاته ضد الحرية والديمقراطية ، وضد حقوق الإنسان ، وقوانينه لا تقبل التعديل أو التطور ، والحكم باسم الشريعة يعنى الحكم الدكتاتورى المطلق ، وتستشهد بكاتب آخر هو برنارد لويس المعروف كمؤرخ متخصص فى شئون الشرق الأوسط وهو يقول : إن طبيعة الإسلام وتاريخه والعلاقة بين الإسلام والسلطة لا تجعل الإسلام والديمقراطية رفيقين ، وإن الإسلام خلال تاريخه لم يعترف أبدا بالمؤسسات النيابية مثلما حدث فى اليونان أو فى القوانين الرومانية ، والدولة الإسلامية دولة ثيوقراطية ، ليس بالمعنى الغربى الذى كان يعرف الدولة الثيوقراطية على أنها دولة تحكمها الكنيسة ، ولكن فى الإسلام الدولة يحكمها الله ! ويفهم المسلمون أن الله يحكم بالمعنى الحرفى ويؤمنون بأن السلطة تأتى من الله وحده ، وحيث أن الحاكم يستمد سلطته من الله والقانون المقدس ، وليس من الشعب ، فإن معارضة سلطة الحاكم هى تحد لله ، ومخالفته خطيئة ، وحكم الفرد هو القاعدة ، ولا تجد مفاهيم التعددية أو

النقد أو حق الاختلاف قبولا من المسلمين .. ! ولذلك فإن الإسلام ضد حقوق الإنسان .. !

وهكذا ..

يخلطون أولا بين الإسلام كدين تعتنقه الملايين ، وهو إسلام معتدل ، يقوم على احترام الإنسان وحريته ، ويمد اليد للتعاون مع المخالفين فى العقيدة ، وينشد السلام مع كل الشعوب ، ويرفض العنف بكل صوره .. وبين الإسلام كما يبدو فى جماعات العنف والإرهاب .. أو فى حكومات دكتاتورية تريد تبرير نظم القهر فتدعى أنها تحكم بالإسلام ، وأن مخالفيها كافرون يستحقون القتل ..

هذا الخلط مقصود ومتعمد ..

لأن الباحثين الغربيين بمالديهم من أجهزة ومعلومات ومراكز أبحاث لن يعجزوا عن فهم النصوص الإسلامية .. ولن يعجزوا عن التفرقة بين النصوص والأحاديث الصحيحة والنصوص والأحاديث المزيفة المدسوسة على الإسلام .. وهم يعرفون جيدا « الإسرائيليات » ودورها فى تشويه عقائد وفكر الإسلام .. يعرفون كل هذا ولا يجهلونه .. ولكنهم يتجاهلون .. !

وهم يعرفون جيدا أن جماعات القتل والتخريب التى تظهر فى الدول الإسلامية ترفع شعارات الإسلام ولكنها فى الحقيقة لا تعبر عن الإسلام ، ولكنها تعبر عن القوى المحركة لها من خارج العالم الإسلامى التى تسعى إلى تدمير الإسلام من الداخل ..

القضية .. أن الإسلام فى منطقة أطماع ومصالح .. والغرب يعرف جيدا أنه ظالم لأهل هذه المنطقة ..

الغرب ظالم لأهل هذه المنطقة لأنه فرض عليها الاستعمار والتخلف أكثر من قرن حتى الآن .. ويمنع عنها مصادر التقدم العلمى والتكنولوجى ..

ويمتص خيراتها .. ويريد أن تظل سوقا لمنتجاته وتبقى مستهلكة لمنتجاته ولا تصبح منتجة أبدا .. وتظل فقيرة .. ومنقسمة .. وتبقى إسرائيل هى القوة الوحيدة ..

ولكى يحقق الغرب ذلك لابد أن يفرضه بالقوة .. بالقمع ..

ولأن العصر ليس عصر استعمار عسكرى فقد ابتكر صورا جديدة للاستعمار العسكرى والاستعمار الاقتصادى والاستعمار العقلى والثقافى ..

ولكى يبرر الغرب عدوانه على أهل هذه المنطقة فهو لا يستطيع أن يكشف الأهداف السياسية التى تمثل الأصول والجذور لكل هذا الصراع ، فيصور أن الصراع صراع أديان أو صراع حضارات أو صراع ثقافات .. أو أى شىء آخر ..

المهم أن يقدم الغرب لنفسه ولنا تبريرا لنواياه العدوانية وسلوكه العدوانى ..

وتبقى الحقيقة .. وهى أن الإسلام كدين يدعو إلى التسامح والإخوة الإنسانية والمساواة بين البشر .. ومن يقل بغير ذلك فهو كاذب أو جاهل .. وإن الإسلام كدين يدعو إلى السلام ويرفض الإكراه والعنف والقتل ..

المسلم من سلم الناس من لسانه ويده ..

يكفى هذا المبدأ الذى رفعه الرسول ﷺ لكى يفهم حقيقة الإسلام من يريد أن يفهم حقيقته .. !

تزوير التاريخ . . والتضليل الإعلامى

يلخص المستشرق الألمانى جيرنوت روتر أسباب رسوخ وانتشار الفكرة الغربية عن الصراع الحتمى بين الإسلام والغرب ، فيقول : إن الغرب كان لديه عدو ظاهر هو الشيوعية ، وكان الغربيون يجدون تقسيم العالم منطقيا ، فالأخيار فى المعسكر الغربى ، والأشرار فى المعسكر الشرقى ، وهكذا كانت صورة العدو بسيطة وسهلة الفهم حتى إنك لو سألت أى طفل فى أوربا أو أمريكا فسيقول لك : إن العدو هو الشيوعية ، وإنها خطر على البشرية وعلى الحضارة الإنسانية . وإنه يشعر بالكراهية لها ولكل ما يتعلق بها ، ويتمنى أن تزول من الوجود .. فلما انهارت الشيوعية ، حدث ارتباك فى المعسكر الغربى منذ عام ١٩٨٩ ، بعد أن أصيبت صورة « العدو » بالتصدع ، وأصبحت غير صالحة للاستعمال ، وبالتالى لم يعد لدى السياسيين وتجار السلاح سبب يبررون به ارتفاع النفقات العسكرية فى الغرب والتسابق على ابتكار أسلحة وأدوات قتل جديدة .. كان طبيعيا أن يعملوا حسابا لدافع الضرائب الذى سيسألهم لماذا كل هذا الإنفاق الهائل مادام « العدو » قد انتهى وانهزم ولم تعد الشيوعية قائمة فى أى مكان فى العالم .

وعندما انقض صدام حسين على الكويت ، بعد ذلك بشهور وجد الغرب ضالته المنشودة ، وأصبح هذا الغزو سببا كافيا لإطلاق صيحات التخويف والتحذير بأن إمدادات البترول التى تقوم عليها حضارة الغرب فى خطر ، ويقول المستشرق الألمانى : إن توقيت عدوان صدام حسين على الكويت مناسب جدا ، ودقيق جدا ، إلى درجة أن البعض لم يشأ أن يصدق فى الواقع أنه حدث بالمصادفة ، فقد كان هذا الغزو « هدية » قدمت للغرب ضالته

المنشودة . قدمت عدوا وهميا جديدا هو الإسلام .. صدام حسين فعل مالم يفعله الخميني .. فقد خلق صدام حسين أجواء معادية للإسلام ، ودارت عجلة الإعلام الجهنمية فى الغرب لتصور هذا العدوان على أنه تعبير عن الخطر الإسلامى ، ولا تصوره على أنه نوع من الاعتداء السياسى والعسكرى يمثل أطماعا فى التوسع وفرض النفوذ .

انهيار الشيوعية من ناحية ، والفراغ الذى حدث نتيجة لذلك فى الفكر الغربى لعدم وجود عدو يعطى الغرب الفرصة للحشد والتحفز وإنفاق المليارات على الأسلحة .. وظهور صدام حسين كخطر على الغرب .. والمبالغة فى وصف قوة الجيش العراقى وما لدى العراق من أسلحة نووية وبيولوجية وصواريخ حتى أن من يتابع تقارير مبعوث الأمم المتحدة الذى يتولى التفتيش على الأسلحة فى العراق وتدميرها يظن أن صدام حسين كان يستعد لغزو العالم كله والاستيلاء عليه وكأنه صورة جديدة من هتلر وقوته وأطماعه .. ثم تصوير صدام حسين على أنه المعبر عن روح الإسلام العدوانية الشريرة التى تعلن غير ما تخفى ، وتضمر الشر والعدوان بغير حدود .. كل ذلك كان التمهيد الطبيعى لظهور نظرية صراع الحضارات فى عام ١٩٩٣ على يد صمويل هنتنجتون مدير معهد الدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفارد ، لكى يحذر الغرب بأن الصدامات العسكرية المستقبلية ستحدث على طول الحدود بين الحضارات المختلفة بعد أن كانت الحروب تقوم على الحدود السياسية .. ولكى ينبه الغرب إلى أن الصدامات الآتية ستكون حتما بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية .

هذه النظرية الغريبة التى ظهرت فى مقال انتشرت بشكل غريب .. حتى أصبحت جزءا من مسلمات الفكر الغربى الآن .. كل سياسى .. وكل مفكر .. وكل صحفى فى الغرب يتحدث عنها بجدية وكأنها شىء لا يمكن

مناقشته .. يتحدثون عنها وكأن الصدامات القادمة بين الغرب والإسلام لا يمكن تحاشيها ، وسوف تتحقق حتما ومن تلقاء ذاتها .

* * *

يقول المستشرق الألمانى : « إن الاستقبال الإيجابى لهذه الدعوى فى وسائل الإعلام الغربية كان مخيفا حقا ، وهو يثبت شيئا واحدا ، هو أن حرب الحضارات التى تتنبأ بها هذه النظرية قد بدأت بالفعل فى عقول الغربيين .

ويضيف المستشرق الألمانى أن الملاحظ الآن التركيز فى الفكر الغربى على الخلافات بين الإسلام والمسيحية وإغفال نقاط الاتفاق أو التلاقى ، وهناك تجاهل ملحوظ لحقيقة أن منشأ الديانات الثلاث فى منطقة الشرق الأوسط هى السامية ، وأن إبراهيم هو الأب الأول المشترك للأديان السماوية ، وأنها تتفق فى التوحيد ، كما تتفق فى القول بخلود الروح وبالجنة والنار كجزاء للعمل فى الدنيا ، ولكن علماء الأديان فى الغرب يزعجهم أن يكتشفوا أن الديانات الثلاث بينها نقاط اتفاق أكثر مما بينها من خلاف .

ويستنتج المستشرق الألمانى أن التصورات العدائية للإسلام فى الغرب لا تتعلق بمسائل الخلاف فى العقائد على الإطلاق ، وإذا ظهر هذا الخلاف فإنه يظهر بصورة عارضة ، لأن التناقض لا يطرح على أنه بين الإسلام والمسيحية ، بل على أنه بين « الإسلام » و « الغرب » بهدف إظهار الصراع بين ثقافتين وحضارتين .. وهناك من يروّج منذ سنوات طويلة أفكارا خاطئة عن الإسلام ليخدم هذه القضية .. حتى فى القرون الوسطى ظهر مؤلف ملحمة رولاند الذى يجعل العرب يعبدون محمدا ﷺ ، وأبوللو ، وتيرفا جانت .. وقد لا يفهم العرب والمسلمون هذا لأنه يعتمد على تراث ثقافى

غربى لمجرد أن يصور أن العرب لديهم الثالوث المسيحى ولكن بصورة تخلط ماهو إلهى بما هو وثنى ! وغريب جدا أن يقول أحد إن العرب كانوا يعبدون محمدا .. ولكن الكذب والافتراء ليس لهما حدود .. وأغرب من ذلك ما يشير إليه المستشرق الألمانى من أن بعض كتاب الغرب لكى يشوهوا الإسلام أمام الغربيين قالوا : إن المسلمين كانوا يعبدون « فينوس » إلهة الحب عند اليونان إلى جانب عبادة الله ، وإن المسلمين رفعوا شأن يوم الجمعة وجعلوه أفضل أيام الأسبوع وهو اليوم الذى كان يعتبر فى القرون الوسطى .. « يوم فينوس » بينما كان يوم الأحد هو يوم الإله ..

ويقول المستشرق الألمانى أيضا : إن الغرب يربط الإسلام بالتطرف والعنف ، وكثير من المفكرين فى الغرب لا يدركون أن هناك مذاهب وتيارات داخل الفكر الإسلامى ، ولكنهم يصورون الفكر الإسلامى شيئا واحدا .. فكل المسلمين متطرفون .. وكلهم لديهم استعداد لتكفير وقتل من يخالفهم فى الرأى .

ويشير المستشرق الألمانى إلى أن كتب التاريخ المدرسية فى ألمانيا تركز على أحداث عسكرية هامة ، وهى تعلم التلاميذ اتصال الغرب المسيحى بالعالم الإسلامى . مثل معركة بلاط الشهداء التى يسمونها معركة توربواتييه سنة ٧٣٢ ميلادية وفى هذه المعركة أنقذ شارل مارتل الغرب من الاجتياح الإسلامى ، وهذا كما يقول المستشرق الألمانى « هراء تاريخى » لأن الأمر من وجهة النظر الإسلامية كان يتعلق بمجرد حملة من الحملات التقليدية عديمة الأهمية من الناحيتين : الاستراتيجية والعسكرية ، وبالرغم من ذلك فمازال الحديث عن هذه الواقعة فى الغرب متكررا بقوة لترسيخ فكرة عدوان الإسلام على الغرب منذ زمن قديم . ويتبع ذلك الحملات الصليبية ، وإن كان الغرب لا يمجدها الآن صراحة كعمل بطولى عظيم كما كان يفعل من قبل ، إلا أن

الحسرة على فقدان القدس تظهر تلميحا فى كل ما يكتب فى الغرب حول هذا الموضوع ، ولا يعتبر صلاح الدين فى نظر الغرب قائدا نجح فى حماية الشرق الأوسط من السيطرة الغربية ، ولكن الكتاب يكتبون باحترام شديد عن الأمير أويجن « الفارس النبيل » كمنقذ للغرب والمسيحية ، لأنه أدب المسلمين « الأتراك » ؛ ووضعهم عند حدودهم . والفكرة التى يدور فيها الفكر الغربى هى أن مقصد الإسلام الوحيد هو التوسع بالقوة و « بالنار والحديد » .. ولا أحد فى الغرب يقول : إن التوسع الذى تم على يد حكام مسلمين لا يختلف عن التوسع الذى تم على يد حكام غربيين .. لأهداف سياسية فى كل الحالات .. ولا أحد فى الغرب يقول : إن أوضاع المسيحيين فى البلاد التى فتحها المسلمون كانت أفضل من أوضاع المسلمين فى البلاد التى فتحها الغربيون ! وذلك لأن فكرة أن الإسلام قائم على الغزو والفتح والعدوان هى فكرة مسيطرة على العقل الغربى عموما منذ القرون الوسطى حتى اليوم لم يطرأ عليها تغيير .

* * *

ويقول المستشرق الألمانى فى مقال بعنوان « الإسلام والغرب : الجاران المتخاصمان » ترجمه إلى اللغة العربية ثابت عيد الباحث بجامعة زيوريخ :

« إذا كان المرء فى ذلك الوقت قد استمتع بتصوير محمد ﷺ كوحش شيطانى مخيف ، وبالروايات التى تصف المسلمين وهم يقطعون أطراف الصليبيين وهم أحياء .. وينزعون أحشاءهم من أجسامهم برافعة ، فقد احتل مكان ذلك اليوم ما يطلق عليه « الكتب التخصصية » التى تكشف عناوينها بصورة كافية عن مقاصد مؤلفيها ، مثل : « سيف الله » و« سيف الإسلام » و« السيف الأخضر » إلخ . ثم يأتى علاوة على ذلك الحديث عن « مشاعر الجماهير الإسلامية الحماسية التى لا يمكن التنبؤ بها (على حد تعبير الصحفى

الألمانى شول لاتور Scholl - Latour تماما مثل الحديث عن « الرغبة العربية فى تدمير الذات » ويتم تقييم ١٤٠٠ سنة من التاريخ العربى بعبارات مثل « إن حلم تأسيس وطن عربى كبير قد تبدد منذ ٦٢٢م بصورة متكررة مع المذابح والاغتيالات والثورات وأعمال العنف . لقد قضت نشوة القتل والاستشهاد فى مراحل متقطعة على محاولات بناء دولة مستقرة ذات توجهات عقلانية » بغض النظر عن أن حلم تأسيس وطن عربى كبير لم يظهر منذ سنة ٦٢٢م ، ولكن على أكبر تقدير منا منذ نهاية القرن التاسع عشر تحت تأثير فكرة الدولة القومية الأوروبية ، وهو ما يجعل ملاحظة الخبير السابق لشئون الشرق الأوسط جيرهارد كونسلمان لا أساس لها من الصحة التاريخية – تظهر هنا علاوة على ذلك – مثلما هو الحال عند مؤلفين كثيرين آخرين أيضا – بجانب العنف – فكرة نمطية مبتذلة أخرى هى : الزعم بلاعقلانية المسلمين عامة والعرب خاصة .

وإن ما يتخلل تبريرات الزعم بأن الإسلام هو دين عنف كنغمة أساسية هو فكرة الجهاد . يقينا يعتبر « الجهاد فى سبيل الله » فرضا على أمة الإسلام ، ويمكن أن يتخذ صورة الكفاح المسلح ، والواقع أن الجماعات الإسلامية المتطرفة قد أعلنت الجهاد شعارا لها لإضفاء صفة الشرعية الدينية على أعمالها الإرهابية ، ولكن أين يحصل كبار علماء الدين الإسلامى فى وسائل الإعلام الغربية على منبر – أو مجال أو فرصة – ليوضحوا من خلالها أن فريضة الجهاد المسلح تقتصر على حالة الدفاع فحسب ؟ أو ليشرحوا أن الجهاد فى سبيل الله بالمعنى الأصلى للكلمة يعنى فرضا أخلاقيا وروحانيا ؟ وأن يشجبوا إرهاب الجماعات الإسلامية المتطرفة على أنه غير إسلامى بتة .

إن الاتهام الدائم الذى يوجهه الغرب إلى الإسلام بأنه فى الحقيقة دين عدوانى ينظر إليه من جانب المسلمين على أنه نفاق صرف . وفى كتابات

المتشددين المسلمين تقلب هذه التهمة أيضا وتوجه إلى الغرب . ويتم تبرير ذلك في أغلب الأحوال بحقائق تاريخية محددة ، بداية من الحروب الصليبية ، ومرورا بالقضاء على المسلمين واليهود فى أسبانيا وطردهم منها ، وعبورا بمحاكم التفتيش ، حتى عصرى الاستعمار والانتداب ، وانتهاء بتأسيس دولة إسرائيل (التى ينظر إليها على أنها وليد الاستعمار الغربى الحديث) وسياسة الاقتصاد العالمى التى توصف بأنها استغلالية وإمبريالية ، والتى يمارسها الغرب بمساندة بعض الحكومات المطيعة فى الشرق الأوسط تحت الشعار المتداول : البترول . كذلك فإن التدخل المستمر فى الشئون الإسلامية أو العربية الداخلية ، مع إدعاء الولايات المتحدة الأمريكية الهيمنة على الكرة الأرضية برمتها ، والذى يمكن استنتاجه على أبعد تقدير منذ حرب الكويت – كل ذلك يفهم فى هذا السياق . وكون التهديد الجسدى للمسلمين من جانب المسيحيين مازال مستمرا بصورة عينية ملموسة فهو ما يقوم به الصرب فى الوقت الحاضر بممارستهم للتطهير العرقى فى البوسنة . وهى بالمناسبة حقيقة يحلو للصحافة العربية أن تنظر إليها على أنها فى الوقت الحالى آخر أعمال محاكم التفتيش .

إن مخاوف الغرب بأنه مهدد من قبل العالم الإسلامى ، وهى مخاوف يتم تشجيع ترويجها عن قصد ، تقابلها مخاوف الشرق الأوسط من التهديد المستمر من قبل الغرب . فإذا استعرضنا تاريخ القرن العشرين بالذات والظروف السياسية الخاصة بسياسة القوة ، سنجد أن الخوف فى الحالة الثانية له ما يبرره ، لأن التهديد فيها حقيقى . ويصاحب الإحساس بالتهديد المادى إحساس آخر قوى بالتهديد من قبل الثقافة الغربية . ويقابل الوهم الغربى القائل بعدم عقلانية الشرقيين . وهم المتشددين الإسلاميين القائل بالانحطاط الروحانى للغرب . وهنا يتم التفريق بوضوح بين الاكتشافات الخاصة بعلوم الطبيعة من ناحية – والتى لا ينظر إليها ، إلا باعتبارها امتدادا منطقيا للمعارف

والعلوم التى ورثها الغرب عن عرب القرون الوسطى ، وهى اكتشافات يقبلها المسلمون ولا يعترضون عليها – ومن ناحية أخرى بين الفكر المادى الصرف الذى يُنظر إليه على أنه فكر « منحط » وليس دينيا ، بل إنه ضد الدين وما يتبع ذلك من الإعلان عن انحلال المعايير الأخلاقية فى الغرب . ويعبر كل من عالج هذه الموضوعات – على الأقل بين السطور – عن الخوف من فقدان الهوية الحضارية .

يقول المستشرق الألمانى :

بجانب عدوانية الإسلام ، تحتل مكانة المرأة فى المجتمعات الإسلامية مقاما متميزا فى برنامج الغرب الخاص بصورة العدو الوهمى . وهذه أيضا فكرة نمطية ثابتة تعود جذورها إلى القرون الوسطى ، بيد أن بعض مظاهرها قد تغير كلية فى تلك الأثناء . فقد نتج عن التصورات الإسلامية الخاصة بالجنة . وما فيها من حور العين ذوات البكارة الأبدية ، وكثرة زوجات النبى ﷺ والحق الشرعى لكل مسلم فى الزواج من أربع نساء – أن القرون الوسطى المسيحية صورت الإسلام على أنه الوليد الشهوانى للشيطان .. ومحمدا ﷺ على أنه وحش جنسى آثم . وهكذا كتب فى نهاية القرن الحادى عشر رئيس كاتدرائية مدينة ماينتس فى ألمانيا – ايمبريخو يقول : إن المسلمين يحتفلون : « بجميع أشكال الزواج التى تحرمها الشريعة الإلهية ولأنهم جردوك أيها الطبيعة ، من حقوقك غصبا – تسعى المرأة إلى ممارسة السحاق مع نظيرتها ، ويمارس الرجل اللواط مع مثيله . بل خلافا للتقاليد . يجامع الشقيق شقيقته ، ولا تمانع الأخت المتزوجة أن يضاجعها أخوها الشيطان . الأبناء يهتكون عرض أمهم . والبنت تغتصب أباها . وكل ما هو محبب على هذا المنوال ، كانت الشريعة الجديدة (الإسلام) تحلله » . نظرا لمثل هذه الكتابات السطحية الوضيعة ، لا يستطيع المرء أن يتخلص من الإحساس بأن هؤلاء الكتاب قد أرادوا إشباع تخيلاتهم الجنسية الشاذة من ناحية ، وسعوا من

ناحية أخرى إلى صرف الأنظار عن أوضاع معينة موجودة بالفعل فى الغرب المسيحى . بما فى ذلك الأديرة المسيحية ، أو أنهم أرادوا توجيه الموعظة إلى الآثمين فى المجتمعات الغربية . وبالرغم من أن الإسلام لم يعد يتصدر تصوراتنا العدائية كمركز للدعارة الجنسية والفجور فى المقام الأول ، فإن لفظ « حريم » مازال يلعب دورا محدودا فى هذا السياق . وكون نظام الزوجة الواحدة هو القاعدة وتعدد الزوجات هو الاستثناء فى العالم الإسلامى ، فهذه حقيقة لم تتمكن من التقليل من هذه الأفكار الخاطئة ، تماما مثلما لم تقلل الإباحية الجنسية الموجودة بالفعل فى الغرب من تلك التصورات المشوهة عن الإسلام . وبالرغم من ذلك فلم يعد موضوع تعدد الزوجات هو أهم النقاط التى يهاجمها الغرب . إذ احتل مكانه الفكرة النمطية الثابتة الخاصة باضطهاد المرأة فى المجتمعات الإسلامية . إن الرواج المنقطع النظير الذى حققه كتاب بيتى معمودى » Betty Mahmoody وفيلمها « ليس بدون ابنتى » – يرينا على أى تربة مخصبة بالأوهام وقع ذلك العمل الدنيء المشحون بالأقوال العنصرية .

وهنا أيضا لا أستطيع أن أتخلص من الانطباع بأنه من خلال تقديم الزوج المسلم المعتدى على زوجته كقاعدة يريد الغربيون أن يجعلوا مثلا من وجود « بيوت النساء » المخصصة للزوجات المعتدى عليهن فى الغرب المسيحى نسيا منسيا . وحتى لا يُساء فهمى : فليس قصدى هنا هو الدفاع عن البنى الأبوية فى المجتمعات الإسلامية ، ولكن هدفى هو أن أوعِّى وأوضح أن توظيف وضع المرأة المسلمة فى خلق صور مكررة ومبتذلة للعدو ، يبدو أنه يهدف فى الغالب إلى صرف الأنظار عما يقابل ذلك من العيوب الذاتية القائمة فى الغرب .

كذلك فإن الوهم الغربى الخاص باضطهاد المرأة فى الإسلام أو التعصب

المفرط للرجال ضد النساء المبنى على تفوق الرجل على المرأة والذى يظهر بوضوح فى أنظمة الحريم ، له ما يقابله بصورة معاكسة فى تصورات المتطرفين الإسلاميين للغرب كعدو ، حيث تصور المرأة فى الغرب على أنها مستغلة ، أو مسخرة جنسيا . وحق المرأة أن تسير فى الشوارع شبه عارية . لا يقوَّم من وجهة النظر هذه على أنه حرية شخصية ، ولكن ينظر إليه باعتباره إذلالا وتحقيرا للمرأة ويُوسم البغاء ، والمجلات والأفلام الجنسية على أنها سمات إنحطاط أخلاقى . بهذه الصورة عن دور المرأة يتم الربط بوثاقة وإحكام بين إنهيار البنى الأسرية وعزلة الإنسان فى الغرب وتبرز هذه الحقيقة على الأقل كأحد أسباب تعاطى المخدرات وارتفاع نسبة الانتحار فى أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية . وكما أن الحجاب قد أصبح بالنسبة للغرب رمزا لاضطهاد المرأة فى العالم الإسلامى ، فكذلك صار المتشددون المسلمون ينظرون إلى الملابس المثيرة للشهوة الجنسية على أنها رمز لإهانة المرأة ، وجعلها أداة للمتعة فى الغرب . كلتا الاستراتيجيتين لكى يحمل كل طرف الطرف الآخر تهمة .

هذه رؤية وشهادة باحث غربى يحاول أن يقول الحقيقة فى عالم أصبح من الصعب أن تقال فيه الحقيقة عن الإسلام . وهناك ما هو أكثر عداوة من كل ما نتصور ..

ففى كتاب بعنوان « محاصرة .. وإبادة : موقف الغرب من الإسلام » للدكتورة زينب عبد العزيز أستاذ الأدب الفرنسى بجامعة القاهرة مواقف عدائية تفوق التصور .. وعلى سبيل المثال :

الأب جيوم رينال يقول صراحة : « لا يوجد ما هو أكثر تكبيلا للحرية من الإسلام » .. !

وهولباخ فى كتاب معروف بعنوان « الأخلاق العالمية » يقول : « لقد

ظهر محتال فى بلاد العرب ، ارتجل الأكاذيب باسم السماء ، واستطاع أن يفرضها على عشيرته ، وسرعان ما أصبحت هذه الأكاذيب مقدسة ، وانتشرت بالسلاح فى آسيا وأفريقيا وأوربا ، إن شريعة محمد أقيمت بالسلاح ، وهى تطيح بالعروش لتقيم الطغيان الإسلامى على أنقاضها » ..

وفى قاموس الفنون والعلوم تعريف للإسلام يقول : « الإسلام دين أتى به محمد .. كان شديد الذكاء بحيث تعلم العهد القديم والعهد الجديد ، وتخيل منهما ديانة أقامها نقلا عن ظهر قلب ، وقسمها إلى مائة وأربعة عشر فصلا (يقصد سور القرآن الكريم) مليئة بالروايات والأكاذيب (!) .. والوعد فى هذا الكتاب لمن يقرؤه ألف مرة حورية فى الجنة تكون حواجبها بعرض قوس قزح » (!!)

وفى كتاب الأب ميشيليه « تاريخ فرنسا » الجزء الرابع وصف للإسلام يتضمن هذه الصورة الغريبة : « اختبأت المرأة فى الحرملك .. وسمح بأربع زوجات وأقر محظيات بغير عدد » .. !

والفيلسوف الفرنسى بونو دى كونديلاك يقول عن الرسول ﷺ : « لقد كون مشروعه بمحض المصادفة ، وبفضل جرأة احتياله استطاع أن يتمه ، لأن الظروف ساعدته على ذلك .. كان مصابا بالصرع ، وذات يوم فاجأته زوجته فى إحدى النوبات ، وتخيلت أنه فى حالة وجد .. واستغل محمد سذاجتها وأكد لها أنه يرى الرؤيا ، وأن الله يحدثه خلالها عن طريق الملاك جبريل ، وقامت زوجته بنقل ذلك لنساء أخريات معلنة أن زوجها نبى ، وانتشر الخبر ، وتراكمت النبوءات ، واتبعت الجماهير ذلك الرجل الملهم الذى أقنعهم بخصوبة خياله (!) .. » قبل ذلك وفى عام ١٦٧٤ كتب الأب لويس موريرى فى « القاموس التاريخى الكبير : « محمد نبى مزيف ، عربى الموطن ، دفعه الفقر ليخدم عند أحد التجار العرب ، وعند وفاة هذا التاجر

قام بإمتاع أرملته المسماة خديجة « كاديج » لدرجة أنه تزوجها وأصبح وريثها الوحيد ، فاستخدم أموالها ليزدهر ويخدم طموحاته ، وبعد ذلك شارك كل من باتيراس وهو هرطقي يعقوبي ، والأب سرجيوس وهو راهب نسطوري ، وبعض اليهود الذين عاونوه على تجميع القرآن ، وبذلك أصبح دينه مكونا من جزء من اليهودية ، وجزء آخر من أحلام هرطقية ، وقامت جماعة من اللصوص الذين لا يعرفون الله ولا الدين باعتناق هذه الديانة .. (!) » .

وإذا رأينا هذا الكلام غريبا لا يمكن تصديقه ، فهناك ما هو أغرب منه . مثل كلام الأديب الفرنسي بيير بيل في القرن الثامن عشر في « القاموس التاريخي والنقدي » : « إن الملاك جبريل علم محمدا وصفة تمنحه قوة فائقة للاستمتاع بالنساء .. وعندما أكل منها أول مرة هزم أربعين رجلا ، ومرة أخرى ضاجع أربعين امرأة دون أن يتعب .. ! » .

* * *

وأغرب من ذلك ما قاله أحد المتخصصين في العلوم الإنسانية في فرنسا في عام ١٦٣٢ في كتابه « التاريخ العام للأتراك » : « إن محمدا الغارق في الملذات المنحرفة ، لم يخجل من أن يقول في قرآنه : إن الله قد حباه بقوة أربعين شخصا .. وبما أن محمدا لم يكن بوسعه أن يقدم معجزات الأنبياء فقد استعان بالخدع والخرافة ، وكان يجمع الناس ليشاهدوا روح الله تنزل عليه ، وكانت هناك حمامة مدربة تطير من مكان قرب منكبيه وتلتقط الحب الذى كان يضعه لها في فتحة أذنه موهما العرب أنها كانت تملي عليه كلمات الله وشريعته .. » !

ولشدة الحملة على الإسلام ورسوله حاول أحد الباحثين تفسيرها .. الباحث هو شانتال دراجون والكتاب بعنوان : « عرب ، هل قلت عرب ؟ »

صدر فى عام — ١٩٩٠ ويقول : « إن صورة الإسلام هذه تطورت أساسا بدافع من الكنيسة بعد الحروب الصليبية ، ولم يتعرض لها أحد فيما بعد ولم يناقضها أحد ، بل ظلت هى الإطار المرجعى الوحيد الذى تنهل منه الفلسفة والآداب حتى مطلع القرن التاسع عشر » .

تشويه صورة الإسلام فى الغرب استمرت منذ القرن الثانى عشر حتى اليوم .. وشارك فيها مئات من المستشرقين وعلماء الإلهيات والفلسفة والتاريخ والأدباء ورجال الدين ..

بعض الذين ادعوا فى العصر الحديث أنهم يدرسون الإسلام بموضوعية وحياد كانوا أشد عداوة من أعدائه فى القرون السابقة .. مثال ذلك الأب جان كلود بارو فى كتابه « الإسلام والعصر الحديث » الذى صدر فى باريس عام ١٩٩١ الذى يبدأ بالإشارة إلى المكانة التى أصبح يحتلها الإسلام فى الساحة العالمية وفى فرنسا بصفة خاصة ، ثم يتحدث عن كذب « الأسطورة الذهبية » التى تقول : إن الإسلام دين تقدمى ، وإنه دين تسامح ، ويسخر من الزعم بأن الإسلام أنجب حضارات كبرى ..

ويقول جان كلودبارو أيضا : إن فكرة وجود أمة عربية ليست إلا خرافة .. ويضيف : إن القرآن أقل بكثير من الكتب الدينية الأخرى كالإنجيل ، أو حتى الإلياذة ! وينتهى فى كتابه إلى أن القرآن كتاب شديد الملل ، والإسلام دين سياسى قائم على السلاح (الجهاد) وليس على العبادة والتأمل .. وهو ضد أى تقدم .. وضد حقوق الإنسان وحقوق المرأة .. ثم يوصى الحكومة الفرنسية بأن تعيد تعليم الملايين الثلاثة من الفرنسيين المسلمين .. لإزالة الخرافات الإسلامية من أذهانهم .

ولكى تكتمل الحلقات فى تزييف صورة الإسلام فى الغرب فإن ترجمات

القرآن التى قام بها المستشرقون مملوءة بالمغالطات والأكاذيب ، ولكنها تؤثر فى عقول الغربيين وتكوّن رؤيتهم لهذا الدين وأهله . والدكتورة زينب عبد العزيز تستعرض الأكاذيب فى هذه الترجمات منذ أول ترجمة للقرآن فى القرن الثانى عشر ، وكان هدفها فى البداية تقديم نماذج العداء للإسلام وإدانته فى الغرب وليس فهمه والتعرف عليه كما هو ، وكأن الهدف هو « غسيل مخ » الأسبان الذين اعتنقوا الإسلام وتم تنصيرهم حديثا ، حتى أن ترجمة القرآن التى قام بها المستشرق الألمانى نولديكة يبدؤها بقوله إن هذا القرآن من صنع محمد وهو « صائغ غير موهوب لسور قرآنية مشوشة الأسلوب » .. وبعده كان المستشرقون يحرصون على إظهار الموضوعية فى حديثهم عن الإسلام والاكتفاء بالتشكيك فى صدق القرآن بالتشكيك فى عملية جمعه وتصنيفه ومدى سلامة مصحف عثمان (ا) حتى يعبر عن هذا الاتجاه فى مطلع القرن العشرين اللورد كرومر فى كتابه « مصر الحديثة » عام ١٩٠٨ : « إن القرآن هو المسئول عن تأخر مصر وتخلفها عن الحضارة الحديثة » ..

وتشير الدكتورة زينب عبد العزيز إلى ترجمة جاك بيرك المستشرق الفرنسى المشهور للقرآن وفى مقدمتها التى استغرقت ٨٢ صفحة يحرص جاك بيرك على التشكيك فى نزول وترتيب وتجميع القرآن ، والقول بتأثر القرآن بالشعر الجاهلى وبالفكر اليونانى القديم ومزامير داود ، واحتواء القرآن لعدد من الأساطير ، وتقديمه صورة « فظيعة » عن الله .. وحديث جاك بيرك عن غموض الأحكام فى القرآن الذى جعل المفسرين القدماء يكملون النقص من مذاهب أخرى ، وقوله بأن الشريعة الإسلامية فيها تناقض ، واتهام المفسرين بإلغاء بعض الآيات ، أو تحريفهم لمعناها ، مع إصرار غريب على تكرار القول بأن القرآن تأثر بالفكر اليونانى ، وانفصال العقيدة عن الحياة ، ومعاداة الإسلام

للتقدم العلمى والتكنولوجى . وللدكتور محمود حمدى زقزوق أبحاث كثيرة فى تحليل هذه الظاهرة .

* * *

وتشير الدكتورة زينب عبد العزيز إلى أن « الكذب التاريخى » هو الحقيقة الوحيدة ، وأن من أهم قضايا القرن العشرين قضية « اغتيال الشعوب » على الرغم من أن الديانة المسيحية تنص صراحة فى وصاياها : « ولن تقتل أبدا » لأنه لا يجوز قتل مخلوق من مخلوقات الله وجزء من نوره ، إلا أن تاريخ الغرب مثقل بأنهار من دماء القتلى التى انسابت باسم الدين حينا . وباسم التطهير العرقى حينا آخر ، وكلاهما باسم الرب الذى حرم القتل ! ولا يكفى سرد مجازر الحروب الصليبية ، أو الإبادة الجماعية التى قام بها الاستعمار الغربى ، وحتى ما حدث فى البوسنة ، وقبله فى أسبانيا من عملية إبادة وحشية للمسلمين وللإسلام .. وتشير الدكتورة زينب عبد العزيز إلى كتاب « فى دهاليز الفاتيكان » صدر عام ١٩٨٣ من تأليف جوردون توماس وماكس مورجن ويت وفيه حديث عن البابا يوحنا بولس الثانى بأن محاصرة الإسلام والمسلمين سوف تتم قبل نهاية القرن العشرين ..

ولكن الدكتورة زينب عبد العزيز تشير فى نفس الوقت إلى كتاب مهم ألفه الأب ميشيل ليلونج عضو جمعية الحوار الإسلامى التي أنشئت فى باريس عام ١٩٩٢ ، والكتاب بعنوان « ما أنزل الله » وفيه يطالب المسيحيين بأن يتخذوا موقفا يتسم باحترام المسلمين وعقيدتهم ، ويقول : لقد كنا نتحدث عن الإسلام والمسلمين بسطحية وبصورة غير عادلة ، ويتحدث عن مخاوف البعض من أن يؤدى احترام عقيدة الإسلام إلى التأثير فى نشاط المبشرين الذين هم رسل الإنجيل ، ويناقش الكاثوليك والبروتستانت الذين مازالوا يحتفظون بأفكار خاطئة مسبقة عن الإسلام كاستمرار للموقف العدائى المتوارث من

القرون الماضية ، ولا يجدون جدوى للحوار المسيحى - الإسلامى ، وهذا الحوار « يثير قلقا فى الأمة اليهودية » كما يقول الأب ميشيل ليلونج ويقول أيضا : « إن نبى الإسلام قد أسئ الحكم عليه لفترة طويلة من المسيحيين ، وقدموه بصورة سلبية بحتة وعدوانية ، ويشهد على ذلك مع الأسف ذلك الكم الهائل من المؤلفات الغربية .. ولقد حان الوقت ليحدث تغيير عميق فى وجهة النظر الغربية ، وقد بدأ ذلك أثناء المؤتمر الإسلامى المسيحى الذى عقد فى فبراير عام ١٩٧٦ فقد قام المتحدث الرسمى للوفد الكاثوليكى بالاعتذار رسميا لممثلى الأمة الإسلامية عن الجور البالغ الذى ارتكبته الكنائس المسيحية منذ قرون للإسلام والمسلمين » ..

ويحدد الأب ميشيل ليلونج موقفه بوضوح ويقول : « إذا كنا ندين بالمسيحية فلا يمكننا أن نشارك المسلمين إيمانهم بالنبى محمد ، ولكن إذا كنا مسيحيين حقا فإنه يجب علينا أن نتخذ موقفا محترما حيال الإسلام ورسوله .. موقفا قائما على المعطيات التاريخية الموضوعية » ..

* * *

المشكلة أن هناك أجيالا فى الغرب شبت على كره الإسلام أو التخوف منه بسبب حملات التشويه المستمرة منذ قرون والتى استخدمت كل الوسائل .. القواميس والموسوعات .. كتب ودراسات التاريخ والعقائد .. الأدب والقصص .. الفنون والسينما .. ووصل الأمر إلى حد إغفال ذكر سيدنا إسماعيل من بين أبناء إبراهيم عليه السلام .. ففى انجيل متى « ميلاد يسوع المسيح بن داود بن إبراهيم . إبراهيم ولد اسحاق ، واسحاق ولد يعقوب .. الخ .

كان عداء المسيحية للشيوعية محوره أن الشيوعية قائمة على الإلحاد

والمادية .. فهل يمكن أن يمتد العداء إلى الإسلام وهو دين يؤمن بوجود الله .. وكيف يمكن فهم الدعوة التى وجهها كاتب كبير مثل جاك ديكورنوا إلى البابا يوحنا بولس الثانى لكى يقود حملة صليبية جديدة ضد الإسلام ، خاصة بعد أن تمت السيطرة دينيا على أمريكا اللاتينية ، وسحق الشيوعية ، فلا يبقى أمام البابا إلا توجيه المد الكاسح إلى الأصوليين الإسلاميين ليقوم بعدها بمهمته الأخيرة ، وهى دمج الكنائس المسيحية جميعها تحت لواء روما الكاثوليكية .. وهذا هو ما جاء فى مقال نشرته صحيفة الموند ديبلوماتيك المعروفة .

أليس غريبا ألا تعترف الكنيسة بإسماعيل ، الابن البكر لسيدنا إبراهيم ، لأنه جد العرب ، ولا تعترف بالسيدة هاجر زوجة سيدنا إبراهيم ، وتتهمها باتهامات لا تليق ، وغريب ألا تتحرك الكنيسة تجاه العدوان القائم على الإسلام بالربط بينه وبين الإرهاب لمجرد أن هناك جماعات إرهابية من المسلمين مع أن هناك عشرات الجماعات الإرهابية أعضاؤها مسيحيون ويهود وبوذيون .. ولم يقل أحد : إن هذه الديانات ديانات إرهابية ..

والغرب الآن يشعر بالتخوف من الإسلام بعد أن نجحت الحملة الإعلامية فى بث الرعب من مفهوم « الجهاد » فى الإسلام على أنه يعنى أن الدين الإسلامى يفرض على أتباعه أن يحملوا السلاح ، وأن يحاربوا كل من يخالفهم فى العقيدة ، لإخضاع العالم وإكراهه على الدخول فى الإسلام بالقوة ، وإذا لم تكن الحرب الإسلامية المنظمة متاحة فى هذا العصر ، فإن « الإرهاب » هو البديل الإسلامى المطروح لزلزلة المجتمع الغربى وتهديد أسس الحضارة الغربية .. ويعبر عن هذه المخاوف جراهام فوللر وايان ليسر الأمريكيان فى كتابهما « الإسلام والغرب بين التعاون والمواجهة » ، فيتحدثان عن نظرية الإسلام فى تقسيم العالم إلى « دار الإسلام » و « دار الحرب » أى أن كل بلد ليس إسلاميا هو دار حرب يجب أن يغزوه المسلمون ، وعلى الإسلام أن يظل

فى حالة حرب مستمرة .. ويقول الباحثان الأمريكيان : إن هناك زعماء متطرفين حالمين هدفهم نظريا التوسع ونشر الإسلام فى كل أنحاء العالم ، ولكن الهدف الأكثر إلحاحا عند جميع رجال الدين الإسلامى الآن هو الحفاظ على الإسلام وتنقيته داخل العالم الإسلامى ، فالإسلام لم يعد عقيدة غزو وتوسع ..

* * *

فى الغرب هناك من يقول : إن مفهوم « الجهاد » فى الإسلام هدفه « الجهاد ضد الغرب » ليؤسس نظرية تقول : إن الإسلام دين عدوان ، وإنه خطر على الحضارة الغربية ، وإن خير وسيلة للدفاع هى الهجوم ، وإذن فإن القضاء على الإسلام الآن أفضل من الانتظار إلى أن يقوى التيار العدوانى الإسلامى ويتمكن من القضاء على الغرب .. !

نظرية غريبة .. ليس لها أساس إلا فى أوهام وخيالات أصحابها .. وهى - على أى حال - تعبير عن رغبة فى إيجاد مبرر للعداء للإسلام وللحديث عن « حرب دفاعية » ضد العالم الإسلامى ..

لا أحد فى العالم الإسلامى يقول : إن « الجهاد » هو إعلان الحرب على الديانات الأخرى .. وعلى الغرب ..

المسلمون يرددون فى صلواتهم أوامر الله : ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ .. ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ .. ﴿ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ .. ﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ ..

وأكثر الباحثين فى الغرب يعرفون ذلك .. ولكنهم يعرفون الحق ويكتمونه ..

لأن هناك مصالح سياسية واقتصادية تجعل الصدام بين الدول الكبرى والدول الصغرى محتوما .. ومادامت الدول الكبرى الآن هى الغرب .. وأهم الدول الصغرى التى تؤثر فى قلب المصالح الغربية هى الدول الإسلامية ، فإن الصراع السياسى والاقتصادى يتخفى وراء الأقنعة الدينية .. وما أسهل استغلال بعض ظواهر الانحراف من جماعات الإرهاب والجريمة لتصويرها على أنها المعبرة عن حقيقة وجوهر الإسلام ..

وصناعة تزوير التاريخ ، وقلب الحقائق ، والتضليل الإعلامى ، صناعة غربية وصلت إلى قمة التفوق دون منازع . !

أسطورة أم حقيقة

ما العمل أمام مخاوف الغرب من الإسلام .. ؟

هل نتجاهل الموضوع ، أو نقلل من أهميته ، أو نأخذه مأخذ الجد .. ؟

موقف العالم الإسلامى حتى الآن مازال يتأرجح بين التجاهل والتهوين من خطورة المسألة ، بينما العالم الغربى يأخذ المسألة بمنتهى الجدية .

يكفى أن نقرأ كتابا مثل « الخطر الإسلامى : أسطورة أم حقيقة » الذى الفه جون اسبوسيتو وأصدرته جامعة أكسفورد بنيويورك ، ويناقش فيه الرأى السائد فى الغرب من أن الحرب بين الشيوعية والغرب سيحل محلها الحرب بين الغرب والمسلمين .. ويتساءل فى أول سطر من الكتاب : هل الإسلام والغرب فى طريقهما للصدام الحتمى .. ؟ وهل يتعارض الإسلام — حقا — مع الديمقراطية .. ؟ وهل صحيح أن الأصولية الإسلامية تهدد استقرار العالم الإسلامى ، وتهدد مصالح أمريكا فى المنطقة .. ؟ ويقول إن هذه التساؤلات محرجة ، ولكنها نبعت من تاريخ حافل بعدم الثقة والاتهامات المتبادلة .. وخاصة أنه بعد ظهور الخمينى وصدام حسين ، أصبحت الحكومات الغربية ووسائل الإعلام مجمعة على أن الإسلام يمثل تهديدا للغرب ، وأصبحت صورة الإسلام فى الغرب أنه دين يعلن الحرب على من يخالفه ، ويعادى الغرب ، ويسعى إلى إعلان الحرب على العالم الغربى وحضارته . وهذه الصورة الغالبة الظاهرة فى الساحة الآن جعلت الجذور والمعتقدات الدينية المشتركة بين الإسلام والمسيحية تتوارى ، ولم يبق فى العقل الغربى إلا أن المسلمين هم الذين حاربوا وهزموا الإمبراطورية البيزنطية فى القرن السابع الميلادى ، وهم الذين قاتلوا وهزموا فى النهاية الصليبيين ، والإمبراطورية العثمانية كانت أكبر

تهديد واجهته أوربا فى تاريخها ، وأن الغربيين هم الذين طردوا المسلمين من أسبانيا ، وهم الذين قادوا التوسع الأوربى الاستعمارى ، وأقاموا إسرائيل ، وفى السنوات الأخيرة فإن « الإسلام المقاتل » العدوانى هو الذى يظهر أمام الغرب .. ابتداء من الهجوم على السفارات الغربية ، واختطاف الطائرات ، واحتجاز الرهائن الغربيين ، وأعمال العنف التى تقوم بها جماعات تحمل أسماء : حزب الله .. الجهاد .. الناجون من النار ..

والآن فإن الإسلام هو أعظم القوى انتشارا فى العالم ، حيث يبلغ عدد المسلمين حوالى الف مليون مسلم ، ويمثل المسلمون الأغلبية السكانية فى خمس وأربعين دولة ، تمتد من أفريقيا إلى جنوب شرقى آسيا ، والمسلمون الآن موجودون بشكل ملحوظ فى الولايات المتحدة ، وأوربا ، وجمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق .. فالإسلام يبدو أمام الغرب قوة ايديولوجية تشمل خمس سكان العالم .. ويبدو أيضا « امبراطورية شريرة » فى حالة حرب مع النظام العالمى الجديد ، وفى صحف الدول الإسلامية والأوربية تظهر مقالات مثيرة تحمل عبارات مشئومة مثل : « مازالت الحروب الصليبية مشتعلة » أو « الهلال الجديد فى ورطة » أو « الانتفاضة الإسلامية العالمية » أو « الإسلام الصاعد يمكنه أن يقهر الغرب ، أو « جذور الغضب الإسلامى » ومثل هذه العبارات تلقى اهتماما من العامة ، ولكنها تؤدى إلى تكوين صورة عن المسلمين على أنهم من البدو الذين يمتلكون الحريم ، عاطفيون ، وغير متعقلين ، يتميزون بالتعصب ، والعنف ، والتهور ، واضطهاد المرأة .

* * *

وفى رأى جون اسبوسيتو أن بعض الأمريكيين الذين يبحثون عن عدو جديد بعد انتهاء الشيوعية لكى تختبر أمريكا فيه قوتها ، يجدوا فى الإسلام الخصم المفضل ، وإن كان ذلك يعد إعلانا لحرب باردة جديدة ، ليس من

المرجح أن تنتهى بنفس الانتصار الباهر الذى حققته أمريكا فى الحرب الباردة السابقة .. !

لذلك فهو يحذر من أن يحل الخوف من الخطر الأخضر (رمز الإسلام) محل الخوف من الخطر الأحمر (رمز الشيوعية العالمية) ويحذر من المضى فى نشر الفكرة التى تقول : إن الإسلام هو التحدى ، وهو الخطر الكامن للدين المسيحى والغرب .. ويتساءل اسبوستيو بعد ذلك : هل الخطر الإسلامى أسطورة أو حقيقة .. ؟

ويشير فى كتابه إلى معالم يرى أن لها أهمية فى فهم « الخطر الإسلامى » ويقف عند حرب أكتوبر ١٩٧٣ والثورة الإيرانية .. ويرى أن كلا منهما يمثل نقطة تحول نبهت الغرب إلى وجود قوة فعالة جديدة تهدد المصالح الغربية ، بعد أن استعان رؤساء الدول وزعماء حركات المعارضة بالإسلام لدعم شرعيتهم وضمان التأييد الشعبى مما أدى إلى تزايد المنظمات الإسلامية .. ففى حرب ٧٣ شن السادات الحرب على إسرائيل تحت راية الإسلام ، وشجع الانتصار النسبى المسلمين على اعتبار هذه الحرب انتصارا للإسلام .. بينما خاض عبد الناصر حرب ٦٧ باسم القومية العربية والاشتراكية ولم يرفع راية الإسلام .. ! وكانت المقاطعة النفطية العربية قوة ضاغطة جعلت الغرب يعترف لأول مرة باعتماده على الشرق الأوسط وتعرضه للإفلاس والموت إذا انقطع عنه شريان الحياة من البترول الذى يأتى إليه من بلاد إسلامية . وبالنسبة للكثيرين فى العالم الإسلامى كانت هذه إشارة لعودة قوة الإسلام .

وكانت ثورة الخمينى صدمة للغرب .. كان الشاه قد جعل إيران أكبر حليف للولايات المتحدة ، وجاءت هذه الثورة باسم الإسلام تعلن الحرب ضد الشاه ، وضد الغرب ، ووقف الغرب مذهولا أمام ذلك التحدى لتطوير

الشاه « العصرى » لدولته المتخلفة ، وصعود قوة « غير متعقلة ترجع جذورها إلى قرون مضت ، وتهدد بإعادة إيران الحديثة إلى العصور الوسطى » وتسعى إلى تصدير الثورة إلى سائر الدول الإسلامية ، حتى أن الخمينى جمع عناصر من قادة الحركات الإسلامية فى ٤٠ دولة إسلامية ودعاهم إلى تحويل مساجدهم إلى قواعد عسكرية وثقافية للإعداد لتكوين حكومات إسلامية فى جميع الدول .

وأعلن الخمينى الحرب على العراق .

وهدد دول الخليج .

وكانت « الثورة الإيرانية » هى المحركة لمظاهرات مواسم الحج ، واضطرابات الكويت والبحرين عام ١٩٨١ ، ثم أرسلت فصيلة من الحرس الثورى الإيرانى إلى لبنان لتطوير حزب الله وتنظيم الجهاد ، وامتدت أصابعها إلى كثير من الدول الإسلامية .

على الجانب الآخر فإن التاريخ جعل المسلمين يمثلون تهديدا للمسيحية الغربية كما يقول ماكسيم رودنسون المستشرق الفرنسى المعروف . فقد أدت أوجه التشابه الدينى بين المسيحية والإسلام إلى طريق امتلأ بالتضارب بين العقيدتين .. فقد اعتقدت كل جماعة منهما بأن ميثاقها مع الله ، جاء تحقيقا لرسالته السابقة ، وبأن رسالتها ورسولها يمثلان ختام الرسالات والنبوة ، وكان للمسيحيين مكان التفوق ولم يواجهوا إلا مشاكل قليلة فى تنازلاتهم تجاه اليهودية ، ولكن كان مثل هذا الموقف من جانب المسلمين تجاه المسيحية أمرًا مستبعدا ، والأكثر من ذلك كانت رسالة المسلمين تمثل تهديدا للدور الفريد ، والتفويض الإلهى الذى حصلت عليه المسيحية وجعلها الممثل الوحيد للرب ، والوسيلة الوحيدة للخلاص .. فالمسيحية والإسلام كلاهما يدعو إلى رسالة عالمية ، وكلاهما يمثل مجتمعا متعدد القوميات يقوم على عقيدة

مشتركة ، وكلاهما يرى أنه المثال الذى يجب أن يحتذى به سائر البشر ، وكلاهما يرى أنه الطريق لانتصار ملكوت الله ، ثم جاءت صفحات الصراع ابتداء من الفتح الإسلامى الذى أعلن انتصار الإسلام ، ثم الحروب الصليبية التى أعلنت انتصار المسيحية ، والحروب الصليبية فى ذاكرة المسلمين رمز للنزعة الحربية المسيحية ، ونذير مبكر لعدوانية وإمبريالية الغرب المسيحى ، ودليل قوى على عداوة المسيحية المبكرة للإسلام ، وحين يتحدث المسيحيون عن الإسلام على أنه دين السيف ، يتحدث المسلمون عن الحروب الصليبية على أنها رمز للنزعة العدوانية باسم المسيحية ، ويمثل القرن الحادى عشر علامة تحول فى العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامى ، فقد كانت شعوب الغرب حتى نهاية القرن العاشر شعوبا فقيرة ، متخلفة ، يسودها الجهل وتتقاتل جماعاته المتوحشة . فى حين ظل الإسلام طوال أربعة قرون ينعم بالسلام والأمن الداخلى ، واستطاع بناء ثقافة وحضارة عظيمة ومؤثرة .. وبعد ذلك تحول الوضع بشكل درامى .. ازدهرت التجارة والمعاملات فى الغرب ، ونشأت المدن والأسواق وازداد السكان وانتشرت الفنون والعلوم .. وشن الغرب الخارج لتوه من العصور المظلمة هجوما مضادا لطرد المسلمين من أسبانيا وإيطاليا وصقلية والبحر المتوسط .. وفى ذات الوقت بدأ العالم الإسلامى يشهد مرحلة من النزاع السياسى والدينى .

وأثرت الحروب الصليبية فى صورة الإسلام فى الأدب والفكر الغربى .. وزاد من آثارها النزعة العنصرية الأوربية .. فسادت مفاهيم مشوهة عن الإسلام والمسلمين ، وتجاهل الغرب مساهمة الإسلام فى الحضارة الغربية ، وسادت عن الإسلام قصص خيالية امتزجت بتحريف العقيدة الإسلامية لكى تثير الكراهية « للعدو » . !

وحين بدأ عصر الإصلاح الدينى المسيحى بعد قرون من العداء ، كان

الإسلام هو الأداة التى يوجه إليها العداء فى الاحتفالات الدينية ، ورمزا للخطر والعداء للمسيح ، ورأى مارتن لوثر زعيم الإصلاح الدينى المسيحى أن الإسلام ليس إلا : « حركة عنف فى خدمة أعداء المسيح ، ولا يمكن تغيير طبيعة الإسلام لأنه منغلق أمام المنطق ، ولا يمكن مقاومته إلا بالقوة » .

وحين حكم الاستعمار الغربى العالم الإسلامى كانت رؤيته للإسلام على أنه فاشل فى إقامة مجتمع متحضر لأنه يضع المرأة فى منزلة أدنى من الرجل ، ويسمح بالعبودية ، ونزعته العامة التعصب ضد العقائد الأخرى ، ولا يسمح بتطوير الفكر المنطقى ، وهكذا جعل الاستعمار الأوربى من الإسلام التحدى السياسى والدينى والتهديد الذى تجب مقاومته .. ومع تمزق العالم الإسلامى فى القرن ١٨ أصبح هدفا للإرساليات المسيحية التبشيرية التى حاولت تصوير المسيحية على أنها هى التقدم والحضارة وتصوير الإسلام على أنه التخلف والجهل .. وفى القرن الـ ١٩ وجد المسلمون أنفسهم فى حالة دفاع عن النفس فى مواجهة الاستعمار الأوربى ، ومع بداية القرن العشرين وظهور حقيقة الاستعمار والامبريالية الأوربية فى تمزيق خريطة العالم الإسلامى .. الفرنسيون فى شمال وغرب أفريقيا وفى أفريقيا الاستوائية وفى لبنان وسوريا .. والبريطانيون فى فلسطين وشرق الأردن والعراق والخليج العربى ومصر وشبه القارة الهندية وجنوب شرقى آسيا والملايو وسنغافورة وبروناى .. والهولنديون فى أندونيسيا .. وحين احتفظ المسلمون بالسلطة فى تركيا وإيران ظلوا فى موقف دفاعى دائم ضد الأطماع السياسية والاقتصادية للبريطانيين والفرنسيين والروس .

ونتيجة لكل ذلك تعددت مواقف المسلمين من الغرب .. من الرفض إلى الإعجاب والتقليد .. لكن الصراع كان هو المناخ السائد .. وظهرت أوربا على أنها العدو الذى يهدد العقيدة الإسلامية والمجتمعات المسلمة ، وأصبحت

الأزمة السياسية الناتجة من الاستعمار الغربى أزمة روح ، ونبعت هذه الأزمة الروحية فى الإسلام فى القرن العشرين ، وساعدت سياسات القوى الاستعمارية على زيادة تصورات المسلمين عن الغرب الصليبى ، لأن تجربتهم مع الاستعمار الغربى كانت تمثل تهديدا للهوية والعقيدة الإسلامية ..

يقول جون اسبوسيتو : إن أوربا لم تأت إلى العالم الإسلامى بالجيوش والموظفين فقط ، ولكنها جاءت أيضا بالبعثات التبشيرية المسيحية ، وقال قادة الاستعمار الفرنسى فى الجزائر مثلا : إن القساوسة كسبوا لنا قلوب العرب الذين أخضعناهم بقوة السلاح .. وقال كبير أساقفة الجزائر : إن مهمة الكنيسة هى تحويل العرب المسلمين عن رذائل دينهم من الكسل والطلاق وتعدد الزوجات والسرقة والتعصب .

وكان رد الفعل من الجانب الإسلامى على هذه الهجمة الاستعمارية فى طريقين : طريق الرفض والانسحاب .. أو طريق الرفض والمقاومة والمواجهة .. وظهرت الدعوة بين المسلمين للأخذ بالعلوم والأسلحة والأفكار الغربية الحديثة لمواجهة سيطرة الغرب .. وظهرت حركة التجديد الدينى على يد الأفغانى ومحمد عبده فى مصر ، ومحمد إقبال فى الهند ، ثم جاء طه حسين وهو من تلاميذ محمد عبده ليمثل تيار جيل جديد يؤمن بالليبرالية ، ويؤكد أن « جوهر ومنبع الإسلام هو جوهر ومنبع المسيحية ، ولا توجد خلافات فكرية أو ثقافية .

ولكن المشكلة فى أعماق العقل والغير وهى إسرائيل .. !

* * *

يقول جون اسبوسيتو : إن اقامة دولة إسرائيل عام ١٩٤٨ كانت أجرأ مثال على نفاق الاستعمار الأوربى ، ورغبته فى إبقاء العرب ضعفاء

ومنقسمين ، فقد كانت إسرائيل تعتبر مستعمرة أوروبية أمريكية فى قلب الأمة العربية ، وكانت هزائم العرب فى ٤٨ و ٥٦ إذلالا آخر ، ووجد القادة العرب فى الصراع ضد إسرائيل ما يصرف الانتباه عن فشل الأنظمة السياسية والقومية العربية ، واتفق العلمانيون والمتدينون والقوميون العرب والجماعات الإسلامية على أن تحرير فلسطين هو الجهاد الأكبر . وكانت القومية العربية عند عبد الناصر حركة سياسية وليس لها مضمون إسلامى ، ولكن فشل الحكومات والقومية العربية الذى جسدته مهانة حرب ٦٧ هى التى خلقت شعورا عميقا بخيبة الأمل ، أدى إلى الصحوة الإسلامية .. وحين أطلق خالد الاسلامبولى النار على الرئيس أنور السادات فى حدث أذهل العالم ، وفى أعقاب الثورة الإيرانية ، لفت أنظار العالم بشكل درامى إلى الإسلام الراديكالى .. وبدأت صورة الإسلام والمسلمين فى الغرب تأخذ شكلا غريبا .

* * *

فى محاضرة القاها باحث أمريكى بارز هو الدكتور برنارد لويس فى جامعة جيفرسون عام ١٩٩٠ تحدث عن المسلمين على أنهم جميعا أصوليون متشددون وعن الإسلام على أنه خطر قائم ، ونشرتها مجلة « اطلنطيك » الشهرية مع صورة على الغلاف تمثل علاقة الغرب بالإسلام على أنها علاقة حرب وكراهية ، تصور مسلما ملتحيا عابس الوجه ، يضع عمامة على رأسه ، وتخرج من عينيه الغاضبتين أعلام أمريكا ، وفى الداخل رسم لثعبان عليه النجوم والخطوط التى ترمز للعلم الأمريكى يزحف فى الصحراء ممثلا للهيمنة الأمريكية وتهديدها للعالم العربى ، ورسم آخر لثعبان فى وضع انقضاض لمهاجمة أحد المسلمين الآمنين وهو يصلى .. والهدف هو القول بأن المسلمين يرون أن أمريكا هى العدو ، وأن المسلمين يعيشون بعقلية العصور الوسطى ..

ويقول اسبوسيتو : لماذا يتحدث الغرب عن باكستان وهى تحاول صنع

قنبلة نووية بأن هذه « قنبلة إسلامية » فهل يصفون القنابل النووية الإسرائيلية بأنها « قنبلة يهودية » أو القنابل النووية الأمريكية بأنها « قنبلة مسيحية » .. ؟

ويقول أيضا : إن مشاعر العداء ضد العرب والمسلمين فى أوربا هى جزء من جنون الخوف من الأجانب وكراهيتهم ، وقد أثارت بريطانيا جدلا حول قضية سلمان رشدى وحول تبرير رفض الحكومة البريطانية لتقديم دعم للمدارس الإسلامية بينما تقدم الدعم تلقائيا للمدارس الكاثوليكية واليهودية ! وتدعى الحكومة البريطانية أن المدارس الإسلامية « دون المستوى » كمبرر لعدم استحقاقها للدعم .. وفى فرنسا تصاعدت النداءات تطالب بطرد العمال الأجانب ، وصدرت قرارات بمنع التلميذات المسلمات من وضع غطاء رأس .. ودول الغرب عموما تعتبر المسلمين فيها غرباء دينيا وثقافيا .. ومثل انتشار فكرة أن أوربا القلعة المسيحية التى تنعم بالثراء تخاطر بالسماح للمسلمين بالهجرة إليها فتغامر بنشوء صراع ضد عالم إسلامى يغلب عليه الفقر والبؤس ، مما سيؤدى إلى انتشار الإرهاب ، وإلى حروب أخرى قد تستمر أربعين سنة .. !

يقول جون اسبوسيتو : إن ما نواجهه الآن بين الإسلام والغرب هو « صدام حضارات » ربما يكون رد الفعل اللاعقلانى لتاريخ من التنافس القديم .. ولكن المسألة ليست أن المسلمين متعصبون ، ولكن أن المسلمين يشعرون بالظلم ، والناس حين يتعرض وجودهم ومصالحهم للخطر فلابد أن ينفجروا غضبا ، سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين ، أو من السيخ والهندوس .

ويقول : لماذا نقلل من شأن الإسلام .. ؟ ربما كان ذلك بسبب الجهل لأن ما يكتب بإنصاف وموضوعية عن الإسلام فى الغرب محدود .. ولأن وسائل الإعلام الغربية ترسم صورة مخيفة ومكروهة عن المسلمين ، وبعد أن

كانت صورة المسلم هى صورة البدوى وتعدد الزوجات والحريم أصبحت صورته الآن الإرهابى المدجج بالسلاح المحارب للغرب ..

ويُنظر في الغرب إلى الإسلام على أنه ظاهرة ثابتة متحجرة عقائديا وثقافيا واجتماعيا وأنه دين يعادى الحداثة ورجعى ، وأنه دين يلغى العقل لأنه أغلق باب الاجتهاد منذ القرن العاشر .

ويتساءل اسبوسيتو : هل العداء للإسلام فى أمريكا يرجع إلى ما يعلنه الإسلاميون من العداء لأمريكا ؟ .. ثم يجيب بأن هناك كثيرين لا ينتمون إلى الجماعات الإسلامية يرون أن الولايات المتحدة معادية للإسلام ومنحازة لإسرائيل بشكل كامل ..

ثم يقول : إن المصالح الأمريكية ستكون فى أمان إذا انتهجت أمريكا سياسة تتسم بالاستقامة والتعاون واتباع سياسة علنية ثابتة وواضحة فيما يتعلق بحق المواطنين فى العالم كله فى تقرير مصيرهم .. (ومنهم الفلسطينيون طبعا !) .

وأخيرا يقول : على أمريكا والغرب فهم الإسلام والتعامل معه وفقا لمبادئ الحرية وحق تقرير المصير وتقدير أمانى الشعوب وإرادتها .. فهذا هو الطريق لتفادى الصدام . وفى النهاية فإن الخطر الإسلامى أسطورة أكثر منه حقيقة .

وليس أسبوسيتو هو الوحيد الذى نقب عن الجذور وفتح الملفات وحدد أسباب العداوة .

* * *

هناك أيضا من طرح نفس الأسئلة ولكن بشكل مختلف ..

الدكتور هانيس ديترفنتر سفير المانى سابق له خبرة بالإسلام والمسلمين ، أعد دراسة بعنوان « هل يشكل الإسلام السياسى خطرا على أوربا ، ترجمتها

صبحية فولف مشورب ، وهو يتحدث عن « الإسلام السياسى » باعتباره ايديولوجية تهدف للوصول إلى الحكم ، ولذلك لا يمكن بأى حال اعتبار الإسلام السياسى كايديولوجية هو الإسلام كدين ،وهذا الخلط هو الذى جعل الغربيين يرون أن الإسلام خطر عليهم .

يقول الدكتور هاينس ديترفنتر : إن هناك من يرى أن الغرب فى حاجة إلى عدو بعد زوال الخطر الشيوعى ، لأن استمرار وجود المجتمع الليبرالى الغربى يحتاج إلى هذا العدو ، وهناك من يرى أن السبب فى هذه الفكرة هو أن مجتمعات العالم الثالث وخاصة المجتمعات الإسلامية تمر بأزمة فى تطورها .

ويتساءل الدكتور هاينس لماذا تحول النقاش عن الإسلام كصورة عدائية إلى موضوع يدخل ضمن خطط السياسات الأمنية الغربية فى السنوات الأخيرة ؟ وهل وجود توترات فى المنطقة الممتدة من المغرب إلى الخليج العربى يبرر الحديث عن الإسلام كعدو ، أو أنه خطر يهدد أوربا والغرب عموما ..؟ وما هى الخطوات التى يمكن أن تقوم بها السياسة الأوربية للمساهمة فى القضاء على الإرهاب والتطرف .. ؟

يقول : إن من حق الغرب أن يستنكر أعمال الإرهاب التى تتم باسم الإسلام ،ويطالب بوضع حد لها ، ومن حق الغرب أن تزداد مخاوفه من أن يتحول إلى ساحة لمثل هذه الصراعات والأعمال الإرهابية ، وخاصة بعد ثورة إيران ، والحرب الإيرانية العراقية ، وعمليات الخطف التى قامت بها مجموعات إسلامية فى لبنان فى الثمانينيات ، ولكن اتساع المخاوف من الإسلام كعدو يهدد أمن الغرب ، فقد برز فى نهاية الثمانينات وبداية التسعينات لعدة أسباب : أولها التغيرات على الساحة الدولية بعد انتهاء المواجهة بين الشرق والغرب ، وثانيها العدوان العراقى على الكويت فى أغسطس

١٩٩٠ وحرب الخليج بعدها وكانت أول حرب ساخنة كبيرة بعد انتهاء الحرب الباردة ، وإذا كان انتهاء الحرب الباردة يعنى أن أوربا الشرقية لم تعد تشكل خطرا للغرب كعدو ، فإن حرب الخليج أظهرت أن تلك المنطقة الواسعة المتاخمة لأوربا فيها احتمالات كبيرة للصراعات ، وبعد أن نجح صدام حسين فى ندائه الديماجوجى إلى دعوة العالم العربى والإسلامى إلى شن حرب الجهاد ضد الغرب ، فقد وجد القادة العسكريون فى أوربا أعداء تهدد قارتهم ، وفى منظمة حلف شمال الأطلنطى ، كما فى جيش المانيا ، تتحدث الوثائق منذ عام ١٩٩٠ عن « الخطر القادم من الجنوب » وأهم هذه الوثائق تقرير صادر عن حلف شمال الأطلنطى يرى أن هناك خطرا يهدد دول أوربا من الحركات الإسلامية المعروفة بعدائها للقيم الغربية ، وقد كتب السكرتير العام لحلف الأطلنطى ، ما نفريد فورنر رسالة موجهة إلى الحلف عام ١٩٩٠ جاء فيها : « على طول الحدود الجنوبية لدول حلف الأطلنطى كتلة من التوترات تمتد من المغرب حتى الشرق الأوسط ، يتم استغلال وتصعيد هذه التوترات من متسلطين مثل صدام حسين ، وبالإضافة إلى ذلك تعانى هذه المنطقة من مشاكل اقتصادية متأصلة ستؤدى حتما إلى استمرار تزايد السكان ، وإلى نشوء صراعات على الموارد ، وإلى زيادة حدة التعصب الدينى والإرهاب .

فالسكرتير العام لحلف الاطلنطى يرى أن هناك علاقة بين الإرهاب والأزمة الاقتصادية فى المنطقة ، أما القائد الأعلى السابق للحلف جون كلفان فإنه يشير مباشرة إلى الإسلام على أنه الخطر القادم من الجنوب .. وأعلن رأيه هذا فى محاضرة القاها عام ١٩٩١ قال فيها : « لقد عرف هذا القرن أطول مواجهة بين الغرب والإسلام طالت أكثر من الف سنة ، واشتعلت منذ العصور الصليبية إلى العصر الحديث ، وبعد أن انتصر الغرب فى الحرب الباردة ، يعود الصراع أمام الغرب إلى محوره الرئيسى ، وهو المواجهة مع الإسلام ، والسؤال

هو : هل يستعيد التاريخ العسكرى الأوربى محوره الرئيسى الصحيح وهو المواجهة مع الإسلام بعد أن انشغل عنه منذ هزيمة الجيش التركى على أبواب فيينا عام ١٦٨٣ ؟ وهل سيوجه « سيف الإسلام » ضد أوربا .. مدججا هذه المرة بأسلحة حديثة لعلها « القنبلة الإسلامية النووية » التى يزداد الكلام عنها الآن ؟ .

يقول الباحث الألمانى الدكتور ديترفنتر إنه من الصعب التغاضى عن أقوال القائد الأعلى السابق لقوات حلف شمال الاطلنطى التى يتهم فيها أكثر من مليار مسلم فى العالم بأنهم أعداء محتملون للغرب ، ولا يمكن اعتبار مثل هذه الادعاءات ادعاءات هامشية ، فمثل هذه الآراء تلاقى انتشارا تدريجيا فى التفكير السياسى الغربى ، فقد جاءت نظرية صمويل هانتنجتون عن صراع الحضارات بعد ذلك بعامين وقال فيها : إن الصراع القائم فى السياسة الدولية بعد انتهاء الحرب الباردة هو صراع بين الحضارة الغربية وغيرها من الحضارات ، وعلى رأسها الإسلام وقد أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية تبرؤها من هذا الموقف لأنه يهدد المصالح العالمية للولايات المتحدة ، ولكن مع ذلك فإن مواقف مثل موقف القائد الأعلى لقوات حلف الاطلنطى السابق ، والباحث الأمريكى هنتجتون لها انعكاسات سلبية على علاقة الغرب بالعالم الإسلامى ، وتشجع التفكير العدائى ضد الإسلام فى أوربا ، لأنها تعتبر الإرهاب هو الإسلام كدين .

* * *

فى الغرب عداء للإسلام .. وفى العالم الإسلامى جماعات إرهابية لا تخفى عداءها للغرب ، ومعنى ذلك احتمال قيام صراع جديد ، وهذا ما جعل الرئيس حسنى مبارك يقول فى إحدى خطبه : « لا يريد المسلمون أبدا أن يُعاملوا كإرهابيين يمارسون العمل السرى فى النظام العالمى الجديد ،

بل إن المسلمين لهم مصلحة فى التعاون على قدم المساواة مع جميع دول العالم ، ولتحقيق ذلك يجب تصحيح الأخطاء ، وتحسين الصورة المشوهة عن العرب فى أعين العالم . إن الأعمال الإجرامية التى يقوم بها المتطرفون المسلمون تعزز الاعتقاد فى الغرب بأن الإسلام يشكل الخطر الجديد الذى تجب مكافحته بعد نهاية الشيوعية ، وللأسف فإن الغرب يكوّن نظريته انطلاقا من نشاط هذه المجموعات دون أن يريد استيعاب أن الإسلام لا يشكل خطرا أيا كان ، وعندما تتحدث بعض الدوائر فى الغرب عن الإسلام باعتباره خطرا أو تهديدا ، فإنها بذلك تصب الزيت على نار المتطرفين ، الذين يعتبرون أن الغرب هو المسئول عن الفقر الذى تعانى منه الشعوب الإسلامية ، وهذا ما يلقى تجاوبا لدى المسلمين .

ولكن هل العنف والإرهاب لدى هذه الجماعات لأنها إسلامية أو لأسباب أخرى .. ؟ » .

* * *

المفكر الألمانى الدكتور هاينس ديترفنتر يفسر وجود جماعات العنف فى الدول الإسلامية بسبب الوضع الاجتماعى السياسى الاقتصادى لهذه الشعوب وليس بسبب الإسلام ، ففى هذه المنطقة من العالم يسود وضع يمثل تربة خصبة للإسلاميين بغض النظر عن كثرة أو قلة عددهم .السؤال :كيف تمكنوا من استخدام الدين لأهداف سياسية وإيجاد شعبية لهم .. ؟ الإجابة أن هذا التيار وجد دفعة قوية بعد هزيمة الدول العربية عام ١٩٦٧ فى حربها مع إسرائيل ، وكان المتغيرات التى حدثت فى السياسة العالمية منذ نهاية الثمانينات تأثير مباشر فى هذا الاتجاه ، فقد توصلت ندوة عقدت فى القاهرة فى مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام عام ١٩٩٠ كان موضوعها تأثير التطورات فى أوربا الشرقية على المجتمعات الإسلامية إلى أن

التصالح بين العملاقين الكبيرين يمثل بالنسبة للعالم الإسلامى تحديا خطيرا ، لا يمكن الرد عليه إلا من خلال إسلام له روح جديدة .

يقول المفكر الألمانى الدكتور هانيس ديترفنتر إن تصاعد نشاط الإسلاميين منذ نهاية الثمانينات حدث فى جميع البلاد العربية ، وفى الأراضى الفلسطينية المحتلة وقطاع غزة تنشط المجموعات الإسلامية مثل حماس وحزب الله منذ عام ١٩٨٨ ، وفى مصر ظهرت أعمال إرهابية ، وفى الجزائر تنشط جبهة الإنقاذ الإسلامى منذ عام ١٩٨٩ ، أما فى السودان فقد تسلم العسكر السلطة وأعلنوا أن الشريعة الإسلامية هى أساس الحكم فى البلاد ؛ مما أدى إلى تصعيد الحرب الأهلية هناك والتى اشتعلت لأسباب لا دخل للدين فيها ، وحقق الأخوان فى الأردن نجاحا بارزا فى انتخابات ١٩٨٩ ، وفى الجزائر حصلت جبهة الإنقاذ الإسلامى على أغلبية الأصوات فى الانتخابات البلدية عام ١٩٩٠ وهى الانتخابات التى الغيت بعد إعلان نتائجها ، ويمكن القول : إن القوى الإسلامية تمثل الآن قوة المعارضة فى البلاد العربية ، فى حين كانت المعارضة فى الستينات تتكون من القوى القومية . وصعود القوى الإسلامية يعود إلى عوامل داخلية ..فى الأراضى الفلسطينية نتيجة الاحتلال الإسرائيلى ، وفى الجزائر نتيجة تدهور الأوضاع الاقتصادية ، وفى لبنان نتيجة الاعتداء الإسرائيلى عام ١٩٨٢ وما تبعه من احتلال دائم لجنوب لبنان .

هناك أسباب محلية لظهور هذا التيار ، ولكن هذه الأسباب المحلية لها علاقة مباشرة بالتطورات الاقتصادية العالمية ، مثل مسألة المديونية ، لذلك يستغل الإسلاميون ذلك فى مهاجمة الغرب والنظام العالمى الجديد الذى أعلن عنه بعد حرب الخليج ، لأنه لم يأت بجديد لهذه الشعوب ، وقد جاء فى مجلة « الإنسان » التى تصدر فى باريس « أن التدخل فى الشئون الداخلية وخرق السيادة الوطنية هما من مميزات النظام العالمى الجديد » .. ! وتتهم المجلة

الفرنسية النظام العالمى الجديد بالتحيز ، فهو ضد تسليح العراق ولكنه مع تسليح إسرائيل ، وضد احتلال الكويت ولكنه مع احتلال الضفة الغربية ، وهو مع الديمقراطية ولكنه ضد الديمقراطية فى الجزائر بعد فوز الإسلاميين فى الانتخابات .. !

* * *

يقول المفكر الألمانى الدكتور هاينس ديتر فنتر : إنه بعد انتهاء الصراع بين الشرق والغرب ، وحرب الخليج ، ازدادت شعبية الإسلام السياسى كبديل معاد للغرب ، وتمرد ضد سيطرة الغرب على العالم ، ونوع من الرد الإسلامى على ما يسمى بالنظام العالمى الجديد الذى أعلنه الرئيس الأمريكى بوش كهدف لهذه الحرب .

ويذكرنا المفكر الألمانى بما جاء فى البيان الصادر عن نادى روما من أنه « فى الفترة التى ستعقب الحرب الباردة ستزداد الهوة بين الأغنياء والفقراء ، بين الشمال والجنوب ، وبالأخص فى البلاد العربية الإسلامية سيزداد الشعور بالظلم وغياب العدالة » .

هذا ما قاله نادى روما عن النظام العالمى الجديد .. !

* * *

يشير المفكر الألمانى د . هاينس ديتر فنتر إلى الحوار الذى نشر فى مجلة « فورن افيرز » الأمريكية وجاء فيه أنه من المعتقد أن هناك « مركزا إسلاميا دوليا » يوجه عمليات العنف كما كانت « الشيوعية الأممية » تديرها موسكو سابقا ، وهناك دلائل تشير إلى أن طهران هى هذا المركز ، وغاية ما يمكن أن تطمع فيه إيران هو تحقيق نوع من السيطرة فى منطقة الخليج ، ولا علاقة

لهذا بالإسلام ، لأن حكم الشاه كان يسعى إلى نفس الهدف . ومع ذلك فإن إيران بعد الثروة وحتى اليوم تسعى إلى إقامة علاقات جيدة مع الغرب وبخاصة العلاقات الاقتصادية ، مما يدل على أن شعارات العداء للغرب لا تمثل تهديدا حقيقيا .. !

معنى هذا أن ما يقال عن حتمية الصراع بين الغرب والإسلام هو تخويف لا أساس له ؛ وخطر لن يتحقق .

وإذن كيف ستكون العلاقة بين دول الغرب والدول الإسلامية .. ؟

يحذر المفكر الألمانى من عدم وجود استراتيجية مشتركة لدول الغرب لمساعدة الدول الإسلامية على التغلب على مشاكل الفقر وتزايد السكان ، والنظام الاقتصادى العالمى قائم على إنتاج التخلف .

ويحذر أيضا من أن السياسة الرسمية المعلنة لدول أوربا تستنكر نظريات العداء مع الإسلام ، ولكن التعامل الفعلى والمناخ السائد فى أوربا يؤكدان الإيمان بنظرية « صراع الحضارات » ، وعندما يجرى الحوار فى المانيا عن المنطقة المتأزمة فى الجنوب يتبع ذلك دائما حديث عن التدخل العسكرى الخارجى للجيش الألمانى (!) وليس عن إزالة أسباب الأزمات وإعادة النظر فى العلاقات مع الدول العربية ، وهناك دلائل كثيرة تشير إلى عودة العلاقة بين أوربا ودول الجنوب إلى علاقة سيد ومسود ، وفى أسوأ الأحوال قد تؤدى إلى عزل أوربا فى حصن محاط بالأسوار لحمايتها من جيوش النازحين من الضفة الأخرى للبحر المتوسط ، وفى مثل هذا الموقف من الجنوب يتحول « العدو » والصور التى تتكون لدى الرأى العام عنه إلى أدوات لا غنى عنها بالنسبة للسياسة .

الحل أمام الغرب – كما يقول المفكر الألمانى – هو أن يساعد الغرب الدول الإسلامية على حل مشاكلها الاقتصادية الناتجة عن الاحتلال الغربى ،

والسماح لهذه الدول الإسلامية بمكان فى النظام العالمى الجديد ، وعدم الاستمرار فى سياسة طمس الأسباب الحقيقية للنزاع العربى الإسرائيلى ، لابد أن يشعر العرب والفلسطينيون بعدالة الحلول التى يقدمها الغرب ، وبخاصة مدينة القدس ، ويجب أن يشعر الفلسطينيون فى الأرض المحتلة بتحسن ظروفهم الاقتصادية والاجتماعية ومن الممكن أن يكون ذلك بوضع خطة للمنطقة على نحو مشروع مارشال تشارك فيه دول أوربا لإنعاش المنطقة .

أهم من ذلك أن يتعلم الغرب (أمريكا وأوربا) احترام استقلالية أصحاب الشأن فى المنطقة ، دون إجبارهم على قبول النموذج الغربى .

وأخيرا على أمريكا ودول أوربا وضع حد للدعاية المنتشرة التى تحمل العداء للإسلام وتتحدث عن صراع الحضارات .. وبدلا من ذلك تعويد الغربيين على احترام الدين الإسلامى والثقافة السائدة فى المنطقة ، وإقامة الحوار والتعاون على أساس المساواة بدل المواجهة ..

لأن الخطر الذى يهدد الغرب لا يأتى من الإسلام ، ولكن يأتى من فشل السياسة الغربية فى التعامل مع دول الجنوب ..

وقد أصاب المفكر الألمانى كبد الحقيقة ..

القسم الثالث

رسالة الأزهر ومسئوليته

- الأزهر وحوار آن أوانه .

الأزهر وحوار آن أوانه

فى عام ١٩٨٣ احتفلت مصر بالعيد الألفى للأزهر وشاركتها البلاد الإسلامية .. وكان إجماع المشاركين فى هذا الاحتفال أن مصر اكتسبت مكانة خاصة من وجود الأزهر فيها ، وأنها ظلت فى موقع الزعامة الدينية بفضل الأزهر وعلمائه .

وكل من يتحدث عن الأزهر يعترف بأنه هو حامى حمى الإسلام ، والمدافع عن القيم والمبادئ الإسلامية ، والمحافظ على لغة القرآن الكريم حتى فى العصور التى ساد فيها التخلف ، أو سيطر فيها الاستعمار على عالمنا العربى والإسلامى . ولا أحد ينسى كيف حاول السلطان سليم تخريب الأزهر بإبعاد علمائه والاستيلاء على كتبهم ومخطوطاتهم ، وكيف عمل اللورد كرومر طاغية الاستعمار البريطانى على القضاء على الأزهر بإبعاد خريجيه عن الوظائف العامة أو بضم الأزهر إلى وزارة المعارف ، ولم ينجح حكام مصر من أسرة محمد على فى هدم الأزهر بمحاربة رواد الإصلاح من رجاله ، حتى تخلف الأزهر وعاش فترة من الزمن يعانى من الجمود والتشدد وعدم القدرة على مسايرة الزمن .. وفى كل هذه المحاولات كان الهدف إبعاد الأزهر عن موقع القيادة والتأثير ، وتحويل أكبر قلعة للإسلام إلى قلعة للجمود والتخلف لكى يبقى الإسلام والمسلمون بعيدا عن دائرة التأثير وعن التقدم الحضارى .

ولاشك أن قانون تطوير الأزهر الذى صدر عام ١٩٦١ لم تكن له أهداف واضحة ، فقد قيل إن الهدف هو إنشاء أزهر جديد يجمع فيه الخريجون بين العلوم المدنية والعلوم الشرعية . فيكون رجل الدين طبيبا أو مهندسا أو عالم كيمياء فى نفس الوقت ، ولكن الذى حدث غير ذلك ، فقد بقيت الكليات

الأزهرية التقليدية : أصول الدين ، والشريعة ، واللغة العربية ، وأضيفت كليات التجارة والعلوم والطب والهندسة والصيدلة وغيرها ، وحدث انفصال بين العالمين ، بحيث تأثرت الكليات الأزهرية التقليدية ، فانخفض مستوى التعليم فيها ومستوى خريجيها وأصبحنا نجد الآن من لا يحفظ القرآن منهم ، ومن يخطئ فى قواعد اللغة العربية ومن يجهل المراجع الأساسية الصحيحة ويسهل التأثير عليه والخلط بين المراجع المعتمدة والكتب القديمة قليلة الأهمية أو المشكوك فى جديتها وجدواها . وفى نفس الوقت فإن خريجى الكليات العملية لا يختلفون عن غيرهم من خريجى الكليات المماثلة ، وفى النهاية لم يتحقق الهدف الذي حدث من أجله الانقلاب الكبير فى هذا الصرح الإسلامى الذى لا نستطيع أن نعوضه اذا فرطنا فيه أو فقدناه لا قدر الله .

* * *

ولا نستطيع أن نقول مع بعض رجال الأزهر الساخطين على هذا التطوير إنه لم يبق من الأزهر الآن إلا الاسم مع كثرة المبانى والكليات ، ولكن نقول مع المنصفين من رجال الأزهر إن إلغاء شرط حفظ القرآن لجميع طلبة الأزهر والسماح بقبول الطلبة الذين رفضتهم مدارس التعليم العام لم يكن واردا فى قانون تطوير الأزهر ولكن مثل هذه القرارات اتخذها شيوخ الأزهر أنفسهم ، وكانت النتيجة – كما أعلنها عميد كلية الدعوة الإسلامية السابق الدكتور عبد الغفار عزيز بنفسه تخريج ائمة ووعاظ يملأون كثيرا من المساجد يستفتيهم الناس ويفتونهم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .. وهذه هى كلمات عميد الكلية التى تخرج هؤلاء الدعاة .. ! وأضاف إليها فى مقال كتبه فى الأهرام فى ٨٣/٣/١٥ أنه بسبب الكثيرين من هؤلاء الخريجين انحرف ألوف الشباب وضلوا الطريق الدينى الصحيح ، وبسبب الكثيرين منهم أيضا تجرأ كثير من شبابنا فنعتوا شيوخ الأزهر بما لا يليق ، ولا نغفل

سببا آخر يرجع إلى عصر مضى كان فيه بعض المسئولين يجاهرون بإهانة الأزهر وعلمائه ، كما كان إلغاء هيئة كبار العلماء ، وما صاحب ذلك من تشويه لصورة قضاة المحاكم الشرعية وهم أصلا من علماء الأزهر .

ويضيف عميد كلية الدعوة السابق أن البعض يسمي ما جرى بأنه كان مذبحة للأزهر وعلمائه ، والحقيقة أن ما جرى أثر فى الأزهر ولكنه لم يهدم هذا الصرح الشامخ ومازال الأزهر يحظى بالاحترام فى العالم الإسلامى كله ، بعد أن أثبتت الأيام على مدى أكثر من ألف عام أن الأزهر هو حصن الإسلام والمسلمين ، وأن علماءه هم درع الإسلام ، وأن الوقت قد حان لوضع تصور لرسالة الأزهر ودوره وكيفية إعادته إلى سابق عهده يشارك فى حماية الإسلام من الهجمة التى يتعرض لها ، ويبين صورة الإسلام النقية على حقيقتها فى مواجهة حملات التشويه الدءوبة فى كل دول الغرب .

وأعتقد أن التصور الجديد لدور الأزهر ورسالته لابد أن يضع فى اعتباره أن جامعة الأزهر الآن أصبحت أكبر جامعة فى العالم من حيث عدد الكليات وعدد الطلبة ، وأصبح من الصعب إدارة كل هذه الكليات التى تزيد على مائة كلية متفرقة فى كل أنحاء مصر ، واستحالة متابعة العمل فيها وتوفير احتياجاتها .. لقد أصبحت جامعة الأزهر كمدينة تحولت إلى دولة ، ومازالت تعامل على أنها مدينة .. ! ومن جانب آخر يجب أن نعترف بأن كليات الأزهر التقليدية المتخصصة فى العلوم الشرعية تخلفت وأوشكت أن تضيع فى هذا الزحام ، مع أن الكليات العملية لها نظائر فى كل الجامعات ، وليس للكليات الشرعية نظير أو بديل وهى التى تحتاج إلى تحسين نوعية خريجيها لمواجهة الاحتياج المتزايد للدعاة الأكفاء لمصر ولكل الدول الإسلامية .

* * *

وفى تصورى أن لهذه المعادلة الصعبة حلا ، والحل هو أن نعترف بما هو قائم الآن فعلا ونعطيه الصيغة المناسبة وما هو حادث الآن هو أن جامعة الأزهر لم تعد جامعة واحدة بل هى بالفعل عدة جامعات إسلامية تعيش فى كنف الأزهر وتحت مظلته . ولماذا لا نعترف بالحقيقة ونرحب بها مادامت هى الأقرب إلى تحقيق أهدافنا ؟ . والحقيقة هى أن لدينا الآن نواة لجامعة أزهرية تقليدية تضم كليات الشريعة وأصول الدين واللغة العربية وهى كليات كثيرة منتشرة فى القاهرة والمحافظات ، ونواة ثانية لجامعة إسلامية تضم كليات الطب والزراعة والهندسة والتجارة وغيرها ، ونواة ثالثة لجامعة إسلامية للفتيات .. وهكذا ..

إذن فلقد كبر الأزهر بفضل الله واتسعت آفاقه ، ولم ننتبه بعد إلى حقيقة هذا التطور الكبير الذى حدث . لقد أصبح الأزهر قلعة مترامية الأطراف ، ولم يعد جامعة واحدة بل عدة جامعات نتصور ونحن نخنقها فى جامعة واحدة أننا نحميها ونشرفها بالانتماء إلى الأزهر وحمل اسمه .. أليس الأفضل أن يكون الأزهر – فى تصور جديد يستجيب للواقع – هرما كبيرا ،فى قمته شيخ الأزهر بمكانته الدينية الكبرى ، ويليه مجمع البحوث الإسلامية ، أكبر هيئة علمية إسلامية تحتاج منا إلى مساندة فتقوم بدورها فى دراسة القضايا الجديدة التى يطرحها التطور العلمى والاجتماعى والاقتصادى والتشريعى ومن الضرورى أن نناقشها فى ضوء أحكام الشريعة ، والمفروض أن يمثل هذا المجمع فى قمم التخطيط للتعليم والإعلام والتشريع وتكون له فى هذه الشئون الكلمة الأخيرة . ثم بعد ذلك تأتى جامعات الأزهر المتعددة ولكل جامعة مدير يتفرغ لها ويسهل عليه متابعة تجديد وتطوير واستكمال ما تحتاج إليه وبهذا التطور نحل المشكلة التى تطل برأسها علينا بين حين وحين ، هل نعود بالأزهر كما كان قبل قانون التطوير أو نمضى بتجربة التطور بما فيها من

وسلبيات إلى مداها ؟ بهذا الحل يمضى الأزهر إلى مستقبله محققا لنفسه وللمسلمين كل ما يطوف بالآمال .

ولكى نضع هذا التصور فى الإطار الصحيح لابد أن نضع فى اعتبارنا هذه الملاحظات :

أولا : أننا إذا حددنا دور الأزهر على أنه مجرد مدرسة لتعليم الإسلام وإعداد علمائه فإننا نضيّق نطاق نشاطه ، وفى تصورى أن الأزهر أكبر من ذلك بكثير فهو صرح وقلعة للإسلام وإشعاعه لابد أن يمتد إلى كل ميدان .. من التعليم إلى الدعوة إلى تجديد موقف الإسلام من كل قضية جديدة يطرحها التطور إلى الوصول إلى غابات افريقيا وجزر آسيا حاملا كلمة الله وشريعته .

ثانيا : يترتب على هذا التصور أن يكون الأزهر هو دار الاجتهاد فى هذا العصر بعد أن اغلق باب الاجتهاد فى الفقه الإسلامى منذ قرون ولم يعد أمام المسلمين الآن إلا مذاهب اكتملت في زمان غير زمانهم . ومع تطور الحياة أصبح مطروحا على الفقه الإسلامى أسئلة لم يفكر فيها أصحاب المذاهب الكبرى لأنها لم تكن قائمة فى زمانهم . وطبيعى أن يظل التطور وتظل الاسئلة الجديدة فى وقت لم نعد فيه قادرين على الاطمئنان إلى فقيه مجتهد تتوافر فيه شروط صاحب المذهب والاجتهاد .. ولنقل بصراحة إن عصر الاجتهاد الفردى انتهى منذ قرون ويبقى أمامنا أن نلجأ إلى الاجتهاد الجماعى لنعوض هذا النقص . وفى الأزهر مجمع للبحوث الإسلامية وهو جهة علمية متخصصة تضم أكبر رجال الفقه الإسلامى فى مصر والعالم الاسلامى وله مؤتمرات تدور فيها مناقشات حول الموضوعات الجديدة ، وطبيعى أن يطول الخلاف فيها ولكن من الضرورى أن تحسم حالة الخلاف وتنتهى إلى قرار من أهل الحل والعقد هؤلاء ، وهم يملكون أدوات القياس والاستنباط . وهذا القرار ليس قرارا من سلطة لكنه أقرب إلى أن يكون اتفاقا فى الرأى ومسموح

بالطبع بمسافة للخلاف بعده ولكنه الخلاف المحمود الذى أثرى الفقه الإسلامى بمذاهبه المتعددة وإلا كان الإسلام مذهبا واحدًا لكن أهمية الحسم هنا هى مساعدة المسلم العادى على الخروج من حالة الحيرة التى يعيشها الآن . ويكفى أن نتصور مدى عذاب الضمير الذى يعانيه إنسان متمسك بدينه وحريص على إرضاء ربه حين يستجيب لنداء أحد رجال الدين بأن فوائد البنوك حلال ثم يجد واحدا آخر لا يزيد ولا يقل عن الأول يؤكد له أنها حرام . هل يمكن أن نتركه نهبا للشعور بأن مطعمه حرام وملبسه حرام وأنه يغذى أولاده بالحرام وجهنم تنتظره فى النهاية ؟ ..أو نحسم له الأمر بقرار من مجمع البحوث الإسلامية يهتدى به فى سلوكه مطمئن الضمير اذا أراد أن يلتزم بالشريعة فى كل أمور حياته ؟ المشكلة أن مؤتمرات مجمع البحوث الإسلامية توقفت منذ سنوات ودور المجمع تضاءل إلى حد أننا لم نعد نشعر بوجوده ..

ثالثا : ويتصل بذلك أيضا أن نحدد موقفنا هل الإسلام عبادات فقط أو أنه عبادات ومعاملات ؟ فإذا قلنا إن الإسلام عبادات ومعاملات – وهو كذلك بالفعل – واذا قلنا إن الأزهر هو أعلى مؤسسة إسلامية – وهو كذلك بالفعل ؛ فإن هذا يستلزم بالضرورة أن يكون للأزهر كلمة واضحة ومحددة ومسموعة فى كل قضية من القضايا التى تشغل تفكير الناس سواء كانت قضايا أساسية أو فرعية . لأن المسألة تتعلق بتنظيم الحياة وفقا لشريعة الله . ولا نستطيع أن نقول إن هذه القضية أو تلك لا شأن للإسلام فيها . وقد أمرنا الله أن نجعل فئة منا تتفقه فى الدين وتتخصص فى استنباط الأحكام وفقا لضوابط محددة فى علم أصول الفقه .

رابعا : أن الفراغ فى مجال الدعوة والتعريف بحقائق الإسلام مع الفراغ فى مجال الفتوى هما المجال الطبيعى لنمو قيادات روحية من خارج الأزهر

أكثر تأثيرا فى الشباب من شيوخه وليس وجود قيادات دينية من خارج الأزهر هو المشكلة ولكن المشكلة هى أن هذه القيادات غير مؤهلة بحكم الثقافة والسن للقيام بهذا الدور . ولهذا تلجأ إلى الفكر الغريب الذى نشأ فى أحضان تيارات سياسية رافضة اكتست الثوب الدينى وملأت كتبا فى الفقه والتفسير والحديث . ولم يبذل الأزهر جهدا كافيا فى تنقية كتب التراث مما فى بعضها من أفكار متطرفة . ولم يقم بدوره فى التعريف بالمذاهب المنحرفة ، – وهى ليست قليلة – ليعرف الشباب الإسلام على حقيقته كما جاء به الكتاب والسنة .. وهذه أيضا قضية تحتاج إلى القرار والحسم .

إن الأزهر ليس كالفاتيكان وهذه قضية محسومة فى الفكر الإسلامى . لكن يجب أن يقوم الأزهر ويأخذ مكانه فى الصدارة ويعيد النظر فى قانونه ونظامه وأسلوب عمله ويملأ الفراغ الذى نشأ عن سباته وهو فراغ كبير لا يملؤه إلا الأزهر ..

خامسا : لا أحد يستطيع أن يقلل من دور الأزهر ومكانته فى العالم الإسلامى كله على امتداد القارات الخمس ، فقد كان – ولايزال – قلعة الإسلام وملاذ المسلمين ،ولهذا استقر في وعينا أن الأزهر ليس لمصر وحدها ، بل هو للمسلمين جميعا . وهذا يعنى أن يفتح أبوابه أكثر لاستيعاب آلاف جديدة من الشباب المسلم من أفريقيا وآسيا بالذات الذى يعيش على حلم الانتماء إلى الأزهر .

واذا كانت الامكانات المحدودة والاعتمادات القليلة سببا أمام أى هيئة فلا يمكن أن نسمح بأن تكون عائقا نتيجته تقلص دور الأزهر وتأثيره . وأيضا لابد أن نلبى حاجات المسلمين بإيفاد علماء الأزهر وشيوخه إلى كل مكان . وإذا كانت حجة الخوف من تفريغ الكفايات والتخصصات تصلح فى أى مكان فلا يمكن أن تكون صالحة أو مقبولة بالنسبة للأزهرذلك لأن :

أولا : الأزهر قادر على بناء مدينة جديدة للبعوث الإسلامية تستوعب آلافا جديدة من أبناء الدول الإسلامية . قادر أيضا على تخريج مئات ومئات من الأساتذة والشيوخ والعلماء بدلا من أن ننظر إلى المستقبل بخوف كلما رأينا أعداد الجالسين على قمة العلم والفتيا يتناقصون .

ثانيا : أن الأزهر لا يمكن أن ينعزل عما يحدث داخل المجتمع المصرى .

فهناك فئة تعيش على قضية واحدة هى أن أجهزة الاعلام – وبخاصة التليفزيون – منفصلة عن القيم الإسلامية . وكانت هناك بادرة طيبة منذ سنوات بتشكيل لجنة مشتركة من الأزهر والتليفزيون لمراجعة البرامج وتصحيح المسار ، لكن هذه اللجنة توقفت ، وكان يجب أن تستمر وأن يشعر الناس بعملها ليطمئنوا إلى أن الأزهر – الأمين على الدعوة الإسلامية – يمارس عمله كاملا ويقوم بدوره بشكل مؤثر وفعال ودون عقبات .

ثالثا : أن الكلام الكثير الذى قيل عن قضية الشباب تبلور فى النهاية فى نقاط محددة يعنينا منها أن الشباب حين لا يجد من يقدم له المفاهيم الصحيحة المعتدلة يصبح نهبا للمفاهيم المتطرفة . وتقديم المفاهيم الصحيحة والدعوة إليها والاقناع بها مسئولية الأزهر أولا وأخيرا .

ولا يكفينا أن يعلن الأزهر أن القاعدة الواسعة من الشباب بخير ، أو أن يطلب من وعاظه أن يتحدثوا فى المساجد عن مدى خروج التطرف عن المعنى السليم للدين .

ولكننا نحتاج إلى خطة محددة مدروسة لتربية الشباب من خلال حوار واسع ومستمر فى المدرسة ،والنادى والاذاعة والتليفزيون تناسب كل مرحلة من مراحل العمر ، كما نحتاج إلى سلسلة كتب ميسرة تعلم الشباب مبادئ التفسير والحديث والفقه وأفكار الفرق الإسلامية وتاريخ الإسلام السياسى بما فيه من نشأة اتجاهات التطرف والعنف والهجرة والتكفير .. الخ . وهذا

جهد يحتاج إلى النفس الطويل ولا تكفى فيه كلمة هنا أو خطبة هناك . ومع كل هذا لابد أن يكون للأزهر وجود – وكلمة – فى كل موقع من المواقع المسئولة عن الشباب . لأن كل فراغ يتركه الأزهر يملؤه غيره من أصحاب الفكر غير الناضج أو من أصحاب الهوى .

رابعا : إن عنصرا من عناصر القلق داخل المجتمع المصرى الآن يرجع إلى أن هذا المجتمع يمر بمرحلة مد دينى واضحة ، تزداد فيها رقعة المتمسكين بدينهم والراغبين فى – التعامل وفقا لأحكامه – وهم يواجهون كل لحظة حيرة أمام أنواع من التعامل لم يحسم الأزهر رأيه فيها .. هل هى حلال أو حرام ؟ شهادات الاستثمار .فوائد البنوك وصناديق توفير البريد . التأمين على الحياة والممتلكات . البيع بالأجل أو بالتقسيط مقابل زيادة فى السعر . تحديد النسل ..

مثل هذه المسائل شديدة الارتباط بحياة الناس ،فكيف تترك لسنوات بعد سنوات وهى معلقة ؟ والناس فيها يتأرجحون بين الآراء والاجتهادات الفردية التى يعلنها أصحابها وهم مختلفون فيما بينهم أشد الاختلاف . كيف ندعو الناس إلى تحديد النسل ولم يحسم لنا الأزهر قضية الحلال والحرام فيها ؟ . . وكيف نشجعهم على الادخار والأزهر لم يحسم لهم هل الفوائد حلال أم حرام ؟ .. هذا التناقض بين الفعل والفكر .. ألا يدعو إلى القلق ؟ واستمرار هذا القلق داخل المجتمع ، أليس هو التربة الصالحة لكل من يريد أن يتولى القيادة الفكرية الدينية حتى ولو كان طالبا فى الجامعة أو مهندسا حديث التخرج ؟

لا أحد يطلب أن يصدر القرار فى هذه المسائل غدا . ولكن على الأقل لابد أن يدعو الأزهر إلى مؤتمر لمجمع البحوث الإسلامية تسبقه دراسات

عميقة فقهية واقتصادية واجتماعية وتعلن على الناس مناقشاته والرأى الذى ينتهى إليه .

خامسا : أن موضوع تقنين الشريعة الإسلامية مطلب عام ، وواجب دستورى ، وللحق فإن الأزهر يعمل على الوصول إليه بما يتفق مع أهميته وخطورته ، لكن ما فعله الأزهر وما يفعله ليس معروفا للناس .. فكم من الناس يعرف أن الأزهر شكل لجانا لإعداد الدراسات الفقهية والتشريعية التى تمثل الأساس الذى لا غنى عنه لعملية كبرى مثل تغيير النظام القانونى كله .. وكم منهم من يعرف أن هناك مشروعات قوانين أوشكت دراساتها الأخيرة على الانتهاء .

والذين يتهمون الأزهر بالتقصير فى هذا المجال هم ضحايا الجهل بما يجرى فى ردهات الأزهر وقاعاته .. ومن حقهم أن يعلموا . ولعله من المفيد أيضا أن نفتح المجال أمام كل من يقدر على العطاء ليشارك فى هذا العمل الكبير .

القضايا المعلقة أمام الأزهر كثيرة .. وخطيرة .. لكن الأزهر — بتاريخه ورجاله — قادر على التصدى لها وهذا يفرض على رجاله مرحلة من العمل الشاق .. ولا نقول إن الأزهر يحتاج إلى استعادة شبابه — كما يقول البعض — لأن الأزهر لايزال شابا رغم مرور الألف عام ، وستبقى حيويته وخصوبته ما بقيت كلمة الله هى العليا .

* * *

ولقد جاءت زيارة الإمام الأكبر شيخ الأزهر إلى باكستان والهند فى أكتوبر ١٩٩٦ فى وقتها المناسب وكانت نتائجها الإيجابية أكبر مما كان متوقعا .. كان المسلمون فى البلدين يتطلعون منذ سنوات إلى مثل هذه الزيارة

لكى تجدد فيهم الشعور بالارتباط الروحى بمصر ، وبالأزهر ، ولكى تجيب عن أسئلة جديدة تشغلهم ويلتمسون من الأزهر الشريف أن يقدم لهم الاجابات الصحيحة عنها ..

ولقد أتيح لى أن أتابع الزيارتين وأعايش المسلمين فى البلدين ، فرأيت كيف يحتل الأزهر الشريف مكانة سامية فى قلوبهم لا تصل إليها أية هيئة أو مؤسسة أخرى .. ويشارك فى هذا الشعور المسئولون الرسميون على أعلى مستوى ، والمواطنون العاديون فى الأسواق والقرى والمناطق النائية .

ونتيجة لهذه الزيارة فإن مصر يجب أن تعيد حساباتها لكى تزيد الاهتمام بالدائرة الإسلامية التى تحتل فيها موقع الصدارة والتأثير ، وتقدم إلى المسلمين فى مختلف أنحاء العالم الدعم الروحى والعلمى الذى يحتاجون إليه .. فالأزهر الشريف ليس مؤسسة دينية مصرية لخدمة المصريين وحدهم .. ولكنه – فى حجمه الحقيقى – أكبر من ذلك .. ورسالته تتسع لتشمل العالم كله .. وهو مسئول عن رعاية المسلمين فى كل مكان .. أغلبية وأقلية .. ورعاية أبنائهم .. وتقديم التوجيه والمعرفة بانتظام واستمرار .. ليكون مع المسلمين فى كل أحوالهم .

وهناك تطورات فى العالم الإسلامى تقتضى استدعاء الأزهر ليكون حاضرا فى كل مكان يعيش فيه المسلمون .

أولا : هناك تطورات مادية وحضارية ومعطيات جديدة لم يعرفها المسلمون من قبل ، ولم تطرح فى ساحة الفكر أو الفقه الإسلامى ، واختلف حولها المسلمون بين موقف الرفض حتى ظهر الإسلام – بالقياس إليهم – كأنه ضد الحضارة والتطور ورافض لتقدم البشرية وعاجز عن ملاحقة التقدم العلمى والتكنولوجى .. خاصة مع ظهور جماعات تدعو إلى استنكار الحضارة الحديثة والانسحاب من الحياة المعاصرة والهجرة إلى الكهوف وإلى

التاريخ .. وإدارة الظهر للحاضر والمستقبل . ولابد أن يعمل الأزهر بقوة كى يعدّ المسلمين للحياة فى عصر تتلاحق فيه التطورات ، ويدفعهم إلى المشاركة فى قيادة هذا العالم ، والنهوض من حالة الاستسلام والرفض إلى حالة العمل والمشاركة وقبول التحديات كما كان أسلافهم فى عصور الازدهار .

ثانيا : وهناك غزو منظم يجتاح الإسلام - كعقيدة وشريعة - كما يجتاح المسلمين ، يشوه حقائق الإسلام ، ويفسد عقول المسلمين ، ويسد عليهم منافذ الحياة بأن يجعل كل شيء حراما ، ويفسد حياتهم بأن يجعل كل واحد منهم يسارع باتهام الآخر بالكفر ، هذه الغزوة ليست فى مصر وحدها ، ولكنها فى كل العالم الإسلامى ، وقد لمسناها فى باكستان والهند ، والشكوى منها مريرة ، والعواقب وخيمة ، وإذا لم يتقدم الأزهر لقيادة العالم الإسلامى فى معركة ضد التطرف والإرهاب ، ونشر مفاهيم ومبادئ الإسلام الصحيح ، فمن الذى يستطيع أن يقوم بهذا الدور لإنقاذ الإسلام والمسلمين ؟ ..

ثالثا : وهناك خطر اجتماعى يهدد مجتمعات المسلمين فى كل مكان ، يتمثل فى أفكار مدسوسة تقلل من شأن المرأة ، وتحرمها من المساواة فى الحقوق والواجبات الاجتماعية والقانونية والشرعية ، وتجعل كثيرين من قادة هذا التيار الذى يستشرى خطره* لا يرون وسيلة للتقرب إلى الله إلا بالضغط على المرأة وحرمانها من أبسط حقوق الانسان . حتى حق التعليم .. والعمل .. واختيار الزوج .. ولذلك كان جهد الإمام الأكبر كبيرا فى توضيح حقيقة مكانة المرأة فى الإسلام وحقوقها التى تكفلها الشريعة .. خاصة بعد أن وصلت جماعة طالبان إلى العاصمة فى أفغانستان وكان أول ما فعلوه إغلاق مدارس البنات وحرمان المرأة من العمل وفرض ملابس غريبة للمرأة تجعلها تبدو كالعبيد فى مجتمعات القرون الوسطى ، مما جعل المفكرين ورجال

الاعلام فى العالم يتساءلون هل هذا هو الاسلام ؟ .. وهل سيكون هذا حال العالم إذا طبقت فيه الشريعة الإسلامية ؟ ولذلك كانت جولة الإمام الأكبر ضرورية لتوضيح مبادئ الاسلام : العدل ..الحرية ..المساواة .. الكرامة الانسانية .. الخ فى مواجهة هذه الردة الدينية التى تكاد تعصف بالعالم الإسلامى كله .

رابعا : وهناك قضية نشر اللغة العربية والتعليم الدينى الإسلامى ،وفقا لمناهج الأزهر ، باعتباره القدوة فى هذا المجال .. وكان مطلب المسئولين والقيادات فى باكستان والهند أن يضاعف الأزهر عدد مبعوثيه فى البلدين لكى يتسع دوره وتأثيره ويواجه الاحتياج الشديد له ، خاصة أن باكستان مهتمة فى هذه المرحلة بتعليم اللغة العربية ، وهناك مدارس وجامعات إسلامية ، كما أن المسئولين فيها ينظرون بالتقدير للخطوة التى أقدم عليها الأزهر بإنشاء معهد ابتدائى لتعليم اللغة العربية والدين مع بقية العلوم ، وفقا لمنهج المعاهد الأزهرية ، وهم يطلبون المزيد .. ومهما يقل عن الاعتمادات والميزانيات والامكانات فإن العائد من هذا العمل أكبر وأهم من كثير من الأنشطة الأخرى التى توجه إليها الاعتمادات .. ولذلك أعتقد أنه آن الأوان لتضع الدولة خطة شاملة لمضاعفة أعداد مبعوثى الأزهر إلى الدول الإسلامية ومضاعفة عدد المنح التى يقدمها الأزهر لأبناء هذه الدول للتعليم فى معاهده وجامعته .. ولو أن المسئولين كانوا معنا فى هذه الرحلة واستمعوا إلى أبناء الهند وباكستان الذين لا يعرفون العربية ، وهم يرتلون القرآن ترتيلا جميلا بلسان عربى سليم ، ويتشوقون إلى دراسة اللغة العربية ليتابعوا فهم هذه الآيات بلغتها الأصلية ، ولو أنهم استمعوا إلى رئيس وزراء باكستان والهند وهما يتحدثان عن الأزهر باحترام شديد يرفعه إلى أعلى درجة لأدركوا أن رسالة مصر ، ودورها لها شقان : شق سياسى وحضارى فى قيادتها للعالم العربى وتحمل مسئولية اقرار السلام فى المنطقة ، وشق آخر يتمثل فى القيادة الروحية

للعالم الإسلامى لا يمكن أن يقوم به إلا الأزهر الشريف ، برجاله الذين يمثلون الحراس الساهرين على سلامة العقيدة الإسلامية وحمايتها من كل عدوان أو انحراف ، ولولا الأزهر لما ظل الإسلام - كما هو الآن - نقيا سليما كما أراده الله تعالى ..

الأزهر هو خط الدفاع الأول عن الإسلام .. وشيوخه هم كتائب الدفاع عن الإسلام ضد أعدائه - وهم كثيرون - وكشف ما يدسه أعداء الإسلام من أفكار ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب .

خامسا : ثم هناك قضية استعادة قدرة الأزهر على توجيه الخطاب الدينى السليم بلغة يفهمها المسلمون فى كل أنحاء العالم .. والمسلمون فى العالم يتحدثون بلغات متعددة .. والمشكلة أننا نحتاج إلى أعداد كبيرة من رجال الدين الإسلامى لديهم التعمق والاستيعاب الكامل لكل أحكام العقيدة والشريعة الإسلامية ولديهم فى نفس الوقت القدرة على عرضها وشرحها والدخول فى حوارات مع المفكرين والجاهلين بلغات مختلفة .. ولقد أدركت فى هذه الرحلة أن الأزهر لابد أن يدخل اللغات الأجنبية كمادة إجبارية فى جميع سنوات الدراسة . لأننا قد نجد من يجيد اللغات الأجنبية ولكنه لن يستطيع التعبير عن الأحكام الفقهيه وترجمة المعانى الدقيقة فى القرآن والسنة .. لا يقدر على ذلك إلا أبناء الأزهر وحدهم ..

باختصار إن رحلتى مع فضيلة الإمام إلى باكستان والهند جعلتنى ألمس عن قرب إلى أى مدى نحتاج الآن إلى وقفة لتجديد الأزهر ودعمه وتأهيله للتوسع فى أداء رسالته العالمية .

وفى نهاية جولة الإمام الأكبر الدكتور محمد سيد طنطاوى فى المانيا أقيمت ندوة جمعت أكبر المستشرقين الألمان وأساتذة اللاهوت وممثلى الكنائس ، وكان موضوع الندوة « أوروبا والعالم الإسلامى » وكان واضحا

أن الهدف الأساسى منها هو طرح أوجه الخلاف والتخوف بين أوروبا والإسلام كما يراها الألمان ، ليعرفوا موقف الأزهر منها ، وردود فضيلة الإمام الأكبر عليها ، ربما لكى يحسبوا بعد ذلك حسابهم ، هل الحوار والتعاون بين أوروبا والإسلام أمر ممكن ، أم أن الصراع بينهما محتوم كما يعلن صمويل هنتجتون ، وفوكو ياما وغيرهما من مفكرى وفلاسفة الغرب ؟ .

وكانت القضية الأولى هى « الحوار » هل الإسلام يقبل الحوار مع من يختلف معه ، أم يعتبر « الآخرين » كافرين ويحرم التعامل معهم ؟ وهذه الفكرة شائعة فى الإعلام الغربى .. وهل الأزهر باعتباره أكبر مؤسسة إسلامية مستعد للاشتراك فى الحوار بين الأديان وبين الحضارات أو أنه سيعتبر ذلك أمرا محرما شرعا ؟ وفقا للفكرة السائدة فى الغرب من أن الأزهر مؤسسة جامدة ، وسلفية ، ورافضة للتطور ، ولمد اليد للآخرين .. وهل لدى الإسلام ما يقدمه فى هذا الحوار كدين .. وكحضارة وثقافة .. أم أنه مجرد عقيدة يدين بها مليار إنسان ولا تملك الحجة أو المنطق أو الفكر القادر على الصمود فى حلقة الحوار والمواجهة .. ؟

كانت هناك أسئلة كثيرة ، وأوراق عمل ، كلها تدور حول هذه التساؤلات وتضيف إليها بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر ، ولكن موقف الإمام الأكبر من هذه القضية كان واضحا فى حديثه ويتلخص فيما يلى :

أولا : أن الأزهر باعتباره أقدم وأكبر مؤسسة إسلامية ، وتتبعه جامعة الأزهر ومراكز بحوث ، لديه حصيلة من الدراسات والأفكار يستطيع أن يقدمها ويطرح فيها الرؤية الإسلامية للعالم ، ولحقيقة الإيمان ولعلاقة المسلم بغيره من غير المسلمين ، سواء فى الدول الإسلامية حيث الأغلبية المسلمة والأقلية غير المسلمة ، أو فى دول العالم غير الإسلامية حيث المسلمون هم الأقلية .

ثانيا : أن الأزهر كمؤسسة رسالتها شرح حقيقة الإسلام للمسلمين ولغير المسلمين ، ليست مهمته تحويل غير المسلمين إلى مسلمين ، فهذا الهدف يمثل سذاجة فى الفكر لأن تحويل شخص أو ألف شخص عن دياناتهم لن يزيد المسلمين و الإسلام ولن ينقص الديانات الأخرى ، وكذلك فإن الضغط على إناس وإكراههم على اعتناق دين معين لا يؤدى إلى وجود مؤمنين صادقين ومخلصين لهذا الدين ، ولكنه يؤدى إلى وجود منافقين يعلنون الإسلام ويضمرون العداء له ، وفى هذا خطر على الإسلام والمسلمين .. ولذلك فإن الإيمان اذا لم يكن نابعا من القلب والضمير وعلى أساس الاختيار الحر والمعرفة الكاملة فلا قيمة له ولا يستحق السعى إليه .

ثالثا : أن الأزهر كمؤسسة إسلامية دورها الحفاظ على نقاء شريعة الإسلام والدفاع عنها فى مواجهة اعدائها والمسيئين إليها ، يدرك أن هؤلاء فريقان : فريق من الغربيين درسوا ، الإسلام . بعضهم درسه بهدف اختيار المداخل للهجوم عليه ، فهؤلاء لا فائدة من الحوار معهم ، لأنهم يريدون دائما أن يثبتوا لمن يستعملهم أنهم يؤدون واجبهم فى الاساءة إلى الإسلام أداء حسنا ، وفريق حسن النية درس الإسلام بعقلية غريبة عن الجذور والتراث واللغة التى لا يمكن فهم الإسلام دون معرفتها معرفة جيدة ..هؤلاء يقعون فى أخطاء وأوهام ويفهمون بعض الأمور على غير حقيقتها .. وهؤلاء يفيد الحوار معهم ، ليس بقصد تحويلهم إلى مسلمين ، ولكن بقصد مساعدتهم على معرفة حقائق الإسلام كما هى دون خلط أو سوء فهم .

رابعا : أن الإسلام دين واضح .. ليست فيه أسرار يختص بها بعض الناس دون سائر الناس ، وليست فيه طلاسم يصعب فهمها ، وليست فيه أسرار أعطاها الله لبعض الصفوة وحرم الآخرين منها ، ولكن كل مخلص ، غير متحيز ، يستطيع أن يعرف كل شيء عن الإسلام . ومن ناحية أخرى

فإن التسامح فى الإسلام فى جوهر العقيدة والأمر الإلهى للمسلمين .. ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ .. ﴿ فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر﴾ .. ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ .. ومن جانب آخر فإن جوهر الإسلام أن اختلاف العقائد لا يعنى وجود عازل يمنعهم من التعامل والتعاون ، فقد كان الرسول ﷺ يتعامل مع النصارى واليهود ، وكان يرتدى ملابس مستوردة من بلاد أديانها مختلفة ، وفى بداية الهجرة أمر المسلمين بالهجرة إلى الحبشة ليكونوا فى حماية حاكم مسيحى ورأى أنهم سيجدون الأمان عنده أكثر مما يجدونه وهم فى وطنهم وبين أهليهم ، وتطبيق ذلك قائم الآن فى مصر .. مصر مجتمع فيه المسلم والمسيحى ..والمبدأ الذى يعيش به المصريون هو : الدين لله والوطن للجميع ، وهو مبدأ معبر عن موقف الإسلام ، والمصريون يعيشون معا فى بيوت متجاورة وهم شركاء فى أعمالهم التجارية وفى الأرض الزراعية وفى كل أمور حياتهم وليس فى ذلك حرج أو حساسية .. وإذا ظهرت قلة منحرفة متعصبة أو تسعى إلى إيذاء أصحاب الدين الآخر ، فهم مجرمون ، أو مرضى ، أو مصابون بالهوس الدينى ، وهم فى النهاية شذوذ عن القاعدة ، وبدلا من أن تركزوا على الشذوذ انظروا إلى القاعدة العريضة والملايين يتعايشون منذ ١٤٠٠ عام وحتى اليوم فى أخوة كاملة .

خامسا : إن الحوار لكى يحقق نجاحا لابد أن نحدد ما هو الهدف .. هل الهدف أن يقول أصحاب كل دين نحن أصحاب الدين الأفضل وأنتم أصحاب دين زائف أو نحن على حق وأنتم على باطل ؟ .. إن كان هذا هو الهدف فسيكون ذلك حكما بفشل الحوار منذ اللحظة الأولى .. وإن كان الهدف هو البحث عن القواسم المشتركة بين الأديان ، وما أكثرها ، فسيكون حوارا ناجحا ، لأن كل الأديان من عند الله ، والله واحد ، وليس هناك اله لكل دين ، ومادام الله واحدا ، فمن الممكن أن يلتقى البشر – وهم مخلوقاته –

على المبادئ المشتركة ويتركوا أوجه الخلاف ليكون الحكم فيها لله .. والله يحكم بيننا يوم القيامة فيما كنا فيه مختلفين .

سادسا : ليس معنى ذلك أن الأزهر يريد أن يتفادى أو يتهرب من مناقشة العقائد ، فالدراسة المقارنة للأديان لا بأس بها ، ولكن فقط نفضل أن يكون ذلك بين العلماء والمتخصصين وليس بين العامة الذين يحكّمون مشاعرهم ولا يحكّمون المنطق والمنهج العلمي .. ونحن مستعدون فى هذا المجال وقادرون على المضى فى مثل هذا الحوار بمثل ما تريدون .

سابعا : أن الغرب المسيحى بحضاراته ، يعترف بأنه بدأ النهضة بالعلوم التى نقلها عن المسلمين ، والآن نقول إن العالم الإسلامى يحتاج إلى أن يرد الغرب الدَّيْن الذى عليه ، ونأخذ منه العلوم الحديثة ، لأن العلم والحضارة ملك للبشرية وليست حكرا لجانب من البشر .. هذا بعض ما تحدث به الإمام الأكبر إلى المستشرقين وعلماء اللاهوت الألمان فى موضوع يطول فيه الحديث .

خاتمة
المصالحة بين الغرب والإسلام

المصالحة بين الغرب والإسلام

فى اعتقادى أن مؤتمر « الإسلام والغرب » الذى عقد فى القاهرة فى شهر يوليو ١٩٩٧ يمثل نقطة تحول فى العلاقات بين الإسلام والغرب ، ويوجه مسارها إلى طريق جديد من التعاون والحوار ، بدل الطريق الوحيد الذى أجمع مفكرو الغرب على حتمية السير فيه ، وهو طريق الصدام بالحرب الساخنة أو الباردة فى أحسن الأحوال . فهو فى حقيقته مؤتمر هدفه عقد مصالحة تاريخية بين الغرب والإسلام

ويدعونى إلى اعتبار هذا المؤتمر نقطة تحول لأسباب عديدة .

أولها : أن هذا المؤتمر شهد أكبر تجمع لقيادات الإسلام والمسيحية فى العالم .. فقد شاركت فيه وفود ٨٥ دولة إسلامية وغربية ، وشارك فيه الإمام الأكبر شيخ الأزهر ، وقداسة البابا شنودة ، ووفود من الفاتيكان والكنائس البروتستانتية فى مختلف دول العالم ، وتحدث فيه قداسة البابا شنودة عن سماحة الإسلام ، وبراءته من الإرهاب ، والعنف بكل صوره .

كما شارك فيه عدد كبير من أساتذة اللاهوت والمستشرقين والباحثين فى تاريخ العلاقات بين الغرب والإسلام .. من كل التيارات ، ومن كل القارات ، وجلسوا – لأول مرة – معًا لا لمجرد تبادل عبارات الود والتمنيات الطيبة ، ولكنهم تحدثوا بصراحة عن مخاوف متبادلة على الجانبين ، هناك ما يدعو إليها ويبررها ، وهناك من يغذيها ويزيد من حجمها ، وينفخ فى النار لتزداد تأججًا ، وليصل الصدام المتوقع إلى لحظة الانفجار فى أسرع وقت ، وبأكبر قدر من الخسائر والجروح ، حتى لا تكون هناك فرصة بعد ذلك لتصالح أو حتى لهدنة .. وقد استطاع هذا المؤتمر أن يكتشف أن نظرية صدام الحضارات

التى يروّج لها كثير من مفكرى الغرب وأجهزة الإعلام هى مجرد افتراض ليس له سند إلا تصور أن الغرب يجب أن يعيش فى حالة استنفار دائم ، ولابد أن يبحث لنفسه عن عدو بأى شكل وبأى حال ، إذا كان العدو وهو الاتحاد السوفيتى قد انهار فلم يعد هناك « عالم » آخر يمكن أن يكون هو العدو إلا « العالم الإسلامى » على اعتبار أن الإسلام أيديولوجية متكاملة ، وأتباعه يقولون إنه « دين ودنيا » وإنه عقيدة للعبادة ، ونظرية فى السياسة وأصول الحكم ، كما أنهم يعتبرون الإسلام هو أكمل وأفضل وخاتم الأديان .

والسبب الثانى : لأهمية هذا المؤتمر هو أنه أنهى حالة الشك فى جدية المخاوف من نظرية صدام الحضارات وماذا وضع أمام الذين كانوا يستهينون بالفكر القادم من الغرب عن حتمية الصدام بين الإسلام والغرب ؟ ، وأن الخطر على الغرب فى المرحلة القادمة هو الإسلام ، وأصبحت الحقيقة أمامهم واضحة ، وظاهرة لا تحتمل الشك ، أو الإنكار .

* * *

بعد هذا المؤتمر أصبح من الممكن على سبيل المثال فهم الدراسة التى نشرتها صحيفة « الموند ديبلوماتيك » فى عدد ديسمبر ١٩٩٤ بقلم ماريانو أجوميه ، بعنوان : « عدو للغرب بديل عن الشيوعية » وتساءل فى مقدمتها : من هو الخصم الذى سيحل فى نظر الغرب مكان الشيوعية بعد أن ثبت إفلاسها أيديولوجيا وفشلها فى التطبيق ؟ وأجاب على الفور : إن علماء الجغرافيا السياسية ، ومخططى الاستراتيجية متفقون على أن الإسلام هو « العدو » الجديد ، مما جعل فريقًا من الباحثين والمثقفين يأخذون فى بلورة نظرية « الصراع بين الحضارات » من ناحية ، وجعل الخبراء العسكريين فى الغرب يعملون بهمة – من ناحية أخرى – فى إعداد نظرية جديدة للحرب تهدف إلى تصفية وتدمير هذا الخصم الغريب .

تقول دراسة المونـد ديبلوماتيك : إن كل المخاطر والتهديدات والمخاوف التى ستؤرق العالم فى نهاية هذا القرن ستنبع من « ناحية الإسلام » . والشعور بالريبة من كل ما يمت للإسلام بصلة ليس بالشىء الجديد ، فإن الشعور قديم وعميق فى الغرب بأن الإسلام أخطر شبح يحوم حول الغرب مستهدفا تعكير صفوه . إلى حد أن بعض قادة الرأى فى الغرب أعلنوا أن المهاجرين المسلمين إلى أوربا هم مصدر القلق من تدنيس قيم ومبادئ المجتمع الغربى ، وإلى حد أن معهد « رويال انستيتوت للشئون الدولية بلندن » أعد تقريرًا قال فيه : « إن الإسلام – العدو القديم – تسلل إلى الغرب من الباب الخلفى بأفكاره الخطرة عن الجهاد ضد الكفرة ، والتعصب ، والعنف .. وإن المواجهة بين العالم الإسلامى والعالم المسيحى هى قائمة من قديم الزمان ، ولكن الأمر تطور أخيرًا إلى شعور عدائى أعمى ضد المسلمين ، بعد أن ساهمت الأزمة البترولية فى ١٩٧٣ فى تكوين تصور بأن العالم العربى يستطيع أن يتحكم اقتصاديًا فى مصير الدول المتقدمة ، وفى الثمانينات ساهمت عملية خطف الرهائن الغربيين فى إيران ولبنان فى وصم المنظمات الإسلامية بطابع وحشى ، ومعاد للغرب تحديدا . ومن ناحية أخرى ساعدت المساندة الشاملة من وسائل الإعلام الغربية لصالح إسرائيل فى تضليل الرأى العام فى الغرب حول مشروعية المطالب العربية وحقوق الفلسطينيين الذين تعمدت وسائل الإعلام الغربية تشويه صورتهم والحديث عنهم على أنهم إرهابيون . وبعد اكتشاف البرنامج النووى العراقى تأكدت الصورة الذهنية لدى المواطن الغربى بأن العرب يسعون إلى خيانة الغرب ! ويضاف إلى ذلك الاغتيالات التى ارتكبت ضد الأوربيين فى مصر والجزائر » .

كل هذا قالته « الموند ديبلوماتيك » وهى أكثر صحف العالم احترامًا .

وقالت أيضا : « إن التقرير الذى صدر مؤخرًا عن مجلس حلف شمال الأطلنطى تضمن حقيقة أن دول الأطلنطى تنظر إلى الإسلام على أنه « خطر »

يتهددها ، بسبب العداء للقيم الغربية ، والقناعة بأن المسلمين سوف يستخدمون العنف لضرب الرعايا والمصالح الغربية » .

وفى تقرير حلف شمال الأطلنطى أيضا أنه « لا يستبعد أن تنجح الجماعات الإسلامية فى زعزعة ثقة الرأى العام فى الديمقراطية ، ليس فى البلاد الإسلامية وحدها ، بل فى قلب المجتمعات الغربية نفسها .. ومن المحتمل أيضًا أن ينجح التيار الإسلامى المتطرف فى دفع أعداد ضخمة من المهاجرين واللاجئين المسلمين إلى دول غرب أوربا » .

كل هذا ذكرته .. « الموند دبلوماتيك » نقلاً عن تقرير حلف الأطلنطى ، وهذا الحلف ليس منظمة للبحث والفكر ، ولكنه منظمة للحرب والدفاع ، ومعنى ذلك أن الدراسة التى أعدها هى المقدمة الاستراتيجية لتحديد العدو ومبررات الهجوم عليه ، وبعد الاستراتيجية يأتى التفكير العسكرى ، ورسم الخطط الحربية ، وتوجيه القوات والأسلحة الظاهرة والخفية ، واختيار مواقع التمركز وتحديد أدوار المقاتلين .

ومعنى كل ذلك أن فكرة حتمية الصراع بين الغرب والإسلام قد انتقلت من مجال التفكير النظرى إلى مجال التفكير العسكرى ، ولابد أن نفهم جيدًا معنى أن تكون نظرية صمويل هنتجتون موضع دراسة – ليس فى الجامعات وحلقات البحث – ولكن فى وزارات الخارجية وقيادة حلف شمال الأطلنطى ، ووزارات الخارجية مهمتها تحديد سياسات الدول ، وحلف شمال الأطلنطى هو تحالف يضم جيوش الغرب وليست له مهمة غير المهام العسكرية . نظرية هنتجنتون إذن خرجت من مجال الفكر إلى مجال توجيه السياسات والخطط العسكرية .

* * *

من هذا يتضح أنه لابد أن ندرك أن نظرية الصراع بين الغرب والإسلام لم تعد نظرية أكاديمية ، ولكنها نظرية موضوعة الآن أمام المجلس البريطانى الأمريكى للمعلومات الأمنية ، وحلف شمال الأطلنطى ، ووزارات الدفاع والخارجية فى دول الغرب ، وهناك خطط مشتركة بين الحكومات الغربية ، وشركات إنتاج السلاح فى دول الغرب تعمل بكل قوتها ونفوذها على زيادة المخاوف من العالم الإسلامى لكى تضمن استمرار زيادة مبيعاتها وأرباحها ، والعلاقات فى الغرب بين رجال السياسة ، ورجال الاقتصاد ، ورجال الإعلام ، وشركات السلاح معروفة ، ولاتحتاج إلى شرح جديد .

كل ذلك يجعلنا نحذر وننذر من خطر ما يحدث فى الغرب .

وإن كان أكثر المفكرين والسياسيين فى العالم الإسلامى لا يأخذون كل ذلك مأخذ الجد ، كالعادة ، ولن يدركوا خطورته إلا بعد فوات الأوان .. كالعادة أيضا ..

وهذا مايدعونى إلى القول بأن مؤتمر الإسلام والغرب الذى عقد فى القاهرة هو أهم حدث سياسى واستراتيجى وليس فقط أهم لقاء ثقافى .

فقد لمس الجميع جدية تناول الغربيين لقضية الصراع الحتمى بين الغرب والإسلام . ولمسوا جدية الشعور السائد فى الغرب بأن الإسلام هو العدو .

وكان هذا المؤتمر فرصة لكى تعلن مصر موقفها على لسان الرئيس حسنى مبارك ، وفى نقاط محددة .

● قال الرئيس أمام المؤتمر : « إن قضية العلاقة بين الإسلام والغرب أصبحت أهم الموضوعات فى الأعوام الأخيرة بعد ظهور أصوات فى الغرب تعتبر الإسلام هو العدو للحضارة الغربية . وتوحى بوقوع صدام حضارى وشيك .

إننا يجب أن نبحث عن أرضية مشتركة للتعاون بدل الصدام .

إن هناك تعاونًا اقتصاديًّا وثقافيًّا وسياسيًّا بين العالم الإسلامى والغرب ، ولكنه ليس كافيًا ، لأن تنسيق المصالح يجب أن يسبقه الفهم المتبادل ، ولذلك نحتاج إلى حلول على الصعيد الثقافى والحضارى والدينى ، ونحتاج إلى التخلص من الأحكام المسبقة والمفاهيم الخاطئة لدى الجانبين .

إن محاولات الغرب لفرض شكل واحد من أشكال الحضارة أو الثقافة على دول العالم المختلفة حتى لو افترضنا أن ذلك يمكن تحقيقه من الناحية العملية فإنه ليس فى صالح السلام العالمى . ويجب احترام خصوصيات كل شعب وعقيدته وثقافته وأسلوب حياته .

إن الإسلام يحترم خصوصيات الشعوب ، وهو قائم على أن الله خلق الناس مختلفين ، لا ليكون اختلافهم سببًا للتنازع ، بل ليكون سببًا للتعارف والتعاون » .

* * *

● وكانت إشارة الرئيس مبارك إلى « صحيفة المدينة » لها دلالة خاصة ولأنها الوثيقة التى أصدرها النبى ﷺ فى تأسيس مجتمع المدينة بعد الهجرة وهى وثيقة دستورية رائدة .. أقر الرسول فيها التعددية الدينية والاجتماعية والثقافية والعرقية ، وجعل هذه التعددية أساسًا للمجتمع الإسلامى الجديد فى المدينة ، لكل فرد نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات ، بصرف النظر عن ديانته أو جنسه أو لونه ، مادام ملتزمًا بأمن المجتمع واستقراره .

● والإشارة الثانية المهمة للرئيس مبارك هى قوله للمؤتمر : « إننا لا يجوز أن نقف أمام العوامل السلبية فى تاريخ العلاقات بين الغرب والإسلام ونتجاهل ما بين الحضارتين من نقاط التقاء عديدة .. يجب أن نفكر فى التعاون ، ونلفت النظر إلى المستقبل بدل البقاء فى ظلام الماضى وأحداثه » .

● وكانت أقوى نقطة فى حديث الرئيس مبارك للمؤتمر « إن الحوار بين الغرب والإسلام لن يكون له معنى ، ولن يستمر ، إلا إذا توقفت النظرة السلبية للإسلام فى الغرب » ، وقال الرئيس كلمات كان يقصدها : « ليس هناك شك فى أن الإسلام قد أسيء فهمه فى الغرب بدرجة كبيرة ، تثير انزعاج المنصفين من أبناء الغرب أنفسهم ، وقد عبر عن هذا الانزعاج عالم الأديان الألمانى المعروف هانزكونج بقوله : « إن ما يمكن أن يسمعه المرء أو يقرأه عن الإسلام فى وسائل الإعلام الغربية ، وما يقوله المثقفون عنه أمر مزعج ومخيف ، إنه مزعج بمعنى مزدوج .

أولاً : بسبب الاعوجاج والأحكام المغلوطة التى تتكشف فى هذه العقول .

وثانيًا : بسبب الطريقة المخيفة والخبيثة التى تلقى بها الأحكام عن الإسلام »

● وكانت عبارات الرئيس مبارك الأخيرة موجهة إلى قادة الدول ، ومراكز البحث والتخطيط فى الغرب ملخصها : إذا فهم الغرب الإسلام على حقيقته فهمًا موضوعيًّا ، كما توضحه مصادره الأصلية وتعاليمه المقررة ، وليس من خلال تصرفات طائشة تصدر من بعض أبناء المسلمين هنا وهناك ، فإن هذا الفهم الموضوعى سيكون له أثره الإيجابى فى إزالة الكثير من أسباب سوء الفهم التى ترسخت على مدى قرون عديدة ، وبذلك يكون السبيل ممهدًا لإقامة التعاون على أسس سليمة ، دون توجس ، أو سوء فهم من جانب إزاء الجانب الآخر .

ولم يكن الرئيس مبارك فى كلماته الأخيرة للمؤتمر فى موقف رئيس الدولة فقط ، ولكنه كان فى موقف المسلم الذى يدافع عن دينه ، ويتحدث من موقع الالتزام به حين قال : « إن الإسلام يعترف بالديانات السابقة ،

وبأنبياء الله جميعًا .. وإننا لا نريد إلقاء المسئولية على جانب دون الآخر ، ولكننا نريد أن نخرج من هذه الدوامة إلى آفاق المستقبل » .

* * *

وخلاصة البحث عن أصول وجذور المخاوف المتبادلة بين العالمين : الغربى والإسلامى . هى أن الصراع الذى يتحدثون عنه ليس حتميًا ، ويمكن تفاديه . ولكن تفادى الصراع له شروط .

أولاً : أن يفهم الغرب حقيقة الإسلام ، ولا يخلط بين الإرهاب والإسلام ، فالإرهاب سلوك جماعات منحرفة يرجع انحرافها وعدوانها لأسباب متعددة ، ليس من بينها الدين ؛ لأنه ليس هناك دين أرسله الله يحرض أتباعه على قتل واغتيال وسرقة الآخرين ، وبث الخوف فى نفوسهم ، وتهديدهم فى أرواحهم وأموالهم .. وأى دين يدعو إلى ذلك ليس دينا .. وليس من الله .. فهذه عقيدة الشيطان وليست عقيدة الله . الشيطان يدعو إلى الكراهية والعنف واغتيال الأرواح والحقوق ، ويأمر أتباعه بالشر ، والله يأمر بالحب والتسامح ونشر نعمة الأمان .. جماعات الإرهاب إذن ليست هى المعبرة عن روح الإسلام ولكنها خارجة على الإسلام .. وليس عجبًا فى ذلك .. فى الغرب جماعات إرهاب مماثلة تدعى أنها الممثلة للمسيحية أو اليهودية والمدافعة عنهما والمطالبة بإقامة شريعتهما ، وهى فى الحقيقة حرب عليهما .. فنحن جميعًا فى الهم سواء .. شرق وغرب .

ثانيًا : إن الحوار بين الإسلام والغرب يستلزم فى البداية مناخًا جديدًا ، تخلو فيه الساحة الإعلامية فى الجانبين من الاتهامات التى لا تقوم على أساس صحيح ، والتى تحركها دوافع مريضة ، أوخبيثة ، أو جهات من صالحها استمرار التوتر والعداء والكراهية على الجانبين ، ولابد أن تُحدد هذه الجهات

بصراحة ، ونقول : من الذى يستفيد من تخريب العالم الإسلامى ؟ من المستفيد من تشويه الإسلام ؟ . من المستفيد من إساءة العلاقة بين العالم الإسلامى ودول الغرب ؟

ثالثًا : إن هذا الحوار اللازم بين الغرب والإسلام يجب أن يحدد أهدافه منذ البداية . ليس الهدف التراشق بين أصحاب الديانات المختلفة . أو إظهار محاسن دين ومساوئ دين آخر .. أو محاولة الإقناع بأن هناك دينا أفضل من دين .. فهذه محاولات عقيمة تثير المشاعر ولا تصل إلى الإقناع .

ويجب أن نذكر واقعة يتناقلها الرواة من بدايات التاريخ الإسلامى لها دلالتها ، فقد حدث فى الفترة الأولى من حكم الرسول فى المدينة أن شاس ابن قيس ،– وهو شيخ يهودى شديد الطعن على المسلمين– سعى إلى الايقاع بين المسلمين أنفسهم ، فذهب إلى نفر من الأوس والخزرج يتحدثون ، فغاظه مارأى بينهم من ألفة ومودة فى ظل الإسلام ، بعد ماكان بينهم من العداوة فى الجاهلية ، فأرسل شابا من اليهود جلس بينهم وذكر لهم يوم « بعاث » وأنشد بعض ماكانوا يقولون من أشعار هذا اليوم . وكان هذا اليوم يوم قتال شديد بين الأوس والخزرج انتصر فيه الأوس ، واستطاع الشاب الدسيسة أن يثير مشاعر الجالسين ، حتى تصايحوا : السلاح .. السلاح .. وأوشكوا على القتال ، فبلغ رسول الله ﷺ ماحدث ، فخرج إليهم وقال :

– يا معشر المسلمين ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ أبعد إذ أكرمكم الله بالإسلام ، ترجعون إلى ماكنتم عليه كفارًا ؟

فعرف القوم أنها نزعة الشيطان ، وكيد عدوهم ، فألقوا السلاح ، وبكوا ، وتعانقوا ، ونزل فيهم قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ﴾ .

وإذن فهناك دائما من يسعى إلى إشعال النار فى صفوف المسلمين .. أو بينهم وبين غيرهم دون سبب للعداء .. والحذر واجب .

والإسلام لا يحمل كراهية أو عداء للمسيحية أو اليهودية ، بل إن القرآن لا يعتبر الإسلام اسمًا لدين خاص ، ولكنه الاسم الذى تشترك فيه كل الأديان .. قال نوح لقومه : ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ ، وقال يعقوب يوصى بنيه : ﴿ فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون ﴾ .. وقال أبناء يعقوب لأبيهم : ﴿ نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحق ، إلها واحدًا ونحن له مسلمون ﴾ ، وقال موسى عليه السلام لقومه : ﴿ يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ﴾وقال الحواريون لعيسى عليه السلام : ﴿ قالوا آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون ﴾ . بل إن فريقا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن : ﴿ قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ﴾ .

والإسلام هو الدين الذى يأمر أتباعه باتباع سائر الأنبياء : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ .

الإسلام يعلم أتباعه أن كل المؤمنين بالله أمة واحدة ويقول القرآن .. بعد أن يسرد مسيرة الأنبياء : ﴿ وأن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ .

وليس مسلمًا من لا يؤمن بكل الديانات وكل الكتب السماوية وكل الأنبياء .

﴿ قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم ، وإسماعيل ، وإسحق ويعقوب ، والأسباط ، وما أوتى موسى ، وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ .

لا نفرق بين أحد منهم ..

المسلم لا يفرق بين نبى ونبى .. أو بين دين ودين .. والقرآن يعلم المسلمين أن الإنجيل جاء مصدقًا للتوراة ، وأن القرآن جاء مصدقًا للإنجيل ، وقد أخذ الله ميثاق كل نبى إذا جاءه رسول مصدق لما معه أن يؤمن به وينصره .

فى الإسلام كل الشرائع السماوية صدق وعدل .. يصدق بعضها بعضًا .. ومادام مصدرها واحدًا .. ورسالتها واحدة .. وهدفها واحدًا .. فكيف تختلف .. وكيف يتقاتل أتباعها ..

والاسلام يعلم أتباعه أن توحيد البشر على ديانة واحدة مستحيل :

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين ﴾ .

﴿ ولو شاء ربك لآمن مَن فى الأرض كلهم جميعا ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ .

﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ .

والقاعدة الإسلامية هى :

﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ .

ولذلك ليست الدعوة فى الاسلام بالعنف ولا بالتخويف أو الإكراه :

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ .

والإسّلام يعلم اتباعه أن يبادلوا السلم بالسلم ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ﴾ ولا يحاربوا من يسالمهم :

هذه هى حقيقة الإسلام

وكل من يخالف هذه المبادئ إنما يخالف ما هو معلوم من الدين بالضرورة ، بنص القرآن الصريح الذى لا يحتمل التأويل .

رابعًا : إن الحوار بين الإسلام والغرب لا يمكن أن يبدأ فى وسائل الإعلام الجماهيرية ، ولكنه يجب أن يبدأ بين المتخصصين والعلماء أولاً ، بقصد البحث عن أرضية مشتركة ، وأساس للتفاهم والتعاون ، وبعد ذلك يمكن التوسع فى الحوار لشرح هذا الفكر الجديد للجماهير .

خامسًا : إن الحوار بين الأديان هو فى الأساس حوار بين مؤمنين بالله ، والمعركة الكبرى أمامهم ليست فى مَنْ منهم على صواب ومَنْ على خطأ ، فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه مختلفين ، ولكن يجب أن يكون هدفهم هو توحيد الصفوف فى معسكر المؤمنين بالله على اختلاف دياناتهم أمام معسكرين : الإلحاد والمادية . وهذا المعسكر الأخير يزداد عددًا .. فالفلسفة المادية تنتشر ، والإلحاد يكسب أنصارًا ، والتحلل الأخلاقى ، وتفكك الأسرة ، وانتشار الروح الفردية الأنانية ، والعدمية ، هى التحدى الحقيقى أمام المؤمنين بالله عمومًا . فالأولى أن يتوحد المؤمنون فى صف واحد أمام هذه الموجات الخطيرة على الديانات وعلى البشرية بدلاً من أن يحارب المؤمنون بعضهم بعضًا فيعطوا بذلك ذريعة إضافية تعزز منطق وموقف الملحدين .

سادسًا : هناك قضايا تحتاج إلى تعاون العالم الإسلامى والغربى معًا ، بدلا من توقع الصدام ، مثل انتشار جماعات العنف هنا وهناك بدعاوى مختلفة ، وتناقص الموارد العالمية خصوصًا المياه ، وتدمير البيئة نتيجة الإسراف فى التصنيع وسعى الغرب إلى إنقاذ البيئة فيه بتدمير البيئة فى الدول المتخلفة وهى الدول الإسلامية .

سابعًا : إن الغرب يجب أن يتفهم مايحدث فى العالم من تغيرات ولا يتخوف مما يلاحظه من أن الثقافة الإسلامية أصبحت قوة صاعدة ، ولا يجوز تجاهلها ، ويجب أيضا ألا يتخوف من الحضور الإسلامى فى

الغرب ، فالمسلمون المهاجرون لن يكونوا خطرًا فى أوربا إذا وجدوا فيها التسامح والحقوق المتساوية والاعتراف بحقوق الإنسان .

ثامنًا : إن الغرب يجب ألا ينظر إلى العالم الإسلامى على أنه مخزن للبترول وسوق لتصريف منتجاته ومجال لتحقيق رفاهيته ، وينكر على العالم الإسلامى حقه فى التقدم والتطلع إلى الوصول إلى مستوى حضارى متقدم علميًّا وتكنولوجيا وصناعيًّا ، بحيث لا يكون التقدم حكرا على الغرب وحده . فهذه النظرة الأنانية من الغرب هى المحرك الخفى لفكرة الصراع مع العالم الإسلامى .

تاسعًا : إن انحياز الغرب لإسرائيل فى موقفها الظالم على حساب الحقوق العربية هو العقبة على طريق الحوار والتعاون بين الغرب والعالم الإسلامى ، وهذا الانحياز الغربى يصعب على العقل العربى والإسلامى أن يقبله ، ويصعب على الوجدان العربى والإسلامى أن يغفره .

عاشرًا : إن مفهوم الغرب عن الإسلام يجب أن يتسم بالإنصاف ، وليس من الإنصاف أن يتعلم الطفل فى أوربا وأمريكا فى المدارس أن العرب والمسلمين ليسوا إلا مجموعات من البدو يحملون السيوف ويعتدون على الغير ويظلمون المرأة ، فكيف يكون الحوار وفى العقول الغربية هذه الصورة السلبية عن الإسلام والمسلمين .

* * *

وهكذا نصل إلى أن مؤتمر القاهرة وقد أعلن صراحة وجود المشكلة ، وتقدم نحو التشخيص والتحليل بصراحة أيضًا ، ووصل إلى ضرورة إقامة جسور للحوار والفهم والتفاهم بين الغرب والإسلام ، فإن القضية الآن فى أيدى المؤسسات الدينية والثقافية والإعلامية هنا وهناك ، وواجب كل من

يتولى موقعًا من مواقع المسئولية أن يؤدى واجبه فيها ، بل واجب كل إنسان أن يسعى إلى أن يفهم الحقيقة ويبعد عن عقله بقايا عداءات ودعايات وأكاذيب وأحقاد الماضى . فالمستقبل هو الأولى بالرعاية .

ومستقبل الغرب والعالم الإسلامى معًا أن يسود السلام والتعاون . وأن تظهر نظرية جديدة تبشر بإمكان تكامل الحضارات وحوارها بدلاً من تلك النظرية الفاسدة عن صراع أو صدام الحضارات .

إن الغرب مدين بالاعتذار للإسلام عن سوء الفهم والإساءة المقصودة .

لابد أن يعلن الغرب إدانته لماكتبه بعض الغربيين مما لا يتفق مع حقائق التاريخ أو المنطق السليم .

لابد أن يطهر الغرب نفسه من أحقاد الماضى تجاه الإسلام بالذات ، مما جعل الأدبيات الغربية مليئة بالأكاذيب والافتراءات والسباب للدين الإسلامى وعقائده ، ولنبى الإسلام ، وللمسلمين فى كل العصور وفى كل أنحاء العالم ، وهذا الموقف الغريب لم يتخذه الغرب من أية ديانة أخرى ، مثل البوذية أو الكنفوشيوسيه ، بل إن الولايات المتحدة تسمح بعقائد غريبة ليس أغربها عبادة الشيطان ، ولا تجد بأسا من إقامة كنائس لعبادة الشيطان ، ولا تجد هذا الكم الهائل من الكتابات المعادية لها مثلما تجد فى عبادة الله فى دين الإسلام .

ولكى تصفو نفوس المسلمين ويدخلوا فى الحوار مع الغرب فإنهم يحتاجون إلى تحديد موقف الغرب الآن من مواقف سابقة كان لها أثرها فى نفوسهم والأمثال كثيرة ..

● مثل ما كتبه الدكتور هولباخ عام ١٧٧٦ فى كتابه « الأخلاق العالمية » ويقول فيه : « لقد ظهر محتال فى بلاد العرب ارتجل الأكاذيب باسم السماء واستطاع أن يفرضها على جزء من عشيرته ، وسرعان ما أصبحت هذه

الأكاذيب مقدسة وانتشرت بالسلاح فى آسيا وأفريقيا وأوربا ويسمحون للمتعصبين بأن يغزوا كل الأرض ويرووها بالدماء .. إن شريعة محمد أقيمت بالسلاح وهى شريعة تطيح بالعروش لتقيم الطغيان الإسلامى على أنقاضها » .

● وما كتبه المستشرق الفرنسى أرنست رينان فى كتابه « حياة يسوع » عام ١٨٦٣ : « إن الشرط الأساسى لكى تنتشر الحضارة الأوربية هو هدم السلطة الإلهية للإسلام ، وهذه هى الحرب الخالدة التى لن تتوقف إلا عندما يموت آخر أبناء إسماعيل من الفقر ، أو أن يتم دفعه رعبًا إلى أعماق الصحراء » .

الخطوة الأولى لبدء صفحة جديدة فى العلاقات بين الغرب والإسلام هى إعادة النظر فى الصفحات القديمة وإعلان الحقيقية بعد سنوات سادت فيها الأكاذيب .

وليس ذلك غريبا .. فلقد اعتذرت الكنيسة المسيحية عن إساءتها إلى اليهود ، وأصدر بابا الفاتيكان وثيقة تبرئة لليهود من دم المسيح ، وغير بذلك وقائع التاريخ والاحداث الثابتة فى الكتاب المقدس ذاته ، فهل سيكون صعبًا معاملة الإسلام بالمثل ؟

هذا ..

أولاً : لإعادة الثقة .

وثانيًا : لابد أن يتوقف الغرب عن الخلط المتعمد الذى يقوم به الباحثون والقائمون على الإعلام بين الإسلام والإرهاب .. ولابد من الاعتراف بأن الإرهاب ظاهرة إجرامية لها أسباب اجتماعية بالدرجة الأولى ، وهى موجودة فى كل المجتمعات فى الغرب والشرق ، وفى كل الأديان ، وعند الإحصاء سنجد أن عدد المنظمات الإرهابية التى تتمسح فى المسيحية واليهودية فى أنحاء العالم أضعاف المنظمات الإرهابية التى تتمسح فى الإسلام ..

وليس هناك ما يدعو الغرب إلى الإصرار على الادعاء بأن الإرهاب نابع من طبيعة الدين الإسلامى ذاته وجزء من جوهره ، فهذا ادعاء لا يستقيم مع الواقع ولا مع العقل .

وثالثًا : يجب أن يفهم الغرب جيدًا الرسائل العديدة التى تصل إليه من العالم الإسلامى ، وتحمل رغبة فى الحوار والتفاهم وإغلاق ملف العداء والكراهية وسوء الفهم والعداء القديم .. وليس أول هذه الرسائل ولا آخرها البيان الذى أصدره مؤتمر العالم الإسلامى فى عام ١٩٧٥ ، وأعلن فيه أن علاقات المشاركة بين الإسلام والمسيحية أمر طبيعى يعبر عن مشيئة الله ، ولصالح السلام فى العالم ومستقبل البشرية .

وعلى الجانب الآخر هناك إشارات مهمة صدرت فى الغرب لابد أن تقابل بالاهتمام والجدية من العالم الإسلامى .. مثل بيان المجمع الفاتيكانى الثانى ، وهو أعلى مرجع فى نطاق الكنيسة الكاثوليكية وفيه أن « تدبير الخلاص يشمل أيضا الذين يؤمنون بالخالق ، وأولهم المسلمون ، الذين يعلنون أنهم على إيمان إبراهيم ، ويعبدون معنا الله الواحد »

ومثل رسالة البابا بولس السادس عام ١٩٧٢ التى وجهها لأول مرة إلى الأمة الإسلامية وقال فيها : « ولماذا لانقوم بتوسيع اللقاء بين المسيحيين والمسلمين ، فإن الغرض منه أن نقدم أمام وعى الناس بطريقة أقوى شهادتنا للعدل والاحترام والمحبة .. وبما أننا مشتركون فى الإيمان بالله الواحد ، فعلينا أن ندعوه لكى يقربنا بعضنا إلى بعض كل يوم أكثر حتى نستطيع أن نعمل معًا ، كل بطريقته ، فى سبيل العدل ، والسلام فى العالم » .

هذه الإشارات لها دلالة لانخطئها ، ولكنها تحتاج إلى أن تنتقل من أعلى إلى أسفل ، من القيادة العليا إلى جموع الملايين فى الغرب ، إلى المسيحيين

العاديين فى الشارع الذين تأثروا بالإعلام المغرض والدعايات السامة ضد الإسلام .

وسيكون مفيدًا أن يأخذ المثقفون والهيئات الدينية فى الغرب بجدية الاقتراح الذى قدمه الدكتور على مراد أستاذ الإسلاميات فى جامعة السوربون بباريس إلى المؤتمر المسيحى الإسلامى الثانى الذى عقد فى فيينا فى مايو ١٩٩٧ ، وجاء فيه : « إننا نؤيد عقد معاهدة صداقة بين المسيحيين والمسلمين على أساس الأهداف التالية :

« بالنظر إلى أعباء التاريخ المشترك ، نعلن رغبتنا وجهدنا فى وضع حد نهائى لاتهاماتنا المتبادلة ، وفى التغلب على أخطائنا ومظالمنا بالغفران والتصالح المتبادلين .

إننا لا نتنكر لهذا التاريخ ، بل نقابله جاهدين فى استخلاص العبرة منه ، وتجاوز نقائصه ، إننا نريد أن نبحث معًا عن الطريق المؤدية إلى تسوية الخلافات بالوسائل السلمية ، وإلى تنحية أسبابها ، والحد من مظاهر التوتر المختلفة .

أما بالنسبة إلى الحاضر والمستقبل ، فإننا نريد أن نعمل معًا على أن نسهم إسهامًا مشتركًا فى بناء حاضر أكثر إنسانية ، ونعد للأجيال المقبلة عالمًا يستطيع فيه المسلمون والمسيحيون أن يقيموا علاقة شراكة ، ويعقدوا أواصر الصداقة فيما بينهم .

إن معاهدة الصداقة هذه نعيها كانفتاح عريض على الكل ، ودعوة موجهة إلى الجميع » .

هذا الاقتراح جدير بالنظر .. وسيكون تحولاً تاريخيًّا إذا اجتمعت عليه المنظمات الدولية مثل الأمم المتحدة ، واليونسكو ، والهيئات الدينية الإسلامية والمسيحية مثل الأزهر والفاتيكان والمنظمات البرتستانتية ، ورابطة العالم

الإسلامى ، والمؤتمر الإسلامى ، وتؤيده برلمانات العالم الإسلامى والغربى ، والجامعات ..

لو حدث ذلك فسيكون تاريخًا جديدًا قد بدأ بالفعل بين الغرب والإسلام .

وبعد ذلك يأتى دور الإعلام ..

لابد أن يعكس الإعلام الغربى بصفة خاصة روح التسامح ..

يعكس للغرب فكرة أن وجـــود دين آخر لا يعنى أن هذا الدين ضلال وفساد لمجرد أنه يختلف عما فى الغرب .

ويعكس أن اختلاف الأديان يستلزم وجود خلافات عقائدية ، وقد استمرت هذه الخلافات قرونًا دون أن يستطيع دين أن يقضى على الديانات الأخرى ، فالاختلاف قائم .. ودائم .. ولابد أن نقبله ونتعايش معه .. ونتعاون مع المختلفين معنا فى الديانة بروح سمحة ..

﴿ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ﴾ .

(صدق الله العظيم)



فهرس

كتب للمؤلف

١ - تاريخ ليس للبيع ... المكتبة الأكاديمية ١٩٩٣ .
٢ - البحث عن المستقبل .. المكتبة الأكاديمية ١٩٩٤ .
٣ - الأمية الدينية والحرب ضد الإسلام .. هيئة الكتاب ١٩٩٦ .
٤ - ابتسامة صغيرة (مجموعة قصصية) .. هيئة الكتاب ١٩٩٧ .

رقم الإيداع	١٩٩٧/١١٠٥١
الترقيم الدولى 977-02-5465-7	ISBN

١/٩٧/٣٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)



هذا الكتاب

شارك المؤلف فى رحلات شيخ الأزهر إلى الغرب والشرق . فى الشرق زار الهند وباكستان ، وفى الغرب زار الولايات المتحدة وألمانيا ، وفى هذه الزيارات دارت حوارات واسعة حول الإسلام ومدى قدرته على التوافق مع معطيات العصر القادم بما فيه من تكنولوجيا متقدمة ، واقتحام لآفاق جديدة فى الكون . وفى هذا الكتاب يلخصُ المؤلف هذه الحوارات بما فيها من تخوف الغرب من الإسلام والمسلمين .

ويكشف الكتاب بعض أسرار العداء المتأصل فى الغرب للإسلام الذى استمر مئات السنين وظهر أخيرا فى نظرية « صراع الحضارات » التى تتحدث عن حتمية الصدام بين الإسلام والحضارة الغربية .

ويشير الكتاب إلى دور الأزهر ورسالته العالمية ، ويبحث عن تصور جديد للأزهر يُمكّنه من القيام بدوره فى مصر أولا ، وفى العالم الإسلامى ثانيا ، وفى الغرب ثالثًا .. لأن الأزهر كان وسيظل حامى حمى الإسلام ، عقيدة وشريعة .



٠٣١٦٧٥/٠١

